

تدارس سورة الكهف

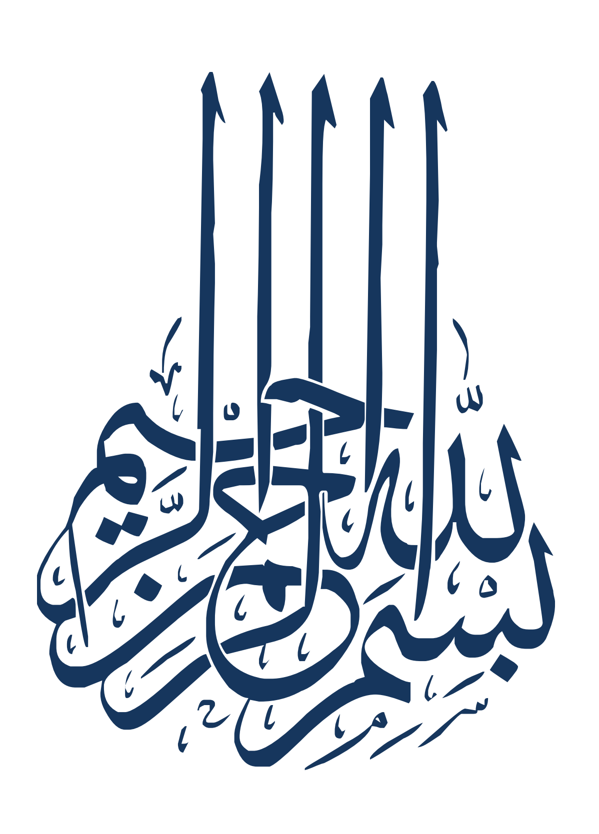
للشيخ الدكتور

سامي بن مسعود الجعيد

الأستاذ بقسم الكتاب والسنة بجامعة أم القرى

قام بجمع المادة وتفريغها وتنسيقها
نخبة من طالبات العلم

العام
1442 هـ


بسم الله الرحمن الرحيم

شكرٌ وإهداءٌ

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن والاه.

حمدًا وشكرًا لله -عَزَّوَجَلَّ- علىٰ أن وفَّقنا لختْم تدارُس «سورة الكهف»، تلك السورة التي رسمت لنا منهاجًا للتعامل مع الفتن وكيفية النجاة منها.

وبعـــد:

إضاءاتٌ ننشرها، وعباراتٌ نتقدم بها بالشكر والتقدير والامتنان

لفضيلة الشيخ الدكتور/ سامي بن مسعود الجعيد، علىٰ ما قام به من شرح للدروس بأسلوبه الماتع، ومعلوماته القيمة.

ويصل شكرنا **للأخ الفاضل/ سلطان السلمي،** علىٰ ما هيّأ وبذل من السُّبل لجمْعنا في كهف التكنولوجيا، لتدارُس كتاب الله -عَزَّوَجَلَّ-.

حفظكم الله ورعاكم!

والشكر بالغٌ مداه لكل العاملين علىٰ هذه القناة.

إضاءاتٌ من كهف القلوب، تسطِّرها في هذا الكتاب مجموعة طالبات علم لكل من نحب؛ لوالدينا، لأزواجنا، لأبنائنا، لكل غالٍ علينا، لكل مسلمٍ ومسلمةٍ.

فإننا نهديكم معاني عظيمة من كتاب الله، ونخصُّ شرح سورة الكهف وتفسيرها؛ لأنها موضوع المدارسة، وموضوع كتابنا الذي اجتمعنا من بقاع العالم في

كهف العلم؛ لتستنير قلوبنا بضيائه ونقله لكم.

وينتقل قلمي ليسطر خير ختامِ شكرٍ وتقديرٍ لمن يمثل ذلك الضوء الذي تسلل إلىٰ هذا الكتاب، بما قدمه من جمعٍ وتخريجٍ ومراجعةٍ، ليظهر كتابنا بهذه الصورة وهذه القيمة، وليكون نبراسًا لتلك الكلمات والمعاني من تلك السورة العظيمة، والتي تسطر في قلوبنا دروبًا لتقوىٰ الله والنجاة من الفتن.

❋ ❋ ❋

مُقدِّمة

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمدًا عبده ورسوله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

لقد اُفتتِحت هذه السورة المباركة، سورة الكهف، بحمد لله -عَزَّوَجَلَّ- وحسن الثناء عليه، لنعمة من أعظم نعمه علينا بعد الهداية للإسلام؛ ألا وهي نعمته بإنزال القرآن الكريم علىٰ نبينا -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-. فالحمد لله الذي أنزل إلينا كتابه الكريم، المبارك العظيم، وجعله أفضل الكتب وأعظمها، فهو المرجع الأول لكل مسلم في تزكية نفسه، وإصلاح مجتمعه والدعوة إلىٰ دينه، فالقرآن الكريم كتاب لا نظير له، قوي في الحق، نُظمت آياته تنظيمًا محكمًا، لا يقع فيه تناقض ولا خلل، وإنّ تدبُّره يساعد علىٰ اكتشاف إعجازه، وسيجد المسلم في كل آية من آياته المباركات معنًىٰ جديدًا يدفعه إلىٰ الخير ويحذره من الشر. فمن بين كل ما تداول الناس من علم قديم أو حديث، لا تجد لكتاب تأثيرًا في النفس مثلما تجد لآيات القرآن وسوره.

والله -تعالىٰ- قد دعانا لتدبُّر كتابه، وتأمُّل معانيه وأسراره، فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص:٢٩].

وقد نعىٰ أيضًا القرآن أولئك الذين لا يتدبرون القرآن ولا يستنبطون معانيه: ﴿أَفَلَا

يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء:٨٢].

وإنّ من السور العظيمة في القرآن الكريم، سورة الكهف، هذه السورة المميّزة بما اشتملت عليه من قصص ذات صفة عجائبية، فهي نسيج متكامل متوازن متدرّج في الإصلاح والتغيير، فالقصص الواردة بها هي عبارة عن تيار من الإصلاح، من السيئ إلىٰ الحسن ومنه إلىٰ الأحسن.

وقد تسابق العلماء قديمًا وحديثًا في نيْل شرف بيان ما تحويه هذه السورة العظيمة من معاني وأحكام، والاجتهاد في بيان مقاصدها وفوائدها؛ لما فيها من آثار بالغة علىٰ حياة المسلمين، والتي تُعد سببًا لسكينة قلوبهم والوقاية من فتن الدنيا ومصائبها، وفهم حقيقة هذه الدنيا مرادها. ومع تطوّر العلم الحديث وظهور التكنولوجيا المعاصرة، تطوّرت معه أيضًا أساليب بيان علوم القرآن عبر الإنترنت ووسائل الاتصال الحديثة، ونجد الكثير من العلماء الأجلاء يتطوعون في نقل هذا العلم بأبسط الطرق الحديثة، والعمل علىٰ إعداد برامج ممنهجة لتدبر الآيات بقدر كبير من اليسر والسهولة.

ومن بين هذه البرامج الجليلة، «برنامج سورة الكهف»، الذي تم إعداده بواسطة قناة يتدارسونه، وهو برنامج تم إعداده لتدارس سورة الكهف حفظًا وتفسيرًا وتدبُّرًا وعملًا، وذلك عبر حلقات يتم بثُّها عن طريق «تطبيق زوم وموقع اليوتيوب»، **لفضيلة الشيخ الدكتور/ سامي بن مسعود الجعيد** -جزاه الله عنّا خير الجزاء-.

وفي هذا الكتاب تفريغ كافٍ ووافٍ لكافة حلقات تدارس سورة الكهف التي تم بثها، والذي يحتوي علىٰ اثنين وعشرين درسًا يتضمن بيان معاني الآيات الكريمة ومناسبتها وفهم فضلها وفوائدها، بأسلوب مبسَّط ويسير، وكما سعدنا كثيرًا بحضور

هذه الحلقات والاستماع لها، وفهم هذه السورة المباركة وتدبرها، ننقلها لكل مسلم مُحب للقرآن الكريم.

وقد تم جمع هذه الدروس وتفريغها ومراجعتها وتنسيقها من قِبل مجموعة من طالبات علم، نسأل الله أن يتقبل منا هذا العمل بقبول حسن، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجعله معينًا لعباده في فهم وتدبُّر هذه السورة العظيمة.

❋ ❋ ❋

بسم الله الرحمن الرحيم



الدرس الأول

مقدمة في تدارُس سورة الكهف

الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمدٍ وعلىٰ آله وأصحابه والتابعين، أما بعد:

فمرحبًا وأهلًا وسهلًا بكم في لقاءات تدارس سورة الكهف! أسأل الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- أن يفتح علينا أسباب طلب العلم، وأن يسخّر مَن يبذل وقته وجهده لتسهيل العلم لطالبيه.

إنّ من علامة فوز العبد ونجاته وسعادته أن يرتبط بكتاب الله -عَزَّوَجَلَّ-؛ فالله -عَزَّوَجَلَّ- يقول في كتابه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس ٥٨]. والارتباط بكتاب الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- تلاوةً وتدارسًا وحفظًا وفهمًا، دليلٌ علىٰ سعادة العبد وفلاحه وفوزه. قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ۝٣٢﴾ [فاطر ٣٢]. وقد جعل الله -عَزَّوَجَلَّ- تلاوة القرآن والعمل به وفهمه، تجارةً رابحةً لن تبور. قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩﴾ [فاطر ٢٩].

الحمد لله الذي هدانا للقرآن، والحمد لله الذي وفقنا للاشتغال به، فإن الاشتغال بالقرآن من أعظم المِنَن، وهو كرامة من الله -عَزَّوَجَلَّ- للعبد. فإذا كان بعض الخلق مشغولين بتدارس كلام البشر والخَوْض في الفلسفات والقول الباطل، فإن انشغال الإنسان بكتاب الله -عَزَّوَجَلَّ- علامةٌ علىٰ فلاحه وسعادته.

تمسَّكْ بحبلِ اللهِ واتبعِ الهُدىٰ ... ولا تكُ بِدْعِيًّا لعلَّك تُفلِحُ

وَدِنْ بكتابِ اللهِ والسُّننِ التي ... أتتْ عَنْ رسولِ اللهِ تنجو وتربح

فهنيئًا لكم ما أنتم فيه! وأسأل الله -سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ- أن يجعلنا وإياكم من المباركين.

أسباب اختيار تدارس سورة الكهف دون غيرها من السور:

السبب الأول: لكثرة قراءة الناس لها، وخصوصًا يوم الجمعة، فهم بحاجةٍ إلىٰ فهم معانيها وسبْر أغوارها.

السبب الثاني: أن هذه السورة، خصوصًا في هذه الأيام، نحن بحاجةٍ إلىٰ تدارسها؛ لأن محور السورة عن الفتن ومعرفة كيفية النجاة منها، والسبل الواقية من التعرُّض للفتن، وكيف يتعامل الإنسان مع الفتن، وأنَّ أعزَّ ما يملك الإنسان بين جنبيه هو الإيمان بالله -عَزَّوَجَلَّ-.

قد جاءت هذه السورة لتتحدث عن أصول الفتن التي قد تعرِض للإنسان، كما سنبين في موضوعات السورة. فكيف سيكون العمل معها؟ وما المخرج السليم في التعامل مع الفتن؟ لا سيّما نحن في زمن كثُرت فيه التقلبات، فنسأل الله -سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ- أن يثبتنا وإياكم علىٰ الحق.

السبب الثالث: ما حوته هذه السورة من الحديث عن القرآن الكريم في افتتاحها

واختتامها وأثنائها. لذلك، كانت الحاجة ماسّةً ومُلحةً إلىٰ أن نطرُق هذه السورة، ولعلنا إن شاء الله -وبعونه وتوفيقه- نمرُّ علىٰ المعاني الجليلة لهذه السورة. فعلينا أن نتأملها ونتدبرها، ونحاول أن نعمل بما تهدي إليه الآيات، لا سيّما أن هناك إشارات سنشير إليها، إن شاء الله -تعالىٰ-.

مسائل في الحديث عن هذه السورة:

المسألة الأولى: في أسماء هذه السورة: سميت هذه السورة بعدة أسماء، منها اسمانِ ثابتانِ نطق بهما النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، واسمٌ اجتهادي، سنشير إليه بعون الله -تبارك وتعالىٰ-.

الاسم الأول: سورة الكهف، وهذا ثبت علىٰ لسان رسولنا -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في أكثر من حديث؛ فقد جاء في حديث أبي الدرداء -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عند مسلم أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ»[1]. فالنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نصّ علىٰ قوله سورة الكهف، وهذا الاسم هو الاسم المشهور عن هذه السورة، في المصاحف، وفي كتب التفسير، وفي كتب السُّنة.

لفظة الكهف جاءت في هذه السورة على طريقين:

الطريق الأول: جاءت بلفظ الكهف، وهذا في أربعة مواضع من هذه السورة.

الطريق الثاني: جاءت بلفظ كهفهم، بالإضافة إلىٰ ضمير الغائب، وهذا وقع مرتين.

الاسم الثاني: سورة أصحاب الكهف، وهذا الاسم ثبَت كذلك علىٰ لسان رسولنا -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كما في حديث النواس بن سمعان -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عند الإمام

---

(١) أخرجه مسلم في كِتَابِ صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي (٨٠٩).

مسلم، وفيه أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ، فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ»(١). وفي التسمية بأصحاب الكهف، لاشتمال تلك السورة علىٰ قصة أصحاب الكهف، وفيه التنويه علىٰ شرف أولئك القوم وتكريمهم، والتنويه بشأنهم وتفخيم أمر أولئك. وهذا سنبينه بعون الله -تبارك وتعالىٰ- لاحقًا.

هناك اسمٌ من الأسماء، وهذا الاسم اجتهادي، جاء في بعض كتب التفسير، وفي بعض كتب علوم القرآن، أن هذه السورة تسمىٰ بسورة الحائلة، واستندوا في ذلك إلىٰ حديثٍ أخرجه الإمام البيهقي، وفيه أنها «تَحُولُ بَيْنَ قَارِئِهَا وَبَيْنَ النَّارِ»(٢). إلا أن هذا الحديث حديثٌ منكر.

المسألة الثانية: ما جاء في فضل هذه السورة، هذه السورة سورة عظيمة وجليلة، وهي في الجزء الخامس عشر من المصحف الشريف، تأتي بعد سورة الإسراء وقبل سورة مريم. وقد وردت فضائل عدة في هذه السورة، منها أن قراءة سورة الكهف سبب لنزول السكينة، جاء في الصحيح عن البَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، قَرَأَ رَجُلٌ الكَهْفَ، وَفِي الدَّارِ الدَّابَّةُ، فَجَعَلَتْ تَنْفِرُ، فَسَلَّمَ، فَإِذَا ضَبَابَةٌ، أَوْ سَحَابَةٌ غَشِيَتْهُ، فَذَكَرَهُ لِلنَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: «اقْرَأْ فُلَانُ، فَإِنَّهَا السَّكِينَةُ نَزَلَتْ لِلْقُرْآنِ، أَوْ تَنَزَّلَتْ لِلْقُرْآنِ»(٣).

وهذا فيه فائدة، وهي أنّه ينبغي للإنسان الخائف الوجِل، أو الإنسان غير المطمئن، أو الإنسان المتعب، أو المريض ونحو ذلك، أن يُكثر من قراءة هذه السورة، لتتنزل السكينة علىٰ قارئها.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، (٢٩٣٧).
(٢) أخرجه البيهقي في كتاب شعب الإيمان، فصل في فضائل السور والآيات، (٢٢٢٣)، قال الألباني في الأحاديث الضعيفة: ضعيف جدًّا، (٣٢٥٩).
(٣) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، (٣٦١٤).

وعلاقة تَنَزُّل السكينة بسورة الكهف، فلعل المراد -والله أعلم- أنّ هذه السورة لما كانت تتحدث عن الفتن والفرار من الفتن، ومعلومٌ أنّ الفرار من الفتن يجلب الخوف، فإذا كان كذلك فلا بد من نزول سكينة واطمئنان تُطمْئن الذي يفرّ من الفتن، ويتعرض لها ويصبر ويحتسب، تغشاه تلك السكينة، ويطمئن قلبه وتهدأ نفسه.

كذلك من فضائل هذه السورة، أنّ من قرأ عشر آيات من سورة الكهف عُصِم من الدَّجال، حيث وردت روايات في صحيح مسلم، مرةً ذكرت فواتح سورة الكهف، ومرةً ذكرت خواتيم سورة الكهف، لكن الذي يظهر -والله أعلم- كما ذكره الإمام ابن القيم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: «أن من حفظ فواتح سورة الكهف، أو من قرأ فواتح سورة الكهف عُصِم من الدَّجال. وأنّ الرواية التي ذكرت خواتم سورة الكهف، رواية لم يحفظ صاحبها، وأنّ الثابت الصحيح هو من حفظ عشر آيات من سورة الكهف عُصم من الدجال»[1].

السؤال الذي ممكن أنّ نتساءله، ما علاقة العشر الآيات بقصة الدجال؟ ولماذا لم يكن مثلًا كامل السورة، أو خواتيم السورة، أو بعض آيات معينة التي تتكلم عن الدجال؟

لو استعرضنا الآيات من بداية السورة إلىٰ الآية العاشرة، لا نجد حديثًا عن الدجال، ولا تعريضًا بالدجال؛ السبب: لأنّ النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «**مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ**»[2]، كما في صحيح مسلم من

---

(١) جلاء الأفهام في فضل الصلاة علىٰ محمد خير الأنام، لابن القيم، ص (٣٢٥).
(٢) أخرجه مسلم في كِتَابِ صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، (٨٠٩).

حديث أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، وجاء في حديث النواس بن سمعان -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قال: «فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ، فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ»(١). لعلكم تتأملون في فواتح سورة الكهف، ما علاقتها بالدجال؟ علاقتها:

أولًا: الذي يعرف أنّ قصة أصحاب الكهف فيها من العجائب والآيات، حينها لا يستغرب أمر الدجال ولا يُفتتن به؛ لأنّ الدجال يأتي بأمور وخوارق للعادات، وعلم أنّ في غيرها من العجائب ما هو أشد، وسننبه عليه.

قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾.

ثانيًا: قول أهل العلم في قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾.

وفي قوله: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢﴾.

قال بعض أهل العلم في قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾، فهذا يُهَوِّنُ بأس الدجال، وفي قوله: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢﴾، فهذا يُهَوِّنُ الصبر علىٰ فتنة الدجال، بما يظهر من نعيمه وعذابه. وقال بعضهم: قد يكون هذا من خصائص الله -عَزَّوَجَلَّ- لمن حفظ ذلك، وهذا من فضائل سورة الكهف.

كذلك أنها من السور العتيقة، ومن قديم ما حُفظ عند الصحابة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ-، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنه قَالَ: «بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالكَهْفُ، وَمَرْيَمُ، وَطه، وَالأَنْبِيَاءُ: هُنَّ مِنَ العِتَاقِ الأُوَلِ، وَهُنَّ مِنْ تِلاَدِي»(٢). والعتيق يأتي بمعنىٰ القديم،

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، (٢٩٣٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ۝١١٧﴾ [طه: ١١٧]، (٤٧٣٩).

ويأتي بمعنىٰ الكريم، لا سيَّما إذا عرفنا أن هذه السورة مكية، ففيها من الفوائد الشيء العجيب في تثبيت النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ لأنه كان بِمُكْثِهِ في مكة قبل انتقاله للمدينة يتعرض لأشد أنواع الفتن والمضايقات، والتضييق علىٰ أصحابه وتعذيبهم. تلك السور التي تنزل، ومنها سورة الكهف، فيها تثبيت كبير لأصحاب رسول الله -- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم يقرؤون ما حلّ بأصحاب سورة الكهف واضطهادهم وهروبهم، ولجوئهم إلىٰ الكهف وفرارهم.

كذلك من فضائل ما ذُكر في سورة الكهف، أن من قرأ سورة الكهف أضاء له ما بين الجمعتين، وهذا الحديث، يعني حديث الجمعتين، حديث أبي سعيد الخدري -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، ذكر أهل العلم أنه حديثٌ موقوفٌ علىٰ أبي سعيد -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، وأن الرواية الراجحة هي رواية الوقف علىٰ أبي سعيد -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، وليس فيها ذكر ليوم الجمعة، يعني تخصيص قراءة سورة الكهف بيوم الجمعة، وأنّ ذكر الرواية التي جاءت فيها الجمعة، هي رواية شاذة ومردودة، وبعض أهل العلم يصححها. وعلىٰ العموم، يرىٰ بعض أهل العلم ثبوت ذلك الحديث.

كذلك من فضائل هذه السورة، أنها سورة محكمةٌ ليس فيها نسخٌ؛ لأنها تتحدث عن الأخبار، والأخبار كما هي قاعدة مقررة، أنه لا يدخلها النسخ.

المسألة الثالثة: نوع السورة، فهذه السورة سورةٌ مكيةٌ بالإجماع، أي نزلت قبل الهجرة بالإجماع، ولم يخالف في ذلك إلا بعض التابعين في بعض الآيات، سنشير إليها لاحقًا إن شاء الله -تعالىٰ-، لكن خلافهم مرجوحٌ.

المسألة الرابعة: محور السورة، وأنتم تحفظون وتقرؤون وتتدبرون وتفسرون الآيات تكون هذه المسألة نُصْب أعينكم، فهي مهمة جدًّا.



محور السورة، يعني الموضوع الذي تدور عليه السورة بأكملها.

كل آية من آيات السورة تدور حول هذا الموضوع، وهذا المحور مهم جدًّا في فهم هذه السورة؛ لأن أيّ آية ستمر معنا سنربط هذه الآية بالمحور. وهذا المحور يعينك حيث إنك تفهم السورة كلها، وجميع الآيات من أول آية إلىٰ آخر آية تتحدث عن هذا الموضوع، ويسهل عليك بعد ذلك فهم مغزىٰ السورة، وما الحكم الذي تدور عليه.

من أهم مقاصد السورة، قضية الفرار من الفتن بأنواعها.

وسنذكر أصول الفتن التي ممكن أن تعرض للشخص، كيف تتعامل مع الفتن، وكيف تنجو بنفسك وتفر إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ- من هذه الفتن، وكيف تحافظ علىٰ إيمانك، وكيف تلقىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ- وأنت ثابتٌ علىٰ هذا الدين.

فهذه السورة تتحدث عن هذا الموضوع بالذات، فلا تنسَوا -بوركت أعمالكم- أن تجعلوه نُصبَ أعينكم.

المسألة الخامسة: عدد آيات هذه السورة، قال: الإمام الداني -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- في عدّ آيات هذه السورة: «إن العلماء اختلفوا في عَدِّ آيات هذه السورة، فبعضهم عدّها بأنها مائة وخمس، وبعضهم عدّها بأنها مائة وست، وبعضهم عدّها مائة وعشر، وهو عَدُّ الكوفيين الذي كُتبت عليه المصاحف الآن المشهورة، وبعضهم عدّها مائة وإحدىٰ عشرة آية. وخلافهم يدور في إحدىٰ عشرة آية»(١). ولعلنا -إن شاء الله- إذا مررنا في التفسير، سنشير إلىٰ بعض الآيات التي اختلفوا فيها.

المسألة السادسة: الموضوعات التي تحدثت عنها السورة، وهذا أيضًا أرجو منكم أن تشجّروه أو علىٰ شكل رسم بياني، حتىٰ يُفهم الانتقال من الموضوعات؛

---

(١) انظر: البيان في عد آي القرآن للداني، (ص١٧٩).

لأنه إذا تكلمنا عن الموضوع الأول وانتهينا منه سننتقل للموضوع الثاني، وسنحاول أن نوجد رابطًا بين الموضوعين حتىٰ تفهم تسلسل الآيات وكيف تسير السورة. وهذا يبهرك ويوقفك أيضًا علىٰ عظمة النَّظْم القرآني، وجلالة مَنْ تكلَّم بهذا الكلام، سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وتبارك وتقدَّس وتعاظم ربُّنا.

يمكن تقسيم الموضوعات التي وردت في هذه السورة، والتي هي مهمة جداًّ، كالآتي:

الموضوع الأول: ذِكْرُ حمد الله –تعالىٰ– علىٰ إنزال الكتاب علىٰ النبي –صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ–، ووصف هذا الكتاب بأنه قيِّمٌ لا عِوج فيه، وأنه جاء للتبشير والإنذار، وهذا أمر مهم جدًّا. وسنبينه إن شاء الله –تعالىٰ–.

في بداية هذه السورة التي تتحدث عن الفتن، ذُكر الافتتاح بالكتاب في الحديث عن القرآن، سنبين ذلك عندما نربط مع المقصد بعون الله –تبارك وتعالىٰ–.

الموضوع الثاني: أنَّ ما علىٰ ظهر الأرض إنما هو زينة لها، جعله الله –عَزَّوَجَلَّ– اختبارًا وابتلاءً، وهو في قوله –عَزَّوَجَلَّ–: ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾، والآية التي قبلها: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴿٧﴾ ﴾. سنشير لاحقًا ما علاقة موضوع قصة أصحاب الكهف بأن ما علىٰ الأرض هو زينة لها بعون الله –تبارك وتعالىٰ–.

الموضوع الثالث: ذِكْرُ قصة أصحاب الكهف، وتناولته السورة فيما يقرب من صفحتين ونصف.

الموضوع الرابع: قصة أصحاب الكهف، ستكون في الفتن المخوّفة من الملوك ومحاربة الدين.

الموضوع الخامس: الحديث عن فتنة أخرىٰ بعد انتهاء قصة أصحاب الكهف،

ذِكر فتنة المال بذكر خبر قصة صاحب الجنتين، ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ ﴾ [الكهف ٣٢]. قد يُفتن الإنسان ويبتلىٰ بالمال، فكيف يتعامل مع هذا؟ كيف يصنع؟ ولذلك بين النبي -صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنه من الناس من «يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»(١)، وكان بين هذين الموضوعين آيات مهمة جدًّا، جاء الحديث فيها عن القرآن، سنشير إليه.

الموضوع السادس: ضرْبُ المثل للحياة الدنيا بما يدل علىٰ فنائها وذهاب زخرفها، فقد تكون الفتنة في الدنيا بما فيها من أمتعة وبما فيها من أعراض، والسبيل في التعامل معها. ثم انتقلت الآيات بعد ذلك لذكر شيءٍ من مشاهد يوم القيامة في قوله -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ ﴾ إلخ.

الموضوع السابع: الصراع العظيم والعداوة الكبيرة بين إبليس وآدم -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- وذريته، وأن إبليس لا يزال يكيد بابن آدم.

الموضوع الثامن: بيان سنة الله -عَزَّ وَجَلَّ- في إهلاك الظالمين، ورحمة الله -عَزَّ وَجَلَّ- وإمهاله المذنبين.

الموضوع التاسع: الحديث عن قصة موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- مع العبد الصالح الخَضِر، وهو الافتتان بالعلم.

وما علاقة قصة موسىٰ في الأصل؟

الموضوع العاشر: الحديث عن قصة ذي القرنين، وهي قصة الافتتان بالمُـلْك.

الموضوع الحادي عشر: إبطال الشرك وتوعُّد أهله، وبيان ما أعده الله للمؤمنين.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، بَابُ الْحَثِّ عَلَىٰ الْمُبَادَرَةِ بِالْأَعْمَالِ قَبْلَ تَظَاهُرِ الْفِتَنِ، (١١٨).

الموضوع الثاني عشر: يتعلق بالفتن والتمثيل لسعة علم الله -عَزَّوَجَلَّ-، وبيان أن القرآن وحيٌ من الله -تعالىٰ- إلىٰ رسوله -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-. والحقيقة أن تسلسل الموضوعات في هذه السورة المباركة عجيب جدًّا.

هذه هي موضوعات السورة، وهي ما يقرب من اثني عشر موضوعًا. والمهم جدًّا فهم مقاصد السورة؛ لنتمكن بعون الله -تبارك وتعالىٰ- من الحديث عن هذه الموضوعات والدروس المستفادة منها، وفهم المعاني الإيمانية، والمعاني البيانية.

أسأل الله لنا ولكم التوفيق والفوز والرشاد، والله أعلم، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

❋ ❋ ❋



الدرس الثاني
(١-٨)

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١ قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ٥ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ٨﴾

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١﴾

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، الحمد لله هو الثناء عليه بصفاته التي هي كلها صفات كمال، وبنعمه الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، وأجلّ نعمة علىٰ الإطلاق إنزاله الكتاب العظيم علىٰ عبده ورسوله محمد -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ-. فحمد نفسه، وفي ضمنه إرشاد العباد ليحمدوه علىٰ إرسال الرسول إليهم وإنزال الكتاب عليهم. ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١﴾، جاء العوج بالتعدية «باللام» والتقدير المتبادر إلىٰ الذهن: «ولم يجعل فيه عوجًا». يقول أهل العلم العوج إذا كان في الأشياء المعنوية، أي في المعاني وغيرها، يُعدَّىٰ «باللام» كقوله: ﴿لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١﴾، وإذا كان في الأشياء

الحسية، فإنه يُعدّىٰ «بفي» فيه عوج لأن الأمور في القرآن، وهو كلام الله -عَزَّوَجَلَّ- فيه أخبار وفيه أحكام وفيه قَصص. لذلك عُديَّ قوله «باللام».

كلمة ﴿عِوَجَا﴾ نكرة جاءت في ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١﴾ سياق النفي، والنكرة في سياق النفي تدل علىٰ العموم؛ فهنا جاء ليعم جميع أنواع العوج، أي أن هذا القرآن ليس فيه أي عِوجٍ ولن تجد فيه تناقضًا أواختلافًا، لا في ألفاظه ولا في معانيه ولا في أخباره ولا في أحكامه، بل هو قرآنٌ كريمٌ مجيدٌ، ليس فيه ما يحمل علىٰ النفور منه؛ لأن الناس إذا تأملت الكلام فوجدت فيه اختلافًا نفرت منه، ولذلك أقرَّ له الكفار قبل المسلمين، كما جاء في وصف الوليد قوله: «إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَىٰ، وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ». قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فصلت:٤٢]. وفي قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١ قَيِّمًا﴾، في بعض المصاحف تجدون حرف «س». معناه سكته يسيرة من غير تنفس بحيث لا تصل ﴿عِوَجَا﴾ بـــ ﴿قَيِّمًا﴾؛ لأنك لو وصلت ﴿عِوَجَا﴾ بـــ ﴿قَيِّمًا﴾ قد يوهم معنًىٰ آخر؛ فهنا نفي في قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١﴾، ثم تبدأ بقوله: ﴿قَيِّمًا﴾.

اختلف المفسرون في معنىٰ كلمة ﴿قَيِّمًا﴾ على أقوال:

القول الأول: ﴿قَيِّمًا﴾، أي هذا الكتاب مستقيم. وجيء بقوله ﴿قَيِّمًا﴾ مع أنه نفي العوج، حيث قال ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١﴾؛ وذلك للتأكيد أنه ليس فيه أدنىٰ عوج، فهو مستقيم كله؛ لأنه قد يكون الشيء ليس فيه عوج فيما يبدو للناس ظاهرًا، لكنْ فيه عوج خفي، فلا يدركه إلا أولوا الألباب.

القول الثاني: ﴿قَيِّمًا﴾، أنه قائم علىٰ مصالح العباد في دينهم ودنياهم.

القول الثالث: ﴿قَيِّمًا﴾، بمعنىٰ مهيمن علىٰ سائر الكتب الإلهية، وذلك بتصديقها والشهادة لها بصحتها. ولا مانع من حمل هذه اللفظة ﴿قَيِّمًا﴾ علىٰ هذه المعاني الثلاثة: أنه مستقيم، وأنه قائم، ومهيمن علىٰ سائر الكتب السابقة، كما ذكر الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة:٤٨].

﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾

﴿قَيِّمًا﴾ اختلف المفسرون، رحمهم الله، هل في الآية تقديم وتأخير أم لا؟ يعنىٰ الآية «الحمد لله الذي أنزل علىٰ عبده الكتاب قيمًا ولم يجعل له عوجًا» أو الآية علىٰ نظمها ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾ قَيِّمًا ﴾؟

الصواب: أن الآية علىٰ ما هي عليه، ليس فيها تقديم ولا تأخير، فالكلام مستقيم وواضح.

﴿لِّيُنذِرَ﴾ مهمة، وفيها مسائل دقيقة ينبغي الانتباه لها في قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾، المراد بالمنذر هنا الكتاب، القرآن. أي لينذر القرآن الكافرين بأسًا شديدًا، أو المراد لينذر العبد، وهو النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-، بأسًا شديدًا من لدنه. ولا مانع من الاحتمالين لأن الأمرين متلازمان. وهنا فائدة مهمة، ﴿لِّيُنذِرَ﴾ حذف المفعول به وهم الـمُنْذَرون وجيء بالمُنْذَرِ به وهو ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾، فالنبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- إذا أنذر فإنه

لن ينذر الكافرين بأسًا شديدًا إلا بالقرآن، وهذا البأس سواء كان في الدنيا أو في الآخرة؛ في الدنيا يكون بالقتل وبإقامة أمر الله -عَزَّوَجَلَّ- عليهم. ﴿مِن لَّدُنْهُ﴾، أي من عنده -عَزَّوَجَلَّ-.

لما جاء الحديث عن المؤمنين، جاء بالمـبُشَّرين وبالمـبُشّر به، قال: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هؤلاء هم المـبُشَّرون يبشرهم ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢﴾، وهذا من فصاحة القرآن، ومن باب التنويه علىٰ شأن المؤمنين.

﴿وَيُبَشِّرُ﴾ سُميت البشارة بالبشارة لأنه تظهر آثارها علىٰ البشرة، وسُمو البَشَر بشرًا لأن أبشارهم تظهر وجلودهم تظهر، خلاف الحيوانات فأبشارهم لا تظهر؛ يغطيها إما شعر أو وبر أو حراشيف أو نحو ذلك. ﴿يَعْمَلُونَ﴾، جيء بالفعل المضارع هنا للاستمرار والتجدد، أي لا زالوا يعملون وديدنهم وشأنهم هو عمل الصالحات، ولم يأتِ بقوله: «ويبشر المؤمنين الذين عملوا الصالحات».

لكن لما جاء الحديث عن الكافرين في الآية التي تليها قال: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟﴾، لم يقل «وينذر الذين يقولون»؛ للدلالة علىٰ أن هذا القول متحقق فيهم، وأنه صادر عنهم، وأنهم قد قالوه فعلًا وتفوَّهوا به.

في قوله: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، مع أن العمل من الإيمان، داخل في مسمَّىٰ الإيمان؛ للتنويه علىٰ أنه لا يُقبل الإيمان إلا بعمل، والعمل لا يكون صالحًا إلا بشرطين اثنين هما:

الإخلاص والمتابعة.

شـــرطُ قبـــولِ الســـعيِ أن يجتمعـا فيـــــه إصـــابةٌ وإخـــلاصٌ معـــا
للهِ ربِّ العــــــــرشِ لا ســــــــواهُ موافـــقُ الشَّـــرعِ الـــذي ارْتَضـــاه

قوله: ﴿أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنًا ۝٢﴾، جيء بلفظ الأجر من باب تطمين المؤمنين، وأنهم يعملون والعامل يُوفَّىٰ أجره. المراد بالأجر الحسن الجنة، والدليل علىٰ ذلك الآية التي تليها في قوله: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ﴾، أي في الجنة.

وصف الأجر بالحسن ولم يقل أجرًا عظيمًا أو كبيرًا؛ لأنه مناسب لـ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأن أولئك لما عملوا الصالحات وأحسنوا في أعمالهم قوبلوا بالجزاء الحسن والحسنىٰ. ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس:٢٦].

وأيضًا وصفه بالحسن؛ لأن الجنة لا كَدَر فيها ولا تنغيص بوجه من الوجوه. قال الله -تعالىٰ-: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ [الأعراف:٤٣].

نسأل الله من فضله!

﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ۝٣﴾

﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ﴾، المُكث: البقاء، جاء بقوله ﴿أَبَدٗا﴾ للتأكيد؛ لأن المكث لا يدل علىٰ الأبدية، ولا يدل علىٰ الخلود.

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ۝٤﴾

قوله: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ۝٤﴾، من اليهود والنصارىٰ والمشركين. قوله: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ﴾، هو عطف علىٰ قوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا

شَدِيدًا﴾، جيء بهذه الآية لسببين:

السبب الأول: أن الحديث عن أهل الكتاب، فقريش لما سألوا أهل الكتاب الذين قالوا اتخذ الله ولدًا؛ وكذلك قال المشركون من كفار قريش أن الله اتخذ ولدًا، والعياذ بالله، فجيء به هنا.

السبب الثاني: لعظم هذه المقولة وشناعتها وعظم ما تفوَّهوا به. وجاءت الآيات القرآنية تدل علىٰ ذلك كثيرًا، وأن نسبة الولد إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ- من أعظم وأشنع الكفر. قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾، [مريم: ٨٨-٩٢]، إِدًّا: يعني شيئًا عظيمًا وآيات كثيرة تدل علىٰ شناعة هذا القول وعِظمه. وجاء في الصحيحين أن النبي -صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَىٰ أَذًىٰ يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ نِدًّا وَيَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ وَيُعْطِيهِمْ»[1].

فجاء التخصيص هنا لأولئك الّذين قالوا هذه المقولة الشنيعة والعظيمة، التي تستلزم النقص. تعالىٰ الله وتقدس، وتعاظم ربنا.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾

انظر إلىٰ فصاحة القرآن، وعظم بلاغته في الرد علىٰ أولئك الذين قالوا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، بَابُ لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَىٰ أَذًىٰ مِنَ اللهِ -عَزَّوَجَلَّ-، (٢٨٠٤).

سيرد القرآن عليهم بثلاثة طرق كما يلي:

الطريق الأول: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾، إبطال هذه المقولة بالتدريج، بأن قولهم هذا من باب القول علىٰ الله -تعالىٰ- بغير علم.

الطريق الثاني: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾، تعظيم هذه المقولة وشناعتها.

الطريق الثالث: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾، تفنيد هذه المقولة بأنها كذب ولا أصل لها.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾، جيء «بمِن» لتوكيد النفي. وكأن تقدير الكلام: «مَا لَهُمْ بِهِ عِلْمٍ»، وهذا يدل علىٰ شناعة قولهم. قوله: ﴿وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾، ذُكرت آباؤهم هنا لأنهم كانوا يتكئون علىٰ أن ما قالوه هو ما سمعوه من آبائهم. قال الله -تعالىٰ-: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۝٢٣﴾ [الزخرف:٢٣].

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾، المراد بـ ﴿كَلِمَةً﴾ هي قولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾. والكلمة في اللغة العربية تطلق علىٰ المفردة والجملة وعلىٰ الكلام أيضًا. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾، تعرب ﴿كَلِمَةً﴾ تمييزًا.

وفيها دليل علىٰ عظم هذه الكلمة وجرأتهم.

وفيها أيضًا أسلوب تعجب، أي ما أعجب ما قالوا، وكيف ينسبون لله -عَزَّوَجَلَّ- الولد؟!

وقوله: ﴿تَخْرُجُ﴾، لم يأتِ بالفعل الماضي خرجت.

فيها دليل علىٰ استمرار كذبهم. ﴿مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾؛ لأنها كلمة لا أصل لها. ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾، تأكيد لما سبق بأن هذا القول من أفواههم كذب ولا أصل له.

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن
لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾

قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ﴾، أي لعلك قاتلٌ نفسك يا محمد وأنت تحاول أن يؤمن أولئك، وتنشد لهم الإيمان، ولن يؤمنوا. «لعل» للترجي، يعني ترجِّي المحبوب والإشفاق في المحذور، فيه تسلية للنبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

جاءت «لعلك» هنا من باب التقرير الذي فيه الإنكار للنبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، لكن الإنكار هنا ليس مباشرًا للنبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لأنه عبد الله، كما جاء في أول سورة الكهف ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١﴾، فجاء العتاب هنا سهلًا للنبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وفيها دليل علىٰ شفقة النبي، صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، علىٰ أمته، وحرصه علىٰ إيمانهم. قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾، [الأنبياء: ١٠٧]. ﴿بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾، أي مُهلك وقاتل نفسك. والمراد بها ألاّ تفعل ذلك يا محمد، فهم لن يستجيبوا لك. لذلك جاء الفعل المضارع في قوله: ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ دليل علىٰ أنهم مستمرون وأنهم لن يؤمنوا لك، فلا تقتل نفسك، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات.

﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾، طريقهم.

قوله: ﴿بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾، أي القرآن، وجاء هنا في وصف القرآن بقوله:

﴿ٱلْحَدِيثِ﴾ وعرّفه «بأل» وسبقه باسم الإشارة ﴿بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾؛ لأنه حاضر في أذهانهم، ورفعة وزيادة وتنويه بشأن القرآن.

﴿أَسَفًا﴾ حزنًا شديدًا، أي لا تقتل نفسك يا محمد من شدة الحزن والغمّ علىٰ عدم استجابتهم لك؛ إنما أنت رسول مُبلغ «ما علىٰ الرسول إلا البلاغ».

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾

فيها تسلية للنبي، صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بأنه قد يعطي الله أولئك المعاندين والكافرين شيئًا من الدنيا، فيفتح عليهم في أرزاقهم ومكاسبهم ونحو ذلك، فيظنّ الظّان أنّ أولئك علىٰ الحق، قال -تعالىٰ-: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾، [مريم:٨٤]. فإن الله أعطاهم زينة الدنيا لعلهم يشكرون، فكفروا بنعمة الله -عَزَّوَجَلَّ-، فسوف تُسلَب منهم. ﴿مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً﴾، زِينَةً من جهة خلقها وصنعها وإحكامها، فكل ما انتفعوا به أو لم ينتفعوا به مما ضرره واضح، فهي زينةٌ لهذه الأرض من جهة إحكام الله -عَزَّوَجَلَّ- له وقدرته في خلقه وصنعه وكمال خلقه. ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾، لنختبرهم ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾، جاء بلفظ ﴿أَحْسَنُ﴾ هنا مع أن الاختبار والابتلاء يكون بين الحسن والقبيح، وأحسن تدل هنا علىٰ التفضيل، وتدل علىٰ أنه حسن وأحسن.

قال أهل العلم: لكن جاء بلفظ ﴿أَحْسَنُ﴾ للتفضيل؛ لأن الغاية من ذلك ظهور كمال المحسنين وإحسان المحسنين، فإذا ظهر إحسان المحسن، فله الأجر الحسن كقوله -تعالىٰ-: ﴿لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾ [الكهف:٢]. والعمل الحسن هو ما كان خالصًا لله -عَزَّوَجَلَّ- وصوابًا. لذلك قال الفضيل بن عياض: «إن أحسن العمل هو

أخلصه وأصوبه»[١]. قوله: ﴿أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾، دليل علىٰ الإتقان في العمل، وليس المراد بها الكثرة في العمل.

﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ۝٨﴾

﴿وَإِنَّآ﴾، لزيادة التقرير والتأكيد. ﴿لَجَٰعِلُونَ﴾، أي يوم القيامة، وفيه تنبيه أن هذه الدنيا زائلة، وأن ما يستمتع به الإنسان زائل، فما تراه من الدنيا ومتاعها زائل، ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ۝١٦﴾ [غافر: ١٦]. ﴿مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا﴾، الصعيد هو ما ظهر علىٰ وجه الأرض وهو التراب، فستكون الأرض مستوية لا نبات فيها، ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ﴾ [الكهف:٤٧]، ظاهرة ليس فيها مَعْلم، وهذا فيه تزهيد في الدنيا لكيلا يغتر الإنسان بها، وأن كل ما فيها إنما هو متاع وسيزول. ﴿جُرُزًا﴾، الجرز معناه القطع، أي ليس فيها شيء، جرداء لا نبات فيها. وفيها فائدة بأن يعمر الإنسان داره في الآخرة بتقوىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ- واللجوء إليه.

❋ ❋ ❋

(١) انظر: تفسير البغوي، (١/ ١٧٦).



الدرس الثالث
(٩-١٥)

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَٰهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾

هذه الآية بداية الشروع في الحديث عن قصة أصحاب الكهف.

ذكر أهل العلم -رحمهم الله تعالى- أنّ من المناسبات التي تُذكر بين هذه الآيات والتي قبلها:

أولاً: لمّا كان النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يكادُ أن يُهلِكَ نفسه لعدم إيمان القوم بهذا القرآنِ وإنكارهم البعث، ذكر هذه المناسبة وهي ظاهرة، وذلك أنَّ من أعظم الآيات والدلائل علىٰ البعث هي قصة أصحاب الكهف كما سيأتي.

ثانيًا: وقال بعضهم والمناسبة كذلك ظاهرة بين قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾ قالوا: هذا ما علىٰ الأرض من خَلقٍ ونحو ذلك أعجب من آيات أصحاب الكهف، فكان هذا التناسب بين هذه الآيات والآيات التي قبلها.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾، أي أظننت يا محمد أنَّ أصحاب الكهفِ والرقيمِ كانوا من آياتنا العجيبة؛ فإنَّ في آياتنا ما هو أعجب من ذلك، فخلقُ السماوات والأرض وما عليهما عجب، وجعلُ ما علىٰ الأرض من الزينة ونحو ذلك أيضًا عجب، وما أنزل الله -عَزَّوَجَلَّ- علىٰ الرسول -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من العلم والكتاب والسنة أفضل من أصحاب الكهف.

فائدة: أنّ الْأَوْلَىٰ للإنسان أن يتعظ بما في القَصَص من العبر والعظات دون أن يشتغل بمعرفة تفاصيل القَصَص ونحو ذلك، فالعبرة فيما تدور عليه القصة وليس العبرة والهدف في معرفة تفاصيلها، وستشير الآيات بعد ذلك إلىٰ هذا المعنىٰ.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ﴾، هل العجب في أصحاب الكهف؟ أو في حال أصحاب الكهف؟ العجب في حال أصحاب الكهف، إذًا ففي الآية محذوف تقديره: «أم حسبت أن حال أصحاب الكهفِ والرقيمِ كانوا من آياتنا عجبًا».

قوله: ﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾، اختلف المفسرون -رحمهم الله تعالىٰ- في المراد بـــــ ﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾، **على أقوال:**

القول الأول: الرقيم هو الكتاب، فعيل بمعنىٰ مفعول، يعني رقيم أصلهُ مرقوم.

ثم هؤلاء الذين قالوا الرقيم هو الكتاب أيضًا اختلفوا في المراد بالكتاب:

قال بعضهم: هو كتاب كان معهم يكتبون فيه ما يَدِينُون به من التوحيد.

وقال بعضهم: بل هو كتابُ دينهم.

وقال بعضهم: بل هو كتابٌ كتبوا فيه أسماءهم وأنسابهم، وقصتهم، وسبب خروجهم، ونحو ذلك.

وقال بعضهم: هي صخرة نُقشت عليها أسماؤهم.

القول الثاني: هو اسم الجبل الذي في كهفهم.

القول الثالث: هو اسم الوادي الذي فيه الكهف.

القول الرابع: هو اسم القرية التي خرجوا منها.

والذي يظهر -والله أعلم- أن الرقيم المراد به الكتاب.

مسألة: هل أصحاب الكهف قوم والرقيم قوم أم هما واحد؟

الذي يظهر -والعلم عند الله تعالىٰ- أنّ أصحاب الكهف والرقيم طائفة واحدة لكن أُضيفوا إلىٰ شيئين، الكهف والرقيم.

قوله: ﴿كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا﴾، قيل ﴿مِنۡ﴾ للتبعيض، أي من بعض آياتِنا.

وقيل بل ﴿مِنۡ﴾ هنا للظرفية بمعنىٰ في، أي: في آياتِنا عجبًا.

وتأملوا قوله ﴿عَجَبًا﴾، المفترض أن يقال من آياتِنا عجيبًا لكن جاء بالمصدر عجبًا ولم يقل عجيبًا؛ وذلك للمبالغة في شأنهم.

﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ١٠﴾

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ﴾، الظرف في قوله: ﴿إِذۡ﴾ قيل متعلق بمحذوف تقديره: «أُذكر»، ويصبح المعنىٰ: «اذكر يا محمد حين لجأ أولئك الشباب إلىٰ الكهف، خوفًا من فتنة قومهم الكافرين».

قال: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ﴾، وتأمل قوله ﴿أَوَى﴾ ولم يقل إذ ذهب، أي لجأ أولئك القوم إلىٰ الكهف، وهذا دليلٌ علىٰ شدة فرارهم.

وفيه **فائدة**، تدل علىٰ أنَّ الإنسان لا بُد أن يَفرّ بدينه إذا خشيَ الفتنة، ويهجر الأهل والبنين والقرابات والأصدقاء والأموال والأوطان حين الفتن، ويفارق أي شيء يؤثر علىٰ دينه؛ لأنّ أعزَّ ما يملك الإنسان هو دينهُ. ولا يلزم أن يكون الفرار فقط بالبدن، كما سيمر معنا، ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠﴾ [الذاريات:٥٠]، فالفرار إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ- أمر عظيم، والإنسان يعود إلىٰ الله -سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ- ويهجر جميع المعاصي، فقد يكون مُصِرًّا علىٰ معصية أو مقيمًا عليها، فلْيفر إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ- منها ويهجرها، وسينال البركات والخيرات كما سنرىٰ في الآيات.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ﴾، الفتية هنا هم الشباب. لكنْ لماذا جاء بالاسم الظاهر ﴿ٱلۡفِتۡيَةُ﴾؟

قال أهل العلم: جاء بإظهار الاسم مع أن تقديره: «إذ أووا إلىٰ الكهفِ»، **لسببين:**

السبب الأول: أنّ أُولئك الفتية ليسوا بالكثيرين.

السبب الثاني: أنَّ هذا من باب المدح لهم، وأنَّهم وإن كانوا صغارًا في السن، لكن لهم فتوّة ورجولة ورأي سديد، من خلاله ثبتوا علىٰ الحق ولجأوا إلىٰ الله -جَلَّ وَعَلَا- وفروا بدينهم.

فائدة: أنَّ الشباب أكثر إقبالًا علىٰ الحق من الشيوخ، وأنَّهم هم الذين ينتصر بهم الدِّين ويقوم عليهم الإسلام، ولذلك كان أكثر أتباع الأنبياء هم الشباب دون الكهول والشيوخ، وأنَّ مرحلة الشباب مرحلة مهمة، وها هم أصحاب النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. وكذلك قال الله -عَزَّ وَجَلَّ- في قصة موسىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس:٨٣]. وهم الذين يقومون بالحق، ولذلك كان أجرهم عظيمًا. يقول النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ وذكر منهم، وَشَابٌّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ اللهِ»(١)، سواء كانوا في سنِّ الشباب من الرجال أو من النساء.

قوله: ﴿فَقَالُوا۟﴾، فيه المبادرة بالابتهال إلىٰ الله -عَزَّ وَجَلَّ-، فإنَّهم لـمَّا أووا إلىٰ الكهف مباشرةً تضرعوا إلىٰ الله -عَزَّ وَجَلَّ- ودَعَوهُ وابتهلوا إليه -جَلَّ وَعَلَا- في أن يعينهم وأن يثبتهم وأن يسددهم.

وفيه أيضًا الإشارة في السعي إلىٰ الفرار من الفتن مع الشروع واللجوء إلىٰ الله -عَزَّ وَجَلَّ- والتوسل إليه بتيسير الأمور. فعلموا أنَّه لا ملجأ من الله إلا إليه -عَزَّ وَجَلَّ-، وعلموا أنَّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- هو المثبِّت وهو الناصر وهو المعين. وهكذا ينبغي للإنسان أن يتبرَّأ من حوله وقوته، وأن يلجأ إلىٰ الله -عَزَّ وَجَلَّ- وأن يكثر من الدعاء. فهم لم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، بابُ مَنْ جَلَسَ فِي المَسْجِدِ يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ وَفَضْلِ المَسَاجِدِ، (٦٦٠)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، (١٠٣١).

يكتفوا فقط بأن فروا بدينهم، بل سألوا الله -عَزَّوَجَلَّ- أن يثبتهم وأن ينصرهم، وسيأتيهم الفرج كما سنرىٰ في الآيات.

قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا﴾، توسلوا بلفظ الربوبية، وهذا أكثر دُعاء الأنبياء، حيث يستفتحون بالربوبية «ربنا، ربي»، وها هنا استفتحوا بقولهم ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا﴾؛ لأن الربوبية نوعان:

ربوبيةٌ عامــة: وهذه لجميع الخلق؛ فالله -عَزَّوَجَلَّ- رَبُّ الخلق أجمعين، مؤمنهم وكافرهم.

ربوبيةٌ خاصة: وهي التي من آثارها العناية والحفظ والنصر والتأييد.

قوله: ﴿ءَاتِنَا﴾، معنىٰ ذلك أنَّهم يرغبون من الله -عَزَّوَجَلَّ- أن يعطيهم وأن يَمُنَّ عليهم، فقالوا: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾، قدّموا ﴿مِن لَّدُنكَ﴾، وإلا أصل تقدير الكلام: «فقالوا ربنا آتنا رحمةً من لدنك»، أي من عندك.

لكن لماذا قدموا قوله -عَزَّوَجَلَّ- ﴿مِن لَّدُنكَ﴾؟

لأنَّ الله -عَزَّوَجَلَّ- هو المتفضل، فأرادوا أن يكون التفضُّل عظيمًا وممنونًا. فقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ۝١٠﴾.

وفيه أيضًا تقديم وتأخير، وإلا أصل تقدير الكلام: «وهيئ رشدًا لنا من أمرنا».

وكذلك يدل علىٰ الحصر والاعتناء.

قال: ﴿وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ۝١٠﴾، أي من حالنا وشأننا الذي نحن فيه من الفرار بديننا إلىٰ هذا الكهف، فاجعل لنا أمرنا كله رشدًا؛ لأنَّ ﴿مِنۡ﴾ هنا للتجريد، أي اجعل لنا أمرنا رشدًا كله.

وقيل: بل ﴿مِنۡ﴾ للتبعيض، أي اجعل لنا بعض أمرنا وهو مفارقة الكافرين. لكن الأول أظهر؛ لأنهم دعوا الله -عَزَّوَجَلَّ- أن يكونَ أمرهم رشدًا.

﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ١١﴾

تأمل أيها المبارك، ماذا قال بعد ذلك لما فروا بدينهم!

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَضَرَبۡنَا﴾، الفاء للتفريع، يكون التفريع علىٰ جملة الدعاء، أي فقالوا.

﴿فَضَرَبۡنَا﴾، أي فاستجبنا لهم. ويكون الضرب هنا علىٰ أمرين:

الأمر الأول: استجابة لدعائهم، وهو أنَّ الله -عَزَّوَجَلَّ- قد أنامهم فسلَّمهم من تعذيب أعدائهم، وأنَّ أولئك القوم قد كانوا في خوف، سيأتي الدليل علىٰ ذلك في قوله ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾، فجيء بالنوم هنا لكي تطمئن قلوبهم وترتاح أبدانهم من هذا الأمر.

الأمر الثاني: حتىٰ يكون هذا النوم دليلًا علىٰ صدقهم وهذا من الرّشد.

وهذا يدل علىٰ أنَّ الإنسان كلما لجأ إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ- وكان صادقًا في لجوئه إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ- فإنَّ الله، جل ثناؤه وتقدست أسماؤه، يجيبه ويعطيه سؤله بل وفوق ذلك.

قوله: ﴿عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾، أي أنمناهم فناموا، عبَّر عن النوم بقوله ﴿عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾. قال أهل العلم:

الجارحة الوحيدة التي لا يُستخدم النوم إلا مع تعطُّلها هي السمع؛ قد ينام

الإنسان في نور، وبعض الناس أحيانًا ينام وعيناه لا تُغلقان ونحو ذلك، لكن لا يستطيع أن ينام وسمعه يعمل؛ فلا بُد أن يتوقف السمع.

ولذلك جاء في الحديث عن الرجل الذي ينام عن الصلاة، قال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنَيْهِ»، أَوْ قَالَ: «فِي أُذُنِهِ»[1].

جاء التعبير بقوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾، يدل هنا علىٰ أن في الكلام محذوف، وتقدير المحذوف: «فضربنا علىٰ ءاذانهم غشاوة، أو حاجزًا، أو حائلًا عن السمع». أو هو كذلك لا يوجد حذف، أي ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾. قال بعض أهل العلم: في قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ هذا من خصائص القرآن، لم يكن معروفًا التعبير بقوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ في كلام العرب قبل ذلك. ثمّ عُبِّر بالضرب في قوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾، ليدل علىٰ قوة المباشرة واللصوق واللزوم.

قوله: ﴿فِي ٱلْكَهْفِ﴾، كلمة الكهف «الكاف والهاء والفاء» ما علاقتها بالفرار من الفتن؟ الأصل أنّ الكهف هو الغار في الجبل ويدل علىٰ الاحتواء، فهؤلاء كأنهم أرادوا الفرار واللجوء إلىٰ شيءٍ يحويهم ويعزلهم عن الفتن، فناسب أن يؤتىٰ بالكهف، والأصل أنّ كلمة الكهف وما تَصَرَّفَ منها تدل علىٰ هذا الشيء.

قوله: ﴿سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾، جاء بقوله: ﴿عَدَدًا﴾ ليدل علىٰ التكثير، يعني هذه السنون كثيرة. وهذا هو الأنسب؛ لإظهار كمال قدرة الله -عَزَّوَجَلَّ-. وقال بعضهم بل ﴿عَدَدًا﴾ هنا للتقليل؛ حتىٰ يناسب أنَّ القصة ليست منْ أعجب الآيات،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، بَابُ صِفَةِ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ، (٣٢٧٠)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، بَابُ مَا رُوِيَ فِيمَنْ نَامَ اللَّيْلَ أَجْمَعَ حَتَّىٰ أَصْبَحَ، (٧٧٤).

وإن كانت عجيبة. لكن الذي يظهر -والله أعلم- أنَّ ﴿عَدَدًا﴾ هنا للتكثير حتىٰ يناسب كمال قدرة الله -عَزَّوَجَلَّ-، فلا يمكن لإنسان أن ينام تلك السنوات في المعتاد إلا أن يكون هذا أمرًا خارقًا للعادة. وقد استدل بعض أهل العلم علىٰ الكرامات من هذه الآية؛ لأن هذه كرامة لأُولئك الذين ناموا تلك الفترة.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾

قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾، الضمير يعود علىٰ الفتية. جيء بقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ ولم يقل ثـم أيقظناهم؛ لأن الله -عَزَّوَجَلَّ- سمىٰ الاستيقاظ من النوم بعثًا، لأنَّ النوم أصلًا وفاة. قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام :٦٠]، وقال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ **فيه أمران:**

الأمر الأول: أنّ الله -سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ- علىٰ كل شيء قدير.

الأمر الثاني: بيان بلاغة القرآن وفصاحته في الرد علىٰ الكفار؛ لأنّ كفار قريش أرادوا أن يعجزوا النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-، فسألوا أهل الكتاب هل هو نبي؟ قالوا: سلوه عن فتيةٍ في الأصل كانوا في غابر الزمن، الذين هم أصحاب الكهف، وكفار قريش ينكرون البعث ولم يكونوا يعرفون القصة في الأصل.

فناسب إيراد هذه القصة لإثبات البعث الذي أنكروه، فجاءت القصة تثبت البعث بطريق أَوْلَىٰ، مع أنهم كانوا يرون أنَّ هذه الآية قصةٌ عجب.

قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾، فيه ردٌ علىٰ أولئك الكفار الذين أنكروا البعث، فالقادر

علىٰ بعث أولئك القوم الذين ناموا بعد ثلاثمائة وتسع سنوات، قادرٌ علىٰ إحيائكم مرةً أخرىٰ، فسبحان الله أرادوا شيئًا وأراد الله شيئًا! فرد عليهم بإثبات البعث وكأنَّه يقول أنتم تعجبتم من قصة أصحاب الكهف، وكيف أنَّ الله -عَزَّوَجَلَّ- أحياهم بعد هذه الفترة التي هي قصيرة بالنسبة لفترة البرزخ.

قوله: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ ﴾، فيه تنبيه علىٰ إثبات البعث بعد الموت؛ لأنَّ في الإفاقة بعد النوم إمكانية البعث بعد الموت.

قوله: ﴿لِنَعْلَمَ﴾، أن الله -عَزَّوَجَلَّ- علىٰ كل شيءٍ قدير، وهو عالم بكل شيءٍ -سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ-، هذا العلم هو العلم الذي عليه الثواب والعقاب، وهو العلم الذي يظهر للوجود، فتظهر الحقيقة للناس.

قوله: ﴿أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾، اختلف المفسرون في المراد بالحزبين، على أقوال:

القول الأول: المراد بالحزبين هم من أصحاب الكهف أنفسهم وهم أولئك الفتية؛ بدليل قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف: ١٩]. فالحزبانِ هما أصحاب الكهفِ أنفسهم، افترقوا إلىٰ حزبين، واختلفوا في مدة لبثهم.

القول الثاني: المراد بالحزبين هم أهل زمانهم، ليسوا من أصحاب الكهف، واختلفوا كم هي مدة لبثهم.

القول الثالث: المراد بالحزبين الحزب الأول هم أصحاب الكهف، والحزب الثاني هم أهل المدينة الذين بُعث الفتية علىٰ عهدهم. وهذا جزم به القرطبي ونسبه إلىٰ جمهور المفسرين.

﴿أَحۡصَىٰ﴾، قيل هو فعل ماضٍ، وقيل هو من أفعال التفضيل، وفيه مسائل لغوية نتجاوزها.

﴿لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا ١٢﴾، أي زمنًا وغايةً.

﴿ نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ١٣ ﴾

قوله: ﴿ نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾، فيه تقديم وتأخير، وأصل تقدير الكلام: نقص عليك.

قدم المسند إليه ﴿نَّحۡنُ﴾ علىٰ المسند ﴿نَقُصُّ﴾ للتخصيص، يعني نحن لا غَيْرنا «نقص عليك نبأهم».

قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾، الباء قيل: للملابسة، أي نحن نقص عليك القَصَص المصاحب للحق والصدق.

الفائدة من مجيء قوله: ﴿ نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾، قال أهل العلم:

لأن القوم قد تماروا في نبأ أهل الكهف، فكان فيه من التخرّصات والتكهّنات والرجم بالغيب والقول بدون بينة وكثرة الأقاويل ونحو ذلك، فجاء قوله: ﴿ نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾.

ثم قال: ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ﴾، جيء بالتوكيد ﴿إِنَّ﴾ مع أنه لا يؤتىٰ به إلا للإنكار، لكن هنا ليس فيه إنكار، فلماذا جاء بقوله: ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ﴾؟ قالوا: للاهتمام بأولئك القوم.

قوله: ﴿فِتۡيَةٌ﴾، أي أولئك شأنهم عظيم، وهؤلاء الفتية هم دون العشرة؛ لأن

فتية من جموع القلة، فدل ذلك على أن الفتية أولئك كانوا دون العشرة وشبابًا صغارًا.

قوله: ﴿ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾، قيل هم كانوا على دين عيسى -عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ- «النصرانية»، لكن ابن كثير -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- كان له استنباط عجيب جدًّا، قال: «الظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية، فإنه لو كانوا على دين النصرانية لما اعتنى أَحْبَارُ اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم لمباينتهم لهم»(١). وهذا استنباط جيد من ابن كثير -رحمة الله عليه-.

قوله: ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾، جيء بالاسم الظاهر في قوله: ﴿ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾ مع أن تقدير الكلام: «نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتيةٌ آمنوا بنا»؛ قال أهل العلم: أضافهم إلى الربوبية للإشعار بإيمانهم والاعتناء بهم.

ثم قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ١٣﴾، في هذه الآية إشارتان مهمتان:

الإشارة الأولى: أن من آمن بربه -عَزَّوَجَلَّ- وأطاعه زاده ربه هدًى، فكلما ازداد الإنسان في الطاعة، ازداد هدًى. قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ [محمد: ١٧]. فكلما قدمت شيئًا من الأعمال الصالحة، فإن الحسنة تجرُّ أختها، والله -عَزَّوَجَلَّ- يؤيد أولياءه وينصرهم ويعينهم ويثبتهم، ويفتح عليهم من الخيرات والبركات.

قيل عن أولئك الفتية في بعض القَصَص إنهم كانوا أبناء الأثرياء والأغنياء في تلك الفترة.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٥/ ١٤٠) ط: دار طيبة للنشر والتوزيع.

وقيل إن بعضهم كان من أبناء الملوك، فهجروا كل شيء لأجل الدين، فلا يمكن أن الله -عَزَّوَجَلَّ- يترك أولياءه ويخذلهم، بل يعينهم ويؤيدهم ويسددهم ويهديهم ويزيدهم هدًىٰ.

الإشارة الثانية: فيها دليلٌ علىٰ أن الإيمان يزيد وينقص؛ لأنه قال: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ١٣﴾، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

الضمير في قوله: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾، غير الضمير في قوله: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ﴾، فلماذا لم يقل: «إنهم فتية آمنوا بربهم وزادهم»؟

لأن الضمير «نا» في قوله: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ﴾ يدل علىٰ العظمة والجلال والفضل والكرم، وأنه فضلٌ عظيمٌ وهبةٌ من الله -عَزَّوَجَلَّ-.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾

قوله: ﴿وَرَبَطْنَا﴾ تأمل وانظر إلىٰ جمال القرآن الكريم وعظمة مَن تكلم به -عَزَّوَجَلَّ-!

جاء بقوله: ﴿وَرَبَطْنَا﴾، ولم يقل مثلًا وثبّتنا، قال أهل العلم:

أصل الربط في كلام العرب يدل علىٰ شدةٍ وثبات، وهو أن الله -عَزَّوَجَلَّ- قد ربط علىٰ قلوبهم وثبتهم؛ لأن الأمر ليس سهلًا، فلا تظنوا أن الأمر سهل؛ هؤلاء تُوُعِدُوا بالصَّلب والقتل، ولذلك قالوا: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ

﴿يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ [الكهف:٢٠]، فكونهم قد فروا وخالفوا قومهم وهم صغار ولا ناصر لهم بعد الله -عَزَّوَجَلَّ- من الخلق، احتاجوا إلىٰ شدة من التثبيت.

قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، إن كل من لجأ إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ- فإنه يثبته ويقوي إيمانه، ويجعل له من القوة ما تجعله يحتمل الشدائد ويصبر. قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ [الحج: ٣٨]، فلا تظن أن الله -عَزَّوَجَلَّ- سيخذل أولياءه، بل هو -عَزَّوَجَلَّ- الناصر لهم، سينصرهم ويثبت أقدامهم. قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾، [محمد: ٧].

فَطِيْبُوا نَفْسًا وقَرُّوا عَيْنًا! كلُّ من يُبتلىٰ في دينه فلْيعلمْ أن الله -عَزَّوَجَلَّ- سينزل عليه من الصبر والثبات أضعاف ما نزل عليه من البلاء ومن الفتن. فقال: ﴿ وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ ﴾، لأن أهم شيء هو ثبات القلب واطمئنانه وعدم خوفه.

ولذلك لما سجن شيخ الإسلام ابن تيمية عليه -رحمه الله- في القلعة، قال: «ما يفعل أعدائي بي؛ إن سجني سياحة، ونفيي خلوة».

لأن السكينة لمّا تكون في القلب يهدأ الإنسان، ولذلك لما كان النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- في موقف صعب في الغار، قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ [التوبة:٤٠]. فثبات القلب من أعظم الأشياء، ويكفي الإنسان أن يثبُت علىٰ الحق في زمن المتغيرات والفتن ونحو ذلك.

قوله: ﴿إِذۡ قَامُواْ﴾، قيل إن الظرف في قوله: ﴿إِذۡ قَامُواْ﴾ للربط، أي قاموا فربطنا علىٰ قلوبهم.

قال بعضهم في قوله: ﴿إِذۡ قَامُواْ﴾، أي قاموا بين يدي ملكهم، فأنكروا ألوهية تلك الأصنام.

وقيل بل قاموا في قومهم وأعلنوا توحيدهم. وهو محتمل للأمرين، أنهم قاموا بين يدي الملك وبين يدي قومهم، فأعلنوا توحيدهم وتبرؤوا من الشرك كما سيأتي.

قول الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَقَالُوا۟ رَبُّنَا﴾، فيه فائدة الربوبية الخاصة التي ذكرناها سابقًا.

قوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فيه الاستدلال بربوبية الله -عَزَّوَجَلَّ- علىٰ الألوهية؛ لأنه لا أحد ينكر أن الله -عَزَّوَجَلَّ- هو رب السماوات والأرض، بل الكفار مقرُّون بأن الله -عَزَّوَجَلَّ- هو خالق السماوات والأرض، فكأنهم يقولون: «ما دام أنكم تعتقدون أن الله -عَزَّوَجَلَّ- هو رب السماوات والأرض، إذًا فهو المستحق للعبادة، كيف تعبدون غيره»؟!

قوله: ﴿لَن﴾ تفيد التأبيد، يعني أبدًا لن ندعو من دونه إلهًا، وهذه ثمرة الربط، التثبيت.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، أي ثبتناهم، فنتيجة التثبيت أن الإنسان لا يترك دينه. ولذلك قالوا: ﴿لَن نَّدْعُوَا۟﴾ ولم يقولوا سنترك ونحو ذلك. قوله: ﴿لَن نَّدْعُوَا۟﴾ تأكيد علىٰ براءتهم من الشرك وقوة ثباتهم علىٰ الحق وإصرارهم علىٰ التوحيد. وهذا هو المطلوب من المسلم أنه لا يترك دينه مهما فُعِلَ به.

قالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، المراد بالدعاء هنا العبادة، فيشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة.

قوله: ﴿لَن نَّدْعُوَا۟﴾، أي لن نعبد ﴿مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾. قال: ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾، «اللام» في ﴿لَقَدْ﴾ للتوكيد، يعني إن فعلنا ذلك ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾، أي جَوْرًا، وتجاوزنا الحد في ذلك. فإن الشرك هو الشطط بعينه فكيف

يُعبَد غيرُ ربِّ السماوات والأرض وهو المستحق للعبادة؟!

﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ١٥ ﴾

قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾، جاء باسم الإشارة للبعيد للدلالة علىٰ بعد أولئك عن الحق، وأيضًا احتقار ما هم عليه من الشرك. فقالوا ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ﴾، يُحتمل أن يكون هذا الكلام بين يدي الملك لـمّا أراد أن يردَّهم عن دينهم، قالوا: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ ﴾.

ويُحتمل أن يكون الكلام هذا بين بعضهم بعضًا. فيحتمل هذا ويحتمل ذاك.

قوله: ﴿لَّوۡلَا﴾ للتحضيض، أي هلاّ. ﴿لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ﴾، أي هل عندهم دليلٌ علىٰ أن هذه الآلهة وهذه الأصنام تستحق العبادة؟

ولاحظ قوله: ﴿لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ﴾، المقصود من التحضيض هنا ليس البحث عن دليل علىٰ أن هذه الأصنام تستحق العبادة؛ لأنه لا يوجد دليل علىٰ أن هذه الأصنام تستحق العبادة.

بل المقصود به هنا الإنكار والتبكيت والتغليظ عليهم، أي كيف يعبدون آلهة ولا يوجد سلطان ودليل وحجة علىٰ أنها تستحق العبادة؟! فقالوا: ﴿لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ﴾. وهذا كقوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾ [المؤمنون: ١١٧] أي: ليس له أن يبحث عن برهان، لا يوجد أصلًا. وهذا شدة الإنكار والتغليظ والتبكيت لهم. قال: ﴿بَيِّنٖ﴾، أي ظاهر وواضح، بل كل الوجود

يدل علىٰ أن الله -عَزَّوَجَلَّ- هو المستحق للعبادة. وفي كل شيءٍ له آيةٌ تدل علىٰ أنه واحد، وأنه المستحق للعبادة.

قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾، أي لا أحد أظلم، وهذه صيغة عموم. قوله: ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، أي لن تجد هناك من هو أظلم ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾. ولذلك، كان من أكبر الكبائر القول علىٰ الله بغير علم. قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٢-٣٣]. هذا من أظلم الظلم والافتراء علىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ-.

فلذلك جاء تذييل الآية بقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، أي أنتم تفترون بأن هذه الآلهة تستحق العبادة، والأمر ليس كذلك. ولا زلنا في سياق الآيات العجيبة بعون الله -تبارك وتعالىٰ-.

❋ ❋ ❋



الدرس الرابع
(١٦-١٨)

﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴿١٦﴾ ۞وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴿١٧﴾ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴿١٨﴾﴾

﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ
يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾ هنا للتعليل، علىٰ الصحيح، والمعنىٰ: «لأجل اعتزالكم قومكم الكفار وما يعبدون إلا الله». وقوله: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾، قيل هذا من كلام بعضهم لبعضٍ علىٰ سبيل النصح والمشورة.

وقيل بل هو كلامٌ معترضٌ، وهو إخبارٌ من الله –تعالىٰ– عن الفتية «أنهم لم يعبدوا غير الله –عَزَّوَجَلَّ–».

وفي قوله: ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، قيل الاستثناء متصل، أي يعبد أولئك الكفار الذين اعتزلهم أصحاب الكهف الله ويعبدون غيره من الأصنام ونحو ذلك. وقيل بل الاستثناء منقطع، بناءً علىٰ أنهم لا يعبدون إلا الأصنام. قوله: ﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾، فيه دلالةٌ علىٰ صلابة دين أولئك القوم وقوة ثباتهم؛ فهم قد تركوا ما فيه من النعمة والرفاهية، علىٰ أنهم كانوا أبناء ملوك وكانوا من المنعمين، واستبدلوا بذلك النعيم الذي هو من متاع الدنيا أن أووا إلىٰ كهفٍ في رأس جبل، فكل ذلك دليلٌ علىٰ ثبات أولئك القوم، وقوة إيمانهم بالله -عَزَّوَجَلَّ-.

وفي قوله: ﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾، «الألف واللام» في الكهف قيل: للعهد، وذلك بأن الكهف هذا كان معهودًا لهم، فهم يتعبدون فيه من قبل. فقالوا: فأووا إلىٰ الكهف الذي كنتم تتعبدون فيه من قبل. وقيل: بل الألف واللام للحقيقة، أي فأووا إلىٰ أيّ كهف من الكهوف. والله -عَزَّوَجَلَّ- لم يخبرنا بمكان الكهف في أيّ البلاد من الأرض، ولم يطْلعنا علىٰ شيء من ذلك، فلا فائدة في معرفة مكانه أصلًا. وليس هناك قصدٌ شرعيٌ يدل علىٰ معرفة مكان الكهف.

وتكلف بعض المفسرين، فذكروا في مكان الكهف أقوالًا. ولو كان لنا فيه مصلحة دينية، لأرشدنا إليها الله ورسوله. فلذلك، مثل البحث عن معرفة مثل هذه الأمور، مكان الكهف ونحو ذلك، هو من باب الرجم بالغيب.

قوله: ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾، أي يبسط لكم ربكم من رحمته. وتأملوا قوله: ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ﴾، فإن أولئك القوم قد أووا إلىٰ كهفٍ، والكهف ضيقٌ.

فقال: ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾، هذا فيه دليلٌ علىٰ أن الرحمة إذا بُسطت عمَّت ولو كان المكان ضيقًا، وكذلك فيه دليل علىٰ ثقة أولئك القوم بالله -عَزَّوَجَلَّ-،

وأن الله -عَزَّوَجَلَّ- لا يخذل أولياءه. والأمر كذلك؛ فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]، قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾ [غافر: ٥١].

وقال -جل ذكره-: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [الروم: ٤٧]. فالله معهم، بنصره وتأييده وحفظه لأولئك الذين فرُّوا بدينهم لأجل الله -عَزَّوَجَلَّ-.

قوله: ﴿وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾، أي ما ترتفقون به، أي تنتفعون به، وهذا فيه دليل علىٰ التفاؤل حتىٰ في أحلك الظروف، فقوله: ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾، وهم قد آووا إلىٰ كهفٍ ضيقٍ قد طاردهم قومهم وفتنوهم عن دينهم؛ فقد قالوا قبل: ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٢٠﴾ [الكهف:٢٠]، فهذا فيه قمة التفاؤل، ولذلك كان نبينا -صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- أشد الناس تفاؤلًا، حتىٰ في أحلك الظروف، وقصة تفاؤل النبي -صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-، وتبشيره بفتح بلاد الشام وبلاد اليمن في غزوة الخندق، وهم في أشد الحصار وأضيقه.

والله -عَزَّوَجَلَّ- وصف ذلك الحال بقوله: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ١٠﴾ [الأحزاب: ١٠]. فلذلك تفاءلوا تفاءلوا!

ولقـد بلغـتُ مـن التفـاؤل أوجـه	وقلائـلٌ مَـن يفعلـون قلائـلُ
حتـىٰ تفاعيـل البحـور قرأتهـا	متفـائلٌ متفـائلٌ متفـائلُ

﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾

قوله: ﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ ﴾، قيل: المخاطب به النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وقيل: الخطاب لغير مُعَيَّن، أي ممن يصلح عليه أن يخاطب، فيقال: ﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت ﴾. قوله: ﴿تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ﴾، أي إذا أشرقت الشمس تميل عن الكهف. ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ ﴾، أي إلىٰ جهة اليمين؛ لئلا تصيب القوم أشعة الشمس، فلو أُطلعت عليهم الشمس لأحرقتهم، لأحرقت ثيابهم وغيرت ألوانهم. وفي المجيء بالفعل المضارع في قوله: ﴿تَّزَٰوَرُ﴾ دلالة علىٰ تكرار ذلك كل يوم. قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾، قيل: تتركهم فلا تصيبهم، أي فلا تصيب منهم أحدًا، قيل: كان باب الكهف مفتوحًا إلىٰ جهة الشمال، فإذا طلعت الشمس كانت علىٰ يمين الكهف، وإذا غربت كانت علىٰ شمال الكهف، فلا يصل ضوء الشمس إلىٰ داخل الكهف. وقيل: بل المراد أن الشمس إذا طلعت منع الله ضوء الشمس من الوقوع عليهم، وكذا حال الغروب. وكان ذلك فعلًا خارقًا للعادة، وكرامة عظيمة لأولئك القوم. وهذا يدل عليه قوله -عَزَّوَجَلَّ-: في الآية ﴿ذَٰلِكَ﴾، أي التقليب، هذا الذي حصل وذكرنا لكم. ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾، أي أمر خارق للعادة؛ آية من آيات الله. قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ﴾، أي وهم في متسع داخل الكهف. ﴿ذَٰلِكَ﴾، قيل جيء باسم الإشارة الذي هو للبعيد للتعظيم. قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ ﴾، فيه ثناء علىٰ الفتية، وتنبيه علىٰ أن أمثال هذه الآيات كثيرة؛ ولكن المنتفع بها قليل. والمنتفعون بالآيات هم

المتأملون فيها والمستبصرون بهديها، قال الله -عَزَّوَجَلَّ- في سورة يونس: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس:١٠١]. قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء: ٥٩]. فالآيات والنذر يرسلها الله -عَزَّوَجَلَّ- لعباده؛ ليرتدعوا وليعودوا وليؤبوا إليه -عَزَّوَجَلَّ-. والمنتفعون بالآيات هم أصحاب القلوب الحية الذين ملأ الإيمان قلوبهم.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ﴾، جاء في حديث أبي ذر في صحيح مسلم، الحديث القدسي الطويل، وفيه أن الله -عَزَّوَجَلَّ- قال: «يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ»(١).

فطلبُ الهداية من الله -عَزَّوَجَلَّ- هذا من أعظم الأسئلة، ومن أعظم العون؛ أن تسأل الله -عَزَّوَجَلَّ- أن يهديك. ولذلك، نحن نسأل الله -عَزَّوَجَلَّ- في كل ركعة من ركعات صلاتنا، أن يهدينا الصراط المستقيم، فمن هداه الله -عَزَّوَجَلَّ- فهو المهتدي. قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾، أي مَن كتب الله عليه الشقاء، فلن تجد له من يهديه، وينصره، ويرشده، ويدله. نسأل الله السلامة والعافية.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾

قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾، الخطاب هنا يقال فيه ما قيل في

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، (٢٥٧٧).

المخاطبين في قوله: ﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ ﴾. قوله: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا ﴾، قيل: كانت أعينهم مفتوحة وهم نائمون. قال أهل العلم:

لئلا يسرع إليها الْبِلَىٰ. قالوا: ويحتمل أن الرائي يحسب أنهم أيقاظ لشدة الحفظ الذي كان عليهم وقلة التغيُّر. ويدل عليه قوله: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾. قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ﴾، قيل: الحكمة من التقليب؛ أنهم لو لم يُقلَّبوا لأكلتهم الأرض. وقيل: بل لينال روح النسيم جميع أبدانهم. وقيل غير ذلك. والأول الصحيح، وفيه دليلٌ استنبطه بعض الفضلاء من قوله: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ﴾، قالوا: فيه دليلٌ علىٰ أن النائم لا ينسب إليه فعلٌ؛ لأنه غير مكلف. جاء في الحديث أن النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- ذكر أن القلم رُفِع عن ثلاثةٍ، وذكر منهم: «وَعَنِ النَّائِمِ حَتَّىٰ يَسْتَيْقِظَ»[(١)]. قوله: ﴿وَكَلْبُهُم ﴾، الصحيح أن المراد بالكلب هنا هو الكلب الحيوان البهيم المعروف، فقد ذكر بعض المفسرين كلامًا في المراد بالكلب، لكن الصحيح أنه الكلب البهيم المعروف.

قال: ﴿وَكَلْبُهُم ﴾، اختلف المفسرون -رحمهم الله تعالىٰ- في لون هذا الكلب علىٰ أقوال لا حاصل لها ولا طائل تحتها ولا دليل عليها أيضًا، بل هي مما يُنهىٰ عنه؛ لأن ذلك قولٌ من باب الرجم بالغيب.

وقد ذكر الله -عَزَّوَجَلَّ- لنا في هذه القصة كثيرًا من الأشياء وألاّ يتكلم فيها الإنسان إلا بعلمٍ، وينسب الفضل والعلم فيها إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ-، قال: ﴿رَجْمَۢا بِٱلْغَيْبِ ﴾، وقوله: ﴿أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ وقوله: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ﴾، إلىٰ آخر ذلك من الآيات؛ فكون الإنسان يعرف لون الكلب أسودَ أو لونه أدهمَ أو نحو ذلك

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطلاق، بَابُ الطَّلاَقِ فِي الإِغْلاَقِ وَالكُرْهِ، وَالسَّكْرَانِ وَالمَجْنُونِ وَأَمْرِهِمَا.

لا فائدة منه. فشيءٌ لم يذكره الله -عَزَّوَجَلَّ- ولم يبينه النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ-، إذًا لا فائدة تحته، فالعبرة فيما تحويه القصة من العبر والعظات دون التفاصيل. قوله -جل ذكره-: ﴿بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ﴾، باسطٌ، أي مادٌّ يديه جالسٌ علىٰ بطنه عند مدخل الكهف، لحراسة أولئك الفتية الذين فروا بدينهم.

قوله: ﴿بِٱلۡوَصِيدِۚ﴾، قيل: فناء الكهف، وقيل: عند باب الكهف، وقيل: عند عتبة الكهف، وكل ذلك صحيح. لماذا لم يكن الكلب معهم داخل الكهف؟ قال بعض أهل العلم:

لحراستهم، هو سيكون في الخارج للحراسة. وقال بعضهم: لأن الملائكة لا تدخل شيئًا أو بيتًا فيه كلبٌ أو صورة.

وتأمل في قوله: ﴿وَكَلۡبُهُم﴾ ولم يقل والكلب، بل قال: ﴿وَكَلۡبُهُم﴾، وهذا فيه دليل علىٰ أن بركة الصالحين، أولئك الفتية، شملت حتىٰ الكلب، فأصابه النوم علىٰ تلك الحال. وهذا فيه دليل أيضًا علىٰ أن بركة الصالحين تشمل غيرهم من الناس، وفيه أيضًا فائدة صحبة الأخيار كذلك حتىٰ من الدواب، وفيه أثر الصلاح. وسنشير إلىٰ ذلك بعون الله -تبارك وتعالىٰ- في قصة موسىٰ -عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ- مع الخَضِر، حينما قدم وأتيا أهل قرية والجدار المعروف.

قوله: ﴿وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ﴾، فإن الله -عَزَّوَجَلَّ- قد ذكر الكلب وصار له خبرٌ وشأنٌ؛ بسبب مرافقته ومصاحبته للصالحين. وذلك يحكىٰ عن الإمام الشافعي أنه يقول:

أحــبُّ الصــالحينَ ولســتُ مــنهم … لعلّــي أن أنــالَ بهــم شــفاعةً

وأكـــــرهُ مَنْ تجـــــارتُه المعـــاصي وإن كُنَّـــا ســـــواءً في البضــــاعةِ

وفيه دليل علىٰ جواز اتخاذ الكلب للحراسة، وليحذر الإنسان من أن يصطحب كلبًا في غير حراسة أو صيد؛ فقد جاء فيه وعيد شديد في نقص أجره -والعياذ بالله-. فليحذر المسلم ولا يتشبه بالكفار، فإنه قد انتشرت في الآونة الأخيرة اصطحاب الكلاب، وهذا من صنيع الكفار -والعياذ بالله-.

قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾، الخطاب يقال فيه ما يقال في الخطاب في قوله: ﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ﴾ وقوله: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾. قوله: ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾، بسبب ما ألقىٰ الله -تعالىٰ- عليهم من المهابة. وقيل: بل تغيرت أشكالهم؛ فطول شعورهم وأظفارهم يجعل الإنسان يمتلئ قلبه رعبًا من أولئك ويفرُّ منهم، وهذا أيضًا بعيد؛ لأنهم لَـمّا استيقظوا لم ينكر بعضهم علىٰ بعض، فلو تغيروا واستيقظوا من نومهم وطالت شعورهم وأظفارهم لأنكر بعضهم علىٰ بعض، وهم لم ينكروا أصلًا ولم يستنكروا أشكالهم، ولذلك ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ﴾. وكذلك، لو كان الحال كذلك في طول شعورهم وأظفارهم لاستنكرهم أهل المدينة، فلما بعثوا أحدهم إلىٰ المدينة ليجلب لهم طعامًا لم يستنكره أهل المدينة بشكله، بل استنكروه بالوَرِق التي كانت معه، فدل ذلك علىٰ أن هذا من باب المهابة.

❋ ❋ ❋



الدرس الخامس
(١٩-٢١)

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴿٢١﴾ ﴾

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا
يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ
هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ
وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ﴿١٩﴾ ﴾

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ ﴾، «الكاف» في ﴿كَذَٰلِكَ ﴾ للتشبيه، ذَٰلِكَ اسم الإشارة راجع إلىٰ إنامة أصحاب الكهف وكيفية النوم. فلذلك قال الله

-عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾، أي كما أنمناهم قرونًا بعثناهم، ووجه الشبه هي أن الإفاقة، يعني البعث بعد النوم، آية عظيمة دالة علىٰ قدرة الله -عَزَّوَجَلَّ-، كما هو الحال في النوم والإنامة لهم، أي: كما أنمناهم بعثناهم. وقوله -جَلَّوَعَلَا-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾، أي أصحاب الكهف. قوله: ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ﴾، اللام هنا في ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ﴾ علىٰ قولين عند أهل العلم:

القول الأول: إنها لام كي، يعني لام التعليل، أي بعثناهم لكي يتساءلوا.

القول الثاني: إنها لام العاقبة والصيرورة، أي بعثناهم فتساءلوا بعد ذلك.

قوله: ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ﴾، فيه دليل علىٰ الحث علىٰ العلم والمباحثة فيه، وهذه فائدة كبيرة في أن الإنسان يذاكر في العلم، ويباحث غيره في العلم.

وقديمًا قال العلماء: إن مذاكرة حاذِقٍ في العلم أفضل. قالوا: يحكىٰ عن الإمام النووي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- أنه قال: مذاكرة حاذِقٍ بالعلم أفضل من مذاكرة درس سنة؛ لأنه يتبدّىٰ لك أشياء، وقد يتضح لك أشياء أنت لم تكن تفهم مغزىٰ هذه الأشياء، فبالمدارسة يتضح العلم. قوله: ﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ﴾، لأنهم بدؤوا يشكون في هذا النوم الطويل الذي أصابهم. ﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾، قيل: إن دُخولهم الكهف كان أول النهار وكان استيقاظهم آخر النهار، فما زالت الشمس حية، وكونهم يرون ضوء الشمس وهم في النهار شكُّوا. ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا﴾، يعني نمنا يومًا. وقال: ﴿أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ﴾، يعني نصف اليوم.

هل هذا القول في قوله: ﴿لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾ هو لهم جميعًا؟ أو هو من باب أن فريقًا منهم قال ﴿لَبِثۡنَا يَوۡمًا﴾ وفريقًا قال لبثنا ﴿بَعۡضَ يَوۡمٖۖ﴾؟ يجوز

الاحتمالان، يجوز أن يكونوا كلهم قالوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، فهذا جائز، وجائز أن يقال: قال فريق منهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا﴾ وفريق قال: ﴿بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾، الضمير في قوله: ﴿قَالُوا۟﴾ قيل إنَه يعود علىٰ جميعهم وهو الظاهر، أنهم كلهم ﴿قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾، ويجوز أن يكون هذا القول قول بعضهم.

فلما توافقوا وتواطؤوا عليه ورأوا أنه صواب، حينئذ تواطؤوا علىٰ هذا القول: ﴿قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾.

فائدة: وهي الأدب فيما اشتبه عليهم من العلم، فردوه إلىٰ عالمه -عَزَّوَجَلَّ-. وينبغي للإنسان في المسائل التي لا يعلم علمها أن يردها إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ- أو يقول لا أعلم.

وقُلْ إذا أعياكَ ذاك الأمرُ ... ما لي بما تسألُ عنه خُبْرُ

فذاكَ شطرُ العلمِ عند العُلمَا ... كذاك ما زالتْ تقول الحُكما

يقول الإنسان لا أعلم، فإنّ لا أعلم نصف العلم. وقد قال أهل العلم من قبل: مَنْ جَهِل لا أعلم أصيبت مقاتله.

قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم﴾، أي انتدبوا واحدًا منكم يقوم بمهمة، هذه المهمة ستكون محددة بعد ذلك. لكن في قوله: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم﴾، فيه دليل علىٰ جواز النيابة وصحة الوكالة في البيع والشراء، فإنهم أنابوا واحدًا منهم، وكّلوه ليذهب فيشتري لهم. قوله: ﴿بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ﴾، المقصود بالوَرِق الفضة المضروبة، وهي الدراهم المعروفة. في قوله: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟

﴿أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ﴾ مسائل:

المسألة الأولى: فيه دليل علىٰ أن حمل النفقة، وما يحتاجه الإنسان في سفرٍ أو في غيره لا ينافي التوكّل، فهم وإن كانوا متوكلين علىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ- وأوَوا إلىٰ الكهف، لكنهم لم يقفوا عن الأخذ بالأسباب، فإن الأخذ بالأسباب من التوكل. والتوكل: هو الاعتماد علىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ- وتفويض الأمر إليه والثقة به -جَلَّوَعَلَا-، فلذلك حملوا معهم نقودًا يحتاجون إليها.

المسألة الثانية: فيه فائدة علىٰ جواز خلط دراهم الجماعة والشراء بها؛ لأنهم قالوا فابعثوا أحدكم بورقكم، فهم جمعوا المال.

المسألة الثالثة: فيه دليل علىٰ جواز الأكل من الطعام الذي فيه الشركة، وإن كان فيهم من يأكل أكثر ومن يأكل أقل، لأنهم اشتركوا. فلو مثلًا قدرنا أن كل واحدٍ منهم دفع درهمًا، فسيشترون بهذه الدراهم طعامًا، وسيكون الطعام هذا مقدمًا ومهيئًا للأكل بينهم، فلا شك أن بعضهم سيكون أكثر حظًا من بعض في الأكل.

فهل لا بد أن يوزع الأكل بالتساوي عليهم؟ نقول الجواب: لا. وهذا ما نسميه نحن الآن مصطلحًا بالمساهمة، يعني يشترك جماعة يدفعون مالًا ويشترون به طعامًا ويأكلون، لا يُشترط أن يقسَّم الطعام علىٰ حسب الأكل، فمن أكل أكثر ليس عليه تثريب فيمن لم يأكل إلا قليلًا، ولا يُعتبر أكل من مال غيره. قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾، المقصود بالمدينة أي التي كانوا يسكنون فيها والتي هربوا منها إلىٰ الكهف. ولم يذكر الله -عَزَّوَجَلَّ- لنا اسم هذه المدينة، وهذه من **فوائد** القصص القرآني، أن الله -عَزَّوَجَلَّ- يحكي القصة، والمقصود الانتفاع بها، وليس المقصود بها معرفة دقة التفاصيل.

ينبغي للإنسان ألا يهتم بالتفاصيل، يعني ما اسم المدينة؟ وكيف ذهب؟ وأي طريق سلك؟ ومن قابل؟ وكيف حصل؟ هذه تفاصيل لا يتوقف عليها المعنىٰ، بل العلم بها ليس ضروريًا، والجهل بها لا يضر.

لأن هذه القصص إنما جيء بها للعظة والعبرة وهو المهم، ليس المقصود فقط أن تفهم تفاصيل القصة.

قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ﴾، علىٰ من يعود الضمير في قوله: ﴿أَيُّهَآ﴾؟ **قولان** لأهل العلم:

القول الأول: قالوا الضمير يعود علىٰ المدينة، فيكون تقدير الكلام: «فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلىٰ المدينة، أي أهل المدينة، فلينظر أطيب طعامًا، وأحل مكسبًا».

القول الثاني: قالوا الضمير يعود علىٰ الأطعمة، أي الأطعمة أزكىٰ طعامًا.

في قوله: ﴿أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾، ما المراد بقوله: ﴿أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾؟ أقوال لأهل العلم:

القول الأول: أحلىٰ طعامًا ويكون حلالًا.

القول الثاني: الطعام الأجود.

القول الثالث: الطعام الأكثر.

وقيل غير ذلك. والصحيح -والله أعلم والذي يظهر من الآية- أن المقصود به أحل طعامًا، يعني الذي يكون حلالًا وطيبًا؛ لأن هذا هو اللائق بحال الفتية، فهم فروا من قومهم لأجل أنهم مشركون، كذلك تحرَّوا أكل الحلال. وفيه **فوائد:**

الفائدة الأولى: فيه دليلٌ علىٰ أن طلب الزاد لا ينافي الزهد، وأنه كذلك لا ينافي التوكل، فليس معنىٰ الزهد أن الإنسان يترك الأكل والشراب، بل هذا من التوكل، «اعقلها وتوكل».

الفائدة الثانية: أن كون الإنسان يأكل الطعام اللذيذ فهذا لا ينافي الزهد، يعني ليس الزهد أن تأكل الطعام الرديء، وليس الزهد أن تأكل الطعام الذي يضرك، وليس الزهد أن تأكل وتقتصر علىٰ أشد الطعام جفافًا ونحو ذلك، لا، بل هؤلاء القوم الصالحون طلبوا أزكىٰ طعامًا، علىٰ القول إنه أزكىٰ وأطيب وألذ طعامًا، حتىٰ ولو دفع الإنسان فيه كثيرًا، فإن هذا لا ينافي الزهد.

وهذا فيه رد علىٰ المتصوِّفة، الذين يرون أن الإنسان يأكل من الطعام الخشن، ويأكل أقل الطعام ولا يتكلف فيه، إلىٰ آخره. بل الإنسان يأكل ما لذَّ وطاب. قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ [الأعراف: ٣٢].

يقول الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ﴾، في قوله: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ المقصود به يترفَّق ويتخفَّىٰ ويتحيَّن في دخوله وخروجه وشرائه ورجوعه إلىٰ الكهف ونحو ذلك؛ لأنه لا زال هؤلاء الفتية يخافون من قومهم ومن بطش قومهم، فأرادوا أن يجعلوا لهذا النقيب، أي المرسَل، مواصفات:

الوصف الأول: يتلطَّف في خروجه وشرائه وذهابه وإيابه ونحو ذلك.

الوصف الثاني: أنه من شدة تحرُّزه وتلطُّفه يعمي الأنظار، ولا يحدث حدثًا يشعر الآخرين أن هؤلاء هم الفتية الذين فروا من قومهم.

وهذا فيه دليل علىٰ أن القوم لم يتغيروا أصلًا، وردٌّ علىٰ من قال من المفسرين أنه طالت أظفارهم وشعورهم ونحو ذلك.

قوله: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝١٩﴾، فيه دليل علىٰ التحرُّز والاستخفاء والبعد عن مواقع الفتن في الدين، وكذلك فيه دليل علىٰ أخذ الحذر من الأعداء، وفيه إشارة إلىٰ أن الكهف الذي كان الفتية فيه كان قريبًا من المدينة؛ وإلا لو كان الكهف بعيدًا عن المدينة لاستغرق وقتًا طويلًا في انتظار هذا الذاهب وسيفسد الطعام.

قوله: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝١٩﴾، دليل علىٰ المبالغة والحذر في ذهاب الذاهب والنقيب الذي أرسلوه.

وفي قوله: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ﴾ النون للتوكيد و﴿أَحَدًا﴾ سيأتي السبب.

الآية التي ستأتي بعدها تبين السبب الذي جعلهم يبالغون في التحرُّز والاختفاء.

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ۝٢٠﴾

قوله: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ إن يظهروا عليكم، أي يطّلعوا علىٰ أمركم ويكتشفوا حالكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ۝٢٠﴾ فقوله: ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾، المراد بالرجم القتل بالحجارة، وكان هؤلاء القوم، «أعني أهل المدينة والملك الذي هربوا من بين يديه»، كان بأسهم شديدًا وتعذيبهم قويًّا. فلذلك قالوا: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾، وأشد أنواع القتل الرجم بالحجارة. وقيل:

﴿يَرۡجُمُوكُمۡ﴾ «إنه الشتم بالقول»، وهذا اختاره ابن جرير -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-. لكن الذي يظهر -والله أعلم- أنه الرمي بالحجارة حتىٰ الموت.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ﴾. يبقىٰ هنا سؤال: لماذا قدموا الرجم؟ فيكون الكلام: «إنهم إن يظهروا عليكم يعيدوكم في ملتهم أو يرجموكم»، هذا المتبادر للقسمة العقلية؛ يعني القسمة العقلية أنهم إذا قبضوا عليهم أولًا أن يحاولوا أن يردوهم عن دينهم، ثم إذا ما استجابوا لهم يقتلوهم، هذا المتبادر للذهن.

قال بعض أهل العلم: سبب تقديم الرجم لأمرين:

الأمر الأول: هذا فيه إشارة إلىٰ ظلم أولئك، أي أهل المدينة.

الأمر الثاني: شدة ثبات أولئك الفتية؛ لأن المتبادر للذهن إذا ما استجابوا سيقتلونهم أو يرجعون عن دينهم. كأنهم يوصي بعضهم بعضًا أنهم لو ظهروا عليكم فاثبتوا، حتىٰ ولو أدىٰ ثباتكم إلىٰ القتل وإزهاق أرواحكم فأنتم علىٰ الحق، وإياكم أن تعودوا في ملتهم، فلذلك قدم الرجم هنا. وهذا مناسب لقوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾، فهؤلاء القوم عندهم شدة في الصبر والثبات. قال: ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ﴾، هنا مسألة: هل كان أصحاب الكهف علىٰ دين قومهم من قبل أم لا؟ لأن قوله: ﴿أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ﴾ يشير إلىٰ أنهم كانوا علىٰ ملة أولئك قبل الإسلام، أليس كذلك؟

قولان لأهل العلم:

القول الأول: قالوا: ﴿أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ﴾، أي يردوكم إلىٰ الملة التي

كنتم عليها قبل أن يهديكم الله.

القول الثاني: لم يكن أولئك الفتية علىٰ دين قومهم.

إذًا سيكون توجيه قوله: ﴿يُعِيدُوكُمْ﴾، قالوا: العود غالبًا في اللغة العربية ليس معناه الرجوع، إنما العود معناه الصيرورة، يعني كان كذا ثم عاد إلىٰ كذا. الشيء الثاني لا يعني أنه هو الأول، لا، بل يعني انتقل إلىٰ شيء آخر. وهذا مثل قول القائل:

تلك المكارمُ لا قَعْبَانِ من لَبنٍ شِيبَا بماءٍ فعادا بعدُ أبْوَالا

يعني صار بعد ذلك. فقوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾، يعني أو يكرهوكم فيلزموكم أن تعودوا إلىٰ الكفر، فالذي يظهر أن هؤلاء الفتية لم يكونوا علىٰ دين قومهم، فيصبح قوله -تعالىٰ-: ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾، أي ترجعوا إلىٰ الكفر، وليس المقصود به أنهم كانوا قبل ذلك في الكفر. هذان الأمران احتمالان واردان في الآية.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾، لماذا قال في ملتهم ولم يقل أو يعيدوكم إلىٰ ملتهم؟ المتبادر للذهن أن يقال يعيدوكم إلىٰ الملة وليس يعيدوكم في الملة.

الجواب: جيء بحرف «في» دون حرف «إلىٰ» للدلالة علىٰ الاستقرار الذي هو أشد شيئًا عندهم كراهة، يعني هؤلاء يريدون أن يجعلوكم، لا يردوكم إلىٰ الملة بل في الملة. وهذا الجمال القرآني في الإتيان بالألفاظ. قال: ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ۝٢٠﴾، يعني إذا عدتم إلىٰ ملتهم فلن تفلحوا إذًا أبدًا. وهذا فيه تحذير من الشرك وأن المشرك لا يفلح.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ٢٠﴾، وهنا مسألة، وهي: لو أن أصحاب الكهف أُكرهوا وكفروا، في الظاهر نطقوا بالكفر وقلوبهم مطمئنة، أليسوا معذورين؟

فلماذا قالوا: ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ٢٠﴾؟ قال أهل العلم في هذه المسألة أجوبة:

الجواب الأول: قالوا في قوله: ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ٢٠﴾ مع أنهم لو أُكرهوا وأجابوا في الظاهر فإنهم معذورون، قالوا: إنما خافوا لو أنهم وافقوهم في الكفر في الظاهر، أنه يحصل لهم الكفر الحقيقي، فلذلك قالوا ولن تفلحوا إذا أبدًا.

الجواب الثاني: العذر بالإكراه من خصائص هذه الأمة، وليس للأمم السابقة.

فلذلك لو وقعوا، لم يقولوا مثلًا أجيبوهم علىٰ ما هم عليه في الظاهر وقلوبهم مطمئنة، لا، ليس لهم إلا هذان الاحتمالان، إما أن يثبتوا ويُقتلوا وإما أن يرجعوا إلىٰ الكفر، فإذا رجعوا للكفر فلن يفلحوا إذًا أبدًا.

جيء بقوله: ﴿يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾، مع أن الكلام موجه لهذا الرجل الذي سيرسلونه؛ لأنهم قالوا ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ١٩﴾، المفترض أن يقولوا: إذا ظهر أمرنا فستقتل أنت أو تعذب إلىٰ آخره، وتدل علينا. لكن لماذا جاؤوا بقوله: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾ ثم قالوا ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾، وقوله: ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ﴾؟ «لاحظتم هذه العبارات» قيل: جيء بها لأمرين:

الأمر الأول: أنهم يوصون المبعوث هذا للاستخفاء، يعني انتبه لا تحدث شيئًا، فإذا أحدثت شيئًا فسيحصل كذا وكذا وكذا.

الأمر الثاني: حثُّ بعضهم بعضًا بالوصية والنصح، يعني لو حصل أن هذا الرجل الذي سترسلونه أُكتُشف أمره سيحصل لكم كذا وكذا، إذن فما الحل؟ الحل: أن تثبتوا ليس لكم خيار إلا هذين الأمرين، إما أن تثبُتوا فتُقتلوا في سبيل الله، وإما أن ترجعوا وتتركوا دينكم وتوافقوا أهل تلك الملة في الكفر، فحينئذٍ ستخسرون. هذه من أعظم الوصايا والنصح، ولذلك قد يثبُت الإنسان بوصية غيره.

وفيه دليل علىٰ التواصي والنصيحة، قد يزلُّ الإنسان ويضعُف، فيأتي من يقوي إرادته ويشد عزمه ويوقظ همته. وفيه دليل علىٰ أنهم شركاء في نفس المصير كالنفس الواحدة.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾

قال الله -عَزَّوَجَلَّ- بعد ذلك: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، أي كما أنمناهم سنين كثيرة وأيقظناهم بعدها ﴿أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾، يعني أظهرنا وأطلعنا أهل المدينة علىٰ أهل الكهف. وفي قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾، فيه إيجاز بالحذف، أي «لما أرسلوا النقيب فبعثوا أحدهم، ونظر أيّها أزكىٰ طعامًا، وتلطَّف ولم يشعر بهم أحدًا»، الكلام المحذوف: «فأطلع الله أهل المدينة علىٰ حالهم». مفعول ﴿أَعْثَرْنَا﴾ محذوف يدل عليه قوله -تعالىٰ-: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾، فحينئذٍ تقدير المفعول به أي: «أطلعنا أهل المدينة علىٰ أهل الكهف»، يعني ظهر أمر

أصحاب الكهف لأهل المدينة، ووقع المحذور الذي خافوا منه، لكن الله -عَزَّوَجَلَّ- بلطفه وتوفيقه أنقذهم.

وفيه دليل علىٰ أن الفتن كلما اشتدت، جعل الله -تعالىٰ- للعبد منها فرجًا ومخرجًا. وفيه دليل علىٰ أن الإنسان مهما بالغ في التحرز والحذر، فإنه لا يغني حذرٌ من قَدَر، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. والأمور كلها بيد الله -عَزَّوَجَلَّ- وإليه ترجع الأمور. لكن العبرة الكبيرة جدًّا في أنه لم يقع المحذور الذي توقعوه، لا القتل ولا الرجوع إلىٰ الملة. فمن الذي صرف عنهم هذا؟ إنه الله -عَزَّوَجَلَّ-، وأن الله يدافع عن الذين آمنوا، ولو لم نستفد من درس اليوم إلا هذه الفائدة لكفت، وهي أن الذي يصدق مع الله-عَزَّوَجَلَّ- يوفقه الله لكل خير، ويدفع عنه كل مكروه وسوء. فكن مع الله ولا تبالِ، وتوكل علىٰ الحي الذي لا يموت، من توكل علىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ- كفاه. وقل دائمًا بلسان حالك ومقالك: «إن معي ربي سيهدين». الله -عَزَّوَجَلَّ- لن يخذل أولياءه ولن يسلمهم لأعدائه، بل وعَدَ وعدًا أن ينصر أولياءه فقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: ٤٧]. نسأل الله -سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ- أن يجعلنا وإياكم من أنصار دينه.

قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ﴾، هل يعود الضمير في قوله ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ﴾ علىٰ أهل المدينة أو علىٰ أهل الكهف؟ الاحتمالان واردان، لكن المعنىٰ سيختلف؛ فإذا قلنا إن الضمير في قوله: ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ يعود علىٰ أهل المدينة، أي ليعلم أهل المدينة الشاكين في البعث أن وعد الله حق وأنه يبعث من في القبور، وهذا هو قول الأكثرين من أهل العلم.

وإذا أعدنا الضمير علىٰ أهل الكهف، الفتية، فسيكون ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ

حَقٌّ﴾ المراد به النجاة من الكافرين، أي ليعلم أهل الكهف أن وعد الله حق بأن النصر للمؤمنين، وأن الله لا يخذل أولياءه وأن العاقبة للمتقين.

ثم قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾، أن البعث لا ريب فيه، وأن هناك بعثًا، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾، [المؤمنون: ١١٥-١١٦]. فالله -عَزَّوَجَلَّ- لم يخلق الخلق سدًى وهملًا، بل خلق الخلق ليعبدوه، وبالألوهية يفردوه، وهذه هي الحكمة. قلنا إنه كلما كان يقين الإنسان بالله واليوم الآخر أكثر، كان إقباله علىٰ العمل الصالح أكثر، والعكس بالعكس.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ﴾، من هم المتنازِعون؟ الجواب: أهل المدينة، اختلفوا في الأمر المتنازَع فيه، أمر الفتية، ماذا يصنعون بهم؟ فقيل تنازعوا في البنيان والمسجد ماذا سيصنعون؛ هل يبنون عليهم بنيانًا؟ هل يبنون عليهم مسجدًا؟ وقيل تنازعوا في قدر مكثهم في الكهف، كم مكثوا؟ كم جلسوا؟

وقيل تنازعوا يعني اختلفوا في كم عددهم. وقيل اختلفوا بينهم في البعث، هل تبعث الأرواح والأجساد أو تبعث فقط الأرواح دون الأجساد؟ احتمالات ذكرها أهل العلم -رحمهم الله تعالىٰ-.

قوله: ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾، الضمير في قوله: ﴿أَمْرَهُمْ﴾، قيل يعود علىٰ أصحاب الكهف، أي يتنازعون بينهم في أمر أصحاب الكهف، ماذا يصنعون بهم. وقيل: بل يعود علىٰ ضمير يتنازعون، أي يتنازع أولئك القوم أمرهم فيما بينهم.

والذي يظهر أنهم يتنازعون في أمر الفتية.

قوله: ﴿فَقَالُواْ﴾، من هم القائلون؟ قولان لأهل العلم:

القول الأول: المراد بالقائلين هنا المسلمون.

القول الثاني: المراد بالقائلين هنا هم مشركو ذلك الزمان، يعني الآن لما أطلع الله -عَزَّوَجَلَّ- أهل المدينة علىٰ أهل الكهف، ثم أمات أهل الكهف فرأوهم علىٰ حالهم، فماذا يصنعون بهم؟ اختلفوا، قال بعضهم ابنوا عليهم بنيانًا، يعني اتركوهم علىٰ حالهم وسدوا عليهم الكهف، واتركوا أمرهم إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ-، فإن لله حكمة في ذلك. وقال بعضهم بل نبني عليهم مسجدًا.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾، قوله: ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ هل هي من كلام المتنازعين أو هي جملة اعتراضية من كلام الله -عَزَّوَجَلَّ-؟ قولان لأهل العلم:

القول الأول: هي من كلام المتنازعين أنفسهم، يعني يصبح كلامهم لما اختلفوا فيهم ماذا سيصنعون ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ فقط سدوا عليهم الكهف، فالله أعلم بأحوالهم.

القول الثاني: بل هذه جملة اعتراضية من كلام الله -عَزَّوَجَلَّ-، فينتهي كلام المتنازعين عند قولهم: ﴿ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا﴾.

قوله: ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾، أي الله أعلم ماذا سيصبح حالهم ومآلهم لو فعلوا، أي بنوا عليهم بنيانًا.

قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾، المراد بهم هم أهل الغلبة وأصحاب الكلمة والنفوذ، من الولاة والرؤساء والـمَلِك الذين هربوا من بين يديه.

فقوله: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ۝٢١﴾، هل في فعلهم هذا في اتخاذهم مسجدًا علىٰ أولئك الفتية أمر محمود أو أمر مذموم؟ الجواب: أمر مذموم، لأن البناء علىٰ القبور شرك محرَّم ووسيلة إلىٰ الشرك. ولذلك قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ﴾، يعني هؤلاء أهل السلطة، وغالب أهل السلطة والولاية ليس عندهم فقه ولا علم. فقالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ۝٢١﴾، وبناء المساجد علىٰ القبور محرَّم ووسيلة إلىٰ الشرك، ولا تصح الصلاة فيه. ولذلك نهىٰ النبي -صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- عن البناء علىٰ القبور؛ حتىٰ يسدَّ ذريعة الشرك عن ارتفاع القبر فوق الشبر. قال -صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ-، كما في الصحيح: «لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسْجِدًا»[(١)]، وفي رواية «وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ»[(٢)]. وهذا فيه دليل أن من أسباب بناء المساجد علىٰ القبور الغلوّ في أصحاب القبور، وأول شرك وقع في الأرض هو بسبب الغلوّ في الصالحين، كما حصل في قوم نوح-عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ-، فنهىٰ النبي -صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- عن البناء علىٰ القبر، بل نهىٰ عن أن يُجصّصَ القبر، وأن يُبنىٰ عليه، وأن يُقعد عليه.

كما في حديث جابر-رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ- عند مسلم: «نَهَىٰ رَسُولُ اللهِ -صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- أَنْ يُجَصَّصَ الْقَبْرُ، وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُبْنَىٰ عَلَيْهِ»[(٣)]؛ كل ذلك صيانة وحماية للتوحيد. فهؤلاء الفتية أصلًا فروا من الشرك إلىٰ التوحيد، لكن لا زال أهل المدينة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ اتِّخَاذِ المَسَاجِدِ عَلَىٰ القُبُورِ، (١٣٣٠)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، بَابُ النَّهْيِ عَنْ بِنَاءِ الْمَسَاجِدِ عَلَىٰ الْقُبُورِ وَاتِّخَاذِ الصُّوَرِ فِيهَا، وَالنَّهْيِ عَنِ اتِّخَاذِ الْقُبُورِ مَسَاجِدَ، (٥٢٩).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، بابُ النَّهْيِ عَنْ بِنَاءِ الْمَسَاجِدِ عَلَىٰ الْقُبُورِ وَاتِّخَاذِ الصُّوَرِ فِيهَا، وَالنَّهْيِ عَنِ اتِّخَاذِ الْقُبُورِ مَسَاجِدَ، (٥٣٢).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز، بَابُ النَّهْيِ عَنْ تَجْصِيصِ الْقَبْرِ وَالْبِنَاءِ عَلَيْهِ، (٩٧٠).

متمسكين بشركهم. فقالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ٢١﴾. وليس في هذه الآية دليل لما يطلبه القبوريون بأنه يجوز البناء علىٰ المساجد، بل هو دليل علىٰ التحريم؛ لأنه قال: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ﴾، فلو كان الأمر للإقرار لقال: فقالوا ابنوا عليهم بنيانًا ونتخذ عليهم مسجدًا، لكن لـمّا قال الذين غلبوا علىٰ أمرهم هذا، فيه دليل علىٰ الإنكار.

وبهذا القدر نكتفي في درس اليوم، ونسأل الله -سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ- أن يبارك فيكم، وأن يجعلنا وإياكم من أوليائه الصالحين وعباده المؤمنين، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

❋ ❋ ❋



الدرس السادس
(٢٢-٢٤)

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾﴾

بين يدينا، ثلاث آيات تتحدث عن قصة أصحاب الكهف والخلاف الذي حصل في عددهم، وكذلك ما يتعلق بهذه القصة من تتمات. ولعلنا -إن شاء الله- نكمل باقي القصة في الدروس القادمة بعون الله -تبارك وتعالىٰ-.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٢٢﴾﴾

يقول ربنا -تقدس وتعظم وتبارك وتعالىٰ-: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ﴾، في قوله: ﴿سَيَقُولُونَ﴾، المجيء بـ «س» في قوله: ﴿سَيَقُولُونَ﴾، لماذا لم يقل الله -عَزَّوَجَلَّ-:

«يقولون ثلاثة رابعهم كلبهم»؟ قال أهل العلم:

المجيء بـــــ «س» دليل علىٰ أن الناس لا يزالون يخوضون في ذلك الأمر فقال: ﴿ سَيَقُولُونَ ﴾.

وقوله: ﴿ سَيَقُولُونَ ﴾ الضمير هنا فيه خلاف، من هم القائلون؟ وتقدير الآية: «سيقول الذين تنازعوا في أمر أصحاب أهل الكهف» ﴿ثَلَـٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ ﴾ الآية.

اختلف أهل العلم في المراد بالقائلين علىٰ أقوال:

القول الأول: قالوا يُراد بهم أهل التوراة ومعاصرو النبي -صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ-، ذلك أن قريشًا ذهبت تسأل اليهود عن حال النبي -صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ-، فقالوا سَلوه عن ثلاثة أشياء، وذكروا منها أصحاب الكهف.

القول الثاني: قالوا أهل مدينتهم قبل أن يظهروا علىٰ أصحاب الكهف.

القول الثالث: أنهم نصارىٰ نجران الذين ناظروا النبي -صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ-.

فيحتمل هذا ويحتمل هذا ويحتمل ذاك، فهذه ثلاثة أقوال في المراد بالقائلين في قوله: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ ﴾.

والمجيء بقوله ثلاثة رابعهم كلبهم، خمسة سادسهم كلبهم، سبعة وثامنهم كلبهم؛ لأن الكلب ليس من جنس البشر، فلذلك لم يقل أربعة بكلبهم مثلًا، خمسة بكلبهم، بل قال: ﴿ثَلَـٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ ﴾.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ ﴾، وما زلنا نقول من فائدة رفقة الصالحين، أنه إذا ذُكر الصالحون، ذُكر مَن رافقهم.

وهذا يمتثل له الشافعي بقوله:

أحــبُّ الصــالحينَ ولســتُ مــنهمْ لعلِّـــي أن أنَـــالَ بهـــمْ شـــفاعة
وأكــرَهُ مَــنْ تجارتُــه المعـــاصِي وإن كُنَّـــا ســـواءً في البضَـــاعة

والمرء مع من أحب، فهذا الكلب بلغ شأوًا في أن ذُكِر في كتاب الله -عَزَّوَجَلَّ-؛ بسبب مرافقته الصالحين.

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٌ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ ﴾، وها هنا سؤال: هل القائلون واحد؟

يعني الذين قالوا ثلاثة رابعهم كلبهم هم الذين قالوا خمسة سادسهم كلبهم وهم الذين قالوا سبعة ثامنهم كلبهم، أم يختلفون؟ قولان لأهل العلم:

القول الأول: القائلون واحد؛ أي الذين قالوا ثلاثة رابعهم كلبهم هم الذين قالوا خمسة سادسهم كلبهم وهم الذين قالوا سبعة ثامنهم كلبهم، وأنهم مترددون في شأن أصحاب الكهف، فمرةً يقولون ثلاثة ومرةً يقولون خمسة وهكذا.

القول الثاني: إنما هذه الأقوال قيلت لجماعات متفرقة، ففريقٌ قال ثلاثةٌ رابعهم كلبهم، وفريقٌ قال خمسةٌ سادسهم كلبهم، وهكذا.

وكلا القولين مُحتَمِل، جائز أن يكون القائل واحدًا وهذا يحصل عند الناس، خصوصًا إذا كان في أمر متردَّد فيه، قد يتغير رأي الإنسان، يقول مثلًا بقول ثم يقول بقول آخر من باب التردد، وقد يحصل أن القائل بهذا جماعة والقائل بهذا جماعة، ولا منافاة.

والمراد بقوله: ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾، أي بمجرد الظنِّ والتخمين من غير علم ولا

يقين، وإنما قالوا ذلك من باب التخرّص.

والمجيء بهذه الجملة، قوله: ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾، فيه دليل علىٰ تضعيف القولين الأوَّلَين، وهو أن عدد أصحاب الكهف ثلاثة رابعهم كلبهم، خمسة سادسهم كلبهم. وكذلك فيه إشارة إلىٰ صحة القول الثالث الذي هو: ﴿سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ﴾؛ إذ لو كان هذا القول قولًا باطلًا لجاء الرد فيه، فقال: «ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم رجمًا بالغيب»، لكن لـمّا لم يبطل القول الثالث، دل علىٰ أن عدة أصحاب الكهف سبعة وثامنهم كلبهم.

قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾، فيه **فوائد:**

الفائدة الأولى: فيه دليل علىٰ أن الإنسان لا بد أن يتعوَّد علىٰ أن يترك الاشتغال فيما ليس منه فائدةٌ في دينه أو فائدة لغيره من الناس؛ لأنه ما الفائدة المرجوّة التي تعود علىٰ الناس أو علىٰ دين المرء حينما يعلم أن عدة أصحاب الكهف سبعة وثامنهم كلبهم؟! ففي هذا توجيه لترك بعض التفاصيل التي لا فائدة منها، بحيث إن الجهل بها لا يضر والعلم لا يزيد نفعًا. وهكذا ينبغي للإنسان دائمًا ألا يشتغل بشيء لا يعود عليه في أمر دينه ودنياه بشيء، ويُعرض عن الأشياء التي لا فائدة فيها.

الفائدة الثانية: ردُّ العلم إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ-، وأنه ينبغي للإنسان أنه إذا لم يكن لديه علم أن يرد هذا العلم إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ-، وأن يقول: الله أعلم.

في إسناد اسم التفضيل إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ- في قوله: ﴿أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ فائدة. فلماذا لم يقل قل ربي عليم بعدتهم؟ فيه **فائدة:** أن علم الله -عَزَّوَجَلَّ- بعدتهم هو العلم الكامل، وأن علم غيره مجرد ظن وحدْسٍ، قد يصادف الواقع وقد لا يصادف الواقع،

لكن هذا دليل علىٰ أن العلم الكامل هو علم الله -عَزَّوَجَلَّ-.

ثم قال: ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٌۗ﴾، أي ما يعلم عدد أصحاب الكهف علىٰ الصوابِ إلا قليلٌ من خلقه.

ولذلك، قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾، كان ابن عباس -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا- يقول: أنا من ذلك القليل.

في قوله: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ﴾، أي لا تُحاجج يا محمد في أصحاب الكهف. في أي شيء كان المِراء؟

قيل في عددهم، وقيل في زمانهم، وقيل في مكانهم ونحو ذلك، وهو يشمل جميع ما يتعلق بتفاصيل أصحاب الكهف، وإن كان الظاهر يعود إلىٰ العدد.

قوله: ﴿إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾، إلّا محاجّةً ظاهرةً ولا تُجهد نفسك فيما لا طائل من ورائه؛ فإن الأمرَ في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبيرُ فائدة. وسبق أن أشرنا إلىٰ هذه المسألة من قبل.

وكذلك يستفاد من قوله: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾ تحريم الجدال بغير علم وبلا حجة ظاهرة، وأن الإنسان ينبغي له إذا ظن أن المِراء لا يوصل إلىٰ الحق أن يترك المراء ولو كان هو محقًّا. قال رسول الله -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا»[1]. المِراء هو: الجدال الذي يورث الضغينة؛ لأنه ينتقل من فكرة إيصال الحق إلىٰ الانتصار للرأي، يدخل فيه الحقد،

(١) أخرجه أبو داود في سننه بسند حسن في كتاب الأدب، بَابٌ فِي حُسْنِ الْخُلُقِ، (٤٨٠٠). قال الألباني في مشكاة المصابيح: حديث حسن، (٤٨٣١).

وتدخل فيه البغضاء، ويدخل فيه التجاوز والتعدي ونحو ذلك.

قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾، أي: لا تتعب نفسك فيما لا طائل منه.

ويبقىٰ السؤال: لماذا سَمّىٰ محُاجَّة النبي -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لأولئك مِراءً؟ قال أهل العلم:

من باب المقابلة، فلما كانوا هم المجادلون، جادلهم النبي -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وهذا من باب المحاجَّة.

قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ۝٢٢﴾، في قوله: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ﴾، أخذ منه أهل العلم المنع من استفتاء مَنْ لا يصلح للفتوىٰ، إما لقصوره في العلم في الأمر المستفتىٰ فيه، أو لكونه يتكلم بغير علم وليس عنده ورعٌ يحجزه بالتكلم بغير علم. فقال: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ۝٢٢﴾، وفي هذا دليل علىٰ أن الإنسان لا يُسلْم دِينه مَنْ لا يثق في علمه، ولا يستفتي في أمر دينه إلا من هو أهل للفُتيا.

فإن هذا العلم دِين، فانْظُروا عمن تأخذون دينكم. ويحتاط الإنسان في أمر دينه بأن يستفتي أهل العلم المعروفين بالعلم والتقوىٰ.

قال: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ﴾، وهذا خطاب للنبي -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ لأن أهل الكتاب ليس عندهم علم بعدد أصحاب الكهف، وإنما هو التخرّص. فنهاه الله -عَزَّوَجَلَّ- عن أن يستفتي أولئك.

قال: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم﴾، أي ولا تستفتِ في أصحاب الكهف. في قوله: ﴿مِّنْهُمْ﴾، يعود الضمير علىٰ أهل الكتاب، أي لا تستفتِ في أصحاب الكهف من

أهل الكتاب. وقيل لا تستفتِ فيهم، أي في أصحاب الكهف من الناس عمومًا، فليس لديهم علم بذلك.

ويصبح المعنىٰ: «ولا تستفتِ في أصحاب الكهف أهل الكتاب، فإنهم لا علم لهم بذلك، إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجما بالغيب».

وفي قوله: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ۝٢٢﴾ فيه إشارة إلىٰ أن ما جاء به الوحي إلىٰ النبي -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، في عدد أصحاب أهل الكهف في قوله: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية، فهو المقدمُ علىٰ كل ما قيل من الأقوال في عدد أصحاب الكهف.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣﴾

قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ﴾، الخطاب هنا للنبي -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ذلك أن المفسرين أجمعوا علىٰ أن أهل الكتاب سألوا النبي- صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين. فقال النبي -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أُخبركم غدًا، ولم يقل -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إن شاء الله». فَتَلَبَّثَ الوحي أيامًا وتأخر علىٰ النبي -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ثم نزلت هذه الآية[1].

فقوله -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣﴾، أي لا تقولنَّ يا محمد لأيِّ شيءٍ تعزِم علىٰ فعلِه إني فاعلٌ ذلك الأمر في المستقبل إلا أن تقول مع ذلك القول «إن شاء الله».

---

(١) أورده الواحدي في أسباب النزول، (٣٠٠)، بقول قال المفسرون.

﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾ ﴾

ثم قال: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، هل هي جملة متعلقة بما قبلها أو جملة جديدة؟ قولان لأهل العلم:

القول الأول: إنَّ هذه الآية متعلقة بما قبلها، فيكون تقدير الكلام: «واذكُر ربك بعد نسيانك بقولك، إن شاء الله» يعني ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾، فإذا نسيت فقل: «إن شاء الله»، هذا المقصود بها.

القول الثاني: قيل بل المعنىٰ أعم ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، أي إذا نسيت أيَّ شيئًا في كلامك فاذكْر الله -عَزَّوَجَلَّ-؛ لأن النسيان منشؤهُ من الشيطان. قال الله -عَزَّوَجَلَّ- في نفس السورة ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ﴾ [الكهف:٦٣]. ولذلك ينبغي للإنسان أن يكثر من ذكر الله -عَزَّوَجَلَّ-.

وهنا فيه فائدة: أن الذكر مطردةٌ للشيطان، فلما كان النسيان من الشيطان، لزم أن يذكر الإنسان ربه.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾، النسيان العام.

جاء عن عكرمة أنه قال: «واذكر ربك إذا غضبت»، نسيت يعني: غضبت. وهذا القول يوجه علىٰ أنه قول باللازم؛ كيف باللازم؟ يعني إذا غضب الإنسان فمن لوازم الغضب أن ينسىٰ، «ولذلك يُذكَّرُ، يُقال له أنت قلت كذا وكذا، يقول أنا ما قلت وهو قد قال، فحينئذ مع الغضب يحصل النسيان.

فإذا غضب الإنسان يذكر الله -عَزَّوَجَلَّ- ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وكذلك إذا نسي.

قال: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾﴾، وها هنا سؤال: هل قوله: ﴿وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾﴾ متعلق بما قبله أو لا؟ قولان لأهل العلم:

القول الأول: قالوا في قوله: ﴿وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾﴾ في ﴿هَٰذَا﴾ يشار به إلىٰ قصة أصحاب الكهف، فيصبح الكلام: «عسىٰ أن يعطيني ربي من الآيات والدلالات علىٰ النبوة ما يكون أقرب في الرشدِ، وأدل من قصة أصحاب الكهف»، وقد فعل؛ استجاب الله -عَزَّوَجَلَّ- له ذلك،؛ فأعطاه الله -عَزَّوَجَلَّ- أعظم مما قَصَّه في قِصة أصحاب الكهف، كالإخبار عن أخبار الأمم الماضية من الأنبياء الذين لم تكن قصتهم معلومة، أو من الناس الغابرين ممن لم تكن قصتهم معلومة عند أهل الكتاب فأعطاه الله -عَزَّوَجَلَّ- تفاصيلها، وكذلك ما حباه الله -عَزَّوَجَلَّ- من الإخبار بالأمور المستقبلة، كالإخبار بما سيحصل مستقبلًا من أمارات الساعة ونحو ذلك.

قال -تعالىٰ-: ﴿وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾﴾ للآية تقديران:

التقدير الأول: أي عسىٰ أن يعطيني ربي من الآيات والدلالات التي تدل علىٰ النبوةِ، ما يكون أقرب في الرشدِ وأدل من قصة أصحاب الكهف التي سألتم عنها.

التقدير الثاني: قيل ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، أي إذا نسيت شيئًا، فاذكر ربك وقل عسىٰ أن يهديني ربي لشيءٍ آخر بدل هذا الشيء المنسي، يكون أقرب رشدًا

وأدنىٰ خيرًا ومنفعةً من الشيء المنسي.

في قوله: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾﴾ فوائد:

الفائدة الأولى: وهي اللجوء إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ- والدعاء وطلبُ الرشد؛ فإن الإنسان قد يرىٰ أو يختار لنفسه ما فيه مهلكة له؛ فقد يرىٰ في أول وهْلة أن هذا هو الأنسب له والأفضل، وليس الأمر كذلك، فالأمر أعظم مما يتخيل أو يتصور. ولذلك ينبغي للإنسان أن يسأل الله -عَزَّوَجَلَّ- أن يهديه في أموره إلىٰ الرشد، فإن الله -عَزَّوَجَلَّ- أعلم بما يصلح للعبد.

الفائدة الثانية: وهي اللجوء إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ- وسؤاله والانطراح بين يديه -جَلَّوَعَلَا-، فإنه هو الذي يتولىٰ شؤون عباده، وهو المدبر وهو الكافي وهو الحسيب وهو الكفيل، جل في علاه،. فمهما بلغ ذكاء الإنسان، ومهما بلغ بين أقرانه، ومهما فعل وفعل؛ فإنه لا يزال قاصرًا لا يعلم ما يصلح له، والخيرة فيما اختاره الله -عَزَّوَجَلَّ-. وهذا فيه فوائد كثيرة لو تدونون في ورقة خارجية وأنتم تحفظون وتقرؤون وتتدبرون، فإنه يكثر في قصة أصحاب الكهف، وعمومًا في سورة الكهف، اللجوء إلىٰ الله والرغبة إليه والانطراح بين يديه.

وهذا فيه فائدة، تنبؤنا بالمحور الذي ذكرناه لكم في أول السورة، في أول درس ذكرناه لكم، «قلنا تحفظوا محور السورة وهو الفرار من الفتن» وأن من أقوىٰ الأسباب التي تعين الإنسان علىٰ الفرار من الفتن اللجوء إلىٰ الله والانطراح بين يديه. لذلك، سيتكرر معنا كثيرًا في سورة الكهف الدعاءُ واللجوءُ وطلبُ الخيرة من الله -عَزَّوَجَلَّ- وطلبُ الرشد، وسيأتي.

مر معنا قبله قوله -تعالىٰ-: ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾، وقوله: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.

إنّ العبد لا يدري ماذا يكتب الله -عَزَّوَجَلَّ- ويقدر له، مع أن الشيء المكتوب والمقدَّر هو خير للعبد، سواءٌ علم ما هذا الخير وحصل له وأدركه أو لا، فهو خير له. فما يكتبه الله -عَزَّوَجَلَّ- ويقدِّره علىٰ العبد هو خير له، إن كان خيرًا فهو خير، وإن كان في ظاهره شر فهو خير للعبد، فدائمًا رددوا هذا الدعاء: «قل عسىٰ أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدًا». قل: اللهمَّ اجعل كل قضاء قضيته لي عاقبته رشدًا، قل: ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدًا.

❋ ❋ ❋

الدرس السابع
(٢٥-٢٨)



﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ﴾، أي لبث أصحاب الكهف في كهفهم، وهم علىٰ الحال التي وصف الله -عَزَّوَجَلَّ- من قبل. قوله: ﴿ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ ﴾، أي ثلاثمائةٍ من السنين وازدادوا تسعًا.

في قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾، هذه الآية ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾ تفصيل لما أُجمل قبلُ في قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾، كم السنون التي بقوا فيها في الكهف؟ جاءت هذه الآية تبين عدد السنين.

قال: ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾، أي وازدادوا تسع

سنين. فلماذا لم يذكر بعدُ سنين؟ ما الفائدة من قوله: ﴿وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴿٢٥﴾﴾؟ لماذا لم يقل ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة وتسع سنين؟ لماذا قال ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا؟ قال أهل العلم:

الفائدة من ذلك في قوله: ﴿تِسۡعٗا﴾ بعد قوله: ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ﴾ أن الثلاثمائة هي بحساب السنة الشمسية، والتسع سنوات التي بعد الثلاثمائة تكون بحساب السنة القمرية، فكل مائة سنة شمسية تعادل مائة وثلاث سنوات قمرية، فلذلك كان الحساب في قوله: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ﴾ حسابًا بالسنة الشمسية، و﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴿٢٥﴾﴾، يعني ثلاثمائة وتسع سنين بحساب السنة القمرية.

هل هذه الآية كلام الله -عَزَّوَجَلَّ- في الإخبار عن أصحاب الكهف، أو هو من كلام أهل الكتاب؟

في قوله: ﴿وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾، الصحيح -والله أعلم- أن هذا خبر من الله -عَزَّوَجَلَّ-، يخبر عن مُكث أهل الكهف في كهفهم، وأن قول من قال بأن هذا خبر عن أهل الكتاب غير صحيح، فهذا خبر من الله -عَزَّوَجَلَّ- يخبر عن عدد السنين التي بقوا فيها في الكهف.

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٦﴾﴾

ثم قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾، أي إذا سُئلت عن لُبثهم يا محمد وليس عندك علم في ذلك، وهو توقيف من الله -عَزَّوَجَلَّ-، فقل الله أعلم بما

لبثوا. وهذه فائدة سبق أن مرت معنا قبلُ في عدد أصحاب الكهف.

ما الأمر الذي وجهه الله -عَزَّوَجَلَّ- حين كان الحديث عن عدد أصحاب أهل الكهف؟

الجواب: فيها توجيهان:

التوجيه الأول: قوله: ﴿قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ فيه دليل علىٰ تفويض الأمر لله -عَزَّوَجَلَّ- وعدم الخوض في الأمور التي لا طائل تحتها.

التوجيه الثاني: في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾، هناك أمور لا طائل تحتها، فينبغي للإنسان ألا يناقش ويجادل في هذه الأمور. وهذا توجيه رباني مهم جدًّا في أن الانسان لا يشتغل بشيء لا طائل تحته، ولا مردود يرجع إليه. في قوله: ﴿لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، قيل ﴿لَهُۥ﴾، يعني لله -عَزَّوَجَلَّ- ما غاب في السماوات والأرض. وقيل معنىٰ الجملة، له علم الغيب في السماوات والأرض.

وكلاهما صواب، فله -عَزَّوَجَلَّ- ما غاب في السماوات والأرض، وله غيب السماوات والأرض.

وهنا مسألة، ما فائدة تقديم الخبر ﴿لَهُۥ﴾ في قوله: ﴿لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؟ ما تقدير الجملة؟ سيكون: «غيب السماوات والأرض له»، فلماذا قدم المجرور في قوله: ﴿لَهُۥ﴾؟

الجواب: أن هذا من باب الاختصاص، أي لله وحده فقط لا غير، ﴿لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾.

ثم قال الله -عَزَّوَجَلَّ- بعدها: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ﴾، هذه الجملة من صيغ

التعجب «ما أعجَبَه وأعجِبْ به»، فهنا قال: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾، معنىٰ ذلك أي ما أبصرَ الله -عَزَّوَجَلَّ- وما أسمعَه! والتعجب هنا من كمال سمعه وبصره -عَزَّوَجَلَّ-، فهو الذي يعلم عدد لُبث أصحاب الكهف في كهفهم، وهو -عَزَّوَجَلَّ- عالم بهم سامع لهم ومبصر وعالم بما في السماوات والأرض، فهو تعجب من كمال سمعه وبصره وإحاطته بالمسموعات والمـُبصرات. واستدل بعض العلماء علىٰ جواز إطلاق صيغة الجمع في صفات الله -عَزَّوَجَلَّ-، كقولك: «ما أجلَّ الله! وما أعظمَ الله!» فهذا من باب الجواز.

قال: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم﴾، علىٰ من يعود الضمير؟ هناك قولان:

القول الأول: راجعٌ لأهل السماوات والأرض المشار إليهم في قوله: ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

القول الثاني: راجعٌ للمعاصرين للنبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من الكفار، أي ما لأولئك ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ من دون الله -عَزَّوَجَلَّ-. قوله: ﴿مِن وَلِيٍّ﴾، أي من ولي يلي أمورهم ويدبر شؤونهم ويقوم بمصالحهم.

قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦﴾، تأملوا قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكُ﴾ ولم يقل ولا شريك؛ حتىٰ يتناسب مع ولي.

في قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦﴾ **قراءتان:**

القراءة الأولى: القراءة بالياء مع الرفع، وهي الرواية التي نقرأ بها ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦﴾، فيصبح معنىٰ الآية علىٰ الخبر عن الله -عَزَّوَجَلَّ-، أنه نفىٰ عن أي أحد من خلقه إشراكه في حكمه وقضائه، أي لا يشرك الله -عَزَّوَجَلَّ- في حكمه

أحدًا من خلقه، فليس لأحد من خلقه في حكم الله -عَزَّوَجَلَّ- وقضائه أي شيء. هذا علىٰ قراءة الياء والرفع ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾.

القراءة الثانية: بالتاء مع الجزم ﴿وَلَا تُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾، فيكون الخطاب للنبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- ولغيره من أمته وهم المقصودون أصلًا. فيكون تقدير الكلام: «ولا تُشركْ بالله -عَزَّوَجَلَّ- في حكمه أحدًا، فلا تحكم بين الناس بغير حكم الله -جَلَّوَعَلَا-». قال -تعالىٰ-: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠]. أي لا تشرك مع الله -عَزَّوَجَلَّ- في حكمه بأن تحكم بغير ما أنزل، أيَّ أحدٍ وأيَّ قانونٍ. وكلاهما قراءتان سبعيتان.

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾

مناسبة هذه الآية لما قبلها، أن الله -عَزَّوَجَلَّ- لما أنزل علىٰ نبيه من قصة أهل الكهف ما أوحاه إليه -جَلَّوَعَلَا- من ذكر التفاصيل في عددهم ومدة لبثهم، أمَره أن يقص ويتلو علىٰ معاصريه ما أُوحي إليه من كتابه -عَزَّوَجَلَّ-، فقال: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ﴾. والأمر بقوله: ﴿۞ وَٱتْلُ﴾ كناية عن الاستمرار، وفي قوله: ﴿مَآ أُوحِىَ﴾ يفيد العموم، أي كل ما أوحي إليك فبلغه للناس.

وفي قوله: ﴿إِلَيْكَ﴾، فيه اختصاص وتشريف للنبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- بالوحي، لذلك كان النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان، حين يلقاه جبريل -عَلَيْهِٱلسَّلَامُ-، فالوحي شرف للنبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-.

وفي قوله: ﴿مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ﴾، إضافة الرب إلىٰ الرسول -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-

دليل علىٰ أن ما أوحاه الله -عَزَّوَجَلَّ- إلىٰ رسوله -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- من تمام عنايته به، فلم يقل: اتل ما أوحي إليك من كتاب الله، بل قال: ﴿مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ﴾، وهذا فيه اعتناء بالنبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-. وسبق أن أشرت لكم في دروس ماضية، قلت سيمر معنا الحديث عن القرآن، وهذا تقريبًا الموضع الثالث في الحديث عن القرآن.

في قوله: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ﴾، ما علاقة القرآن بالتثبيت واللجوء من الفتن؟

وهذا هو الدليل الذي يدل علىٰ أن الإنسان مفزعه وملجأه إلىٰ كتاب الله -عَزَّوَجَلَّ-؛ فإن فيه الحكم العدل والخبر الصادق، فلا ينشغل بغير القرآن، ولا يلتفت إلىٰ شيء من القصص وتفاصيلها وغيرها مما لا فائدة فيه، بل لا يتكلم إلا بعلم، ولا يكون ذلك العلم إلا عن طريق الوحي.

فلذلك قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾. ما المراد بالكلمات في قوله: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾؟ **قولان** لأهل العلم:

القول الأول: قيل الكلمات هي الكلمات الشرعية، أي القرآن والأوامر والنواهي. فيكون قوله: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، أي لا يستطيع أحد أن يزيد فيها أو ينقص منها، فهي ثابتة، والله -عَزَّوَجَلَّ- قال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، فلا مبدل لكلماته. هذا علىٰ معنىٰ أن المراد بالكلمات هنا هي الكلمات الشرعية.

القول الثاني: المراد بالكلمات هنا الكلمات الكونية، وهي الأوامر الكونية، القضاء والقدر. ويصبح قوله: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، أي لا خُلف لمواعيده، ولا

مغيِّر لحكمه، فلا رادَّ لقضائه، ولا معقِّب لحكمه -عَزَّوَجَلَّ-. في قوله: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، استدل بعض أهل العلم أنه لا عذر لأحد في التقصير علىٰ أن يبلغ كلام الله -عَزَّوَجَلَّ-، بناءً علىٰ أنها هي الكلمات الشرعية.

فكلام الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت:٤٢]، هذا في معنىٰ قوله لا مبدل لكلماته.

وقد قال النبي -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ-: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»(١). فلا عذر لأحد في التقصير في تبليغ القرآن، قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ١٩]. وقال: ﴿بَلَٰغٞۚ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، أي هذا القرآن بلاغ لكم، علىٰ قول من الأقوال.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴿٢٧﴾﴾، جاءت ملتحدًا بصيغة الافتعال؛ لأن أصله تكلُّف الميل.

وكلمة ﴿مُلۡتَحَدٗا ﴿٢٧﴾﴾ مأخوذة من لحدَ، واللحدُ هو الميل، فكأنه يقول: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ﴾، أي من دون الله -عَزَّوَجَلَّ- ملتحدًا، أي ملجأً تميل إليه وتأوي إليه، والقرآن كذلك لن تجد من دونه مَفْزعًا وملجأً وأنيسًا إليك وهاديًا ومرشدًا دونه.

وهنا الضمير في قوله: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴿٢٧﴾﴾، أي من دون الله -عَزَّوَجَلَّ-. وهنا مناسبة مهمة جدًّا في ختام هذه الآية مع ختام الآية التي قبلها.

موضع المناسبة بين هذه الآية والآية التي قبلها في قوله: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ﴾، وقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴿٢٧﴾﴾ فهي في معنىٰ قوله -جَلَّوَعَلَا-: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ [التوبة: ١١٨]؛ فالله -عَزَّوَجَلَّ- وليُّ المؤمنين

(١) أخرجه البخاري في كِتَاب أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ، في بَابُ مَا ذُكِرَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، (٣٤٦١).

وناصرهم ومؤيدهم ومُظهر نصره لعباده المؤمنين الذين يلجؤون إليه ويفزعون إليه، بخلاف أولئك الكفار الذين تعلقت قلوبهم بغير الله عَزَّوَجَلَّ--.

مصداق ذلك جاء في سورة محمد في قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿١١﴾﴾ [محمد: ١١]، وفي سورة الحج في قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ [الحج: ٣٨]، وفي سورة البقرة في قوله عَزَّوَجَلَّ--: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فإذا علم العبد أنه لن يجد من دون الله ملجأً يأوي إليه ويستمد العون منه ويستنصر به ويستهديه ويلوذ بحماه؛ فإن من وجد الله، فقد وجد كل شيء، ومن فَقَدَ الله، فَقَدْ فَقَدَ كل شيء.

﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾﴾

جاء في صحيح مسلم عَن سَعدٍ بن أبي وقاص -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ -صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا. قَالَ وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ، وَبِلَالٌ، وَرَجُلَانِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا، فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللهِ -صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَا شَاءَ اللهُ أَن يَقَعَ، فَحَدَّثَ نَفْسَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ

﴿وَجْهَهُۥ﴾»(١) [الأنعام: ٥٢]. فأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

ذلك أن من المستقر أن أغلب أتباع الأنبياء هم الضعفاء، وأن أهل السلطان والجاه والمال في الغالب هم المناوئون لدعوة الرسل. ولذلك لما سأل هرقل أبا سفيان قال: أتباعه الضعفاء أم الأغنياء؟ قال: «الضعفاء». قال: فكذلك أتباع الأنبياء.

وتجد أن أهل المال والجاه والسلطان والنفوذ هم أكثر أعداء الرسل، وهم يأنفون من مجالسة الرسول وأتباعه. قال الله -عَزَّوَجَلَّ- عن قوم نوح -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ۝٢٧﴾ [هود: ٢٧]، وقال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]. فغالب أتباع الرسل هم الضعفاء والمساكين؛ لأنه ليس لهم حظ في أمر دنيوي أو نحو ذلك، بل مبتغاهم رضا الله -عَزَّوَجَلَّ- كما سيأتي، بينما أهل النفوذ والسلطان قد يذهب شيء من نفوذهم وسلطانهم وجاههم ونحو ذلك؛ لأن الإسلام دينٌ يُوجب علىٰ أتباعه التواضع وعدم الكبر، والخضوع للحق والانقياد لأوامر الله -عَزَّوَجَلَّ-، وقد يأنف أولئك من أتْبَاع الرسل، فأمر الله -عَزَّوَجَلَّ- نبيه -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بأن يصْبر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي.

وتأملوا سياق الآية في قوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾، جاءه بالأمر بالصبر؛ لأنه كان هناك من ينهىٰ النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عن مجالسة هؤلاء الضعفاء والمساكين؛ فأمره الله -عَزَّوَجَلَّ- بالصبر مع الجلوس مع أولئك القوم الصالحين.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، بَابٌ فِي فَضْلِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ-، (٢٤١٣).

قال: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾، أي جاهد نفسك في أن تكون مع أولئك النفر الصالحين. وتأملوا قوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ﴾، في كلمة ﴿مَعَ﴾، التي تقتضي الصحبة والموافقة والأمر بالصبر، هنا يظهر منه كبيرُ اعتناءٍ بهؤلاء الذين أمر أن يصبر نفسه معهم فلهم شأن، فإن لم يكن لهم ذكرٌ ومكان في الأرض، فأمرهم وشأنهم معروف في السماء، وأصواتهم معروفة في السماء، ومكانتهم محفوظة لهم؛ لقربهم من الله -عَزَّوَجَلَّ- واشتغالهم بما يرضي الله -سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ-.

وهنا **فائدة** مهمة جدًّا: أن الإنسان إنما يُنصر ويُرزق بضعفائه؛ قال النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ-: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ»[(١)]. ومجالسة الضعفاء والمساكين والفقراء الصالحين يورث القلب انكسارًا وخشوعًا وخضوعًا ورقةً، ولذلك شُرع الصيام؛ فمن الحكم التي شُرعت في الصيام، أن يحسّ المسلم الصائم بألم الجوع، فيواسي الفقراء ويتذكر ما هم فيه من ضنك العيش وقلة ذات اليد. وفي قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾، هنا الأمر بالملازمة، أي والزم أولئك.

لكن الفعل ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ ضُمِّن معنىٰ الملازمة وعُلِّقَ بقوله ﴿مَعَ﴾، أي الزمهم واحرص علىٰ مجالستهم. ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾، فهم يدعون يعني يعبدون الله -عَزَّوَجَلَّ-، والدعاء يشمل دعاء المسألة ودعاء الثناء والعبادة.

قال -تعالىٰ-: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾، فيه **فائدة**: فيه دليل علىٰ فضل الاجتماع علىٰ الذكر والدعاء.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، بَابُ مَنِ اسْتَعَانَ بِالضُّعَفَاءِ وَالصَّالِحِينَ فِي الحَرْبِ، (٢٨٩٦).

ذِكر الإخلاص وأهميته في قوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، أي: يبتغون ما عند الله -عَزَّوَجَلَّ-، وأن الإخلاص هو الذي عليه مدار كل شيء، وهو شرط من شروط قبول العمل.

شـــرطُ قُبـــول الســـعي أن يجتمعـــا فيـــه إصـــابةٌ وإخـــلاصٌ معـــــا

للهِ ربِّ العـــــــرشِ لا ســـــــواهُ موافـــقَ الشـــرعِ الـــذي ارتضـــاه

استحباب الذكر والدعاء والعبادة طرفي النهار؛ لأن الله -عَزَّوَجَلَّ- مدحهم بفعلٍ في قوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾، ومدْحه لهم -جَلَّوَعَلَا- علىٰ هذا الفعل، دليل علىٰ شرف هذا الفعل وفضله.

قوله: ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾، يعني بداية اليوم ونهاية اليوم. وهو وقت فاضل، ولذلك كان النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- إذا صلىٰ الفجر مكث في مصلاه حتىٰ تطلع الشمس، وندب إلىٰ الحرص علىٰ صلاة الفجر في ابتداء طرفي النهار، والحرص علىٰ صلاة العصر، قال النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-: «مَنْ صَلَّىٰ الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»(١). والبردان هما صلاتا الفجر والعصر، وهما الصلاتان اللتان تشهدهما الملائكة، فعن أبي هريرة -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ-، أن رسول الله -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- قال: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ، وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ -وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ-: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»(٢). وهذا فيه دليل علىٰ استحباب الذكر والدعاء

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، بَابُ فَضْلِ صَلَاتَيِ الصُّبْحِ وَالْعَصْرِ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِمَا، (٦٣٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، بَابُ فَضْلِ صَلَاتَيِ الصُّبْحِ وَالْعَصْرِ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِمَا، (٦٣٢).

والعبادة في طرفي النهار.

لكن هل يفهم من قوله: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ أنهم يذكرون الله ويدعونه -عَزَّوَجَلَّ- في هذين الوقتين فقط؟

الجواب: لا؛ لأن العرب إذا أرادت الدوام أو أرادت أن تطلق شيئًا علىٰ الدوام أطلقت الليل والنهار.

والغداة والعشي، يعنون أنهم دائمون علىٰ ذلك؛ فإذا أَطلقت قالت: فلان قائم بالليل والنهار تفهم أن هذا ديدنه، وأن هذا شغله الشاغل في استمرار وقته كله، وإن كان يخص هذين الوقتين بمزيد عناية من الذكر والصلاة والدعاء ونحو ذلك.

قال: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾، تأملوا المجيء بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ تشريف لأولئك، وإلا لو قال واصبر نفسك مع الداعين ربهم، لاستقام الأمر وفُهم الكلام؛ لكنّ هذا تشريفٌ لهؤلاء ومدْح لهم علىٰ صنيعهم.

قال: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾، تأملوا مجي الآية بلفظ الرب والإضافة في قوله: ﴿رَبَّهُم﴾، للاعتناء بأولئك، وأن هذه تربية خاصة تتضمن الحفظ والكلاءة والتأييد والنصرة وإن كانوا ضعفاءَ، وفيه تشريف لهم حيث أضافهم إليه.

قال: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ﴾، أي لا تصرف عينيك عنهم. وهذا فيه أمر بصحبة الصالحين، فإن صحبة الصالحين شرف، وأقل شيء أن تحصل بالصالحين الشفاعة، فيشفعون لأصحابهم، فيشفع الأنبياء يوم القيامة، ويشفع الملائكة، ويشفع الصالحون.

ولذلك يقول الشافعي:

أحــبُّ الصــالحينَ ولســتُ مــنهمْ لعلِّــي أن أنــالَ بهــمْ شــفاعة

قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ﴾، فيه فائدة:

مجاهدة النفس علىٰ صحبة الصالحين ومخالطتهم وإن كانوا فقراء؛ لأن الإنسان قد يأنف من مجالسة الفقراء والضعفاء، فليس له حظ ونصيب من الدنيا في مجالستهم، لا يبتغي منهم نفعًا ولا يرجو منهم دفعَ ضر؛ لأنهم لا يملكون لأنفسهم شيئًا أصلًا، وليس عندهم شيء من حطام الدنيا الفاتنة الذي يمكن أن يطمع الإنسان فيه، فأمره بالمجاهدة والصبر.

قوله: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾، هذه الجملة تدل علىٰ أن مجالسة أولئك تحتاج إلىٰ مجاهدة، وإلا لو قال: واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، لاستقام الأمر وفُهم الكلام.

قال: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ ونهىٰ العينين وخصهما بالذات أن تعْدُوَا عن الذين يدعون ربهم.

المقصود: الإعراض، أي لا تعرض عنهم، ولذلك ضُمِّن فعلُ العدوِ معنىٰ الإعراض، فَعُدِّي إلىٰ المفعول «بعن» ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾، أي عن أولئك.

في قوله: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، فيه تعريض بحماقة سادة المشركين الذين كان همهم ومصب اهتمامهم، هو الاعتناء بالأمور الظاهرة في حطام الدنيا دون الاعتبار بالحقائق، فلم ينظروا إلىٰ إيمان أولئك وقصدهم إخلاص العبادة لله -عَزَّوَجَلَّ- وملازمتهم الذكر والدعاء. لم ينظروا إلىٰ شيء من ذلك، بل كان همهم

ونظرهم منصبًا علىٰ زينة الحياة الدنيا، أي الشيء الفاني.

وهذا أمر قد أمر الله -عَزَّوَجَلَّ- به نبيه في سورة طه، قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه:١٣١].

وهذه **فائدة**، وهي أن الإنسان عليه ألا يهتم بالمظاهر ولا يبحث عن زينة الحياة الدنيا، بل يهتم بصلاح قلبه أولىٰ، وإخلاصه لله -عَزَّوَجَلَّ- وانشغاله بما يرضي الله -سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ-.

ثم قال الله -عَزَّوَجَلَّ- بعد ذلك: ﴿وَلَا تُطِعْ﴾، وتأملوا الأوامر والنواهي في هذه الآية كثيرًا: «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ»، «وَلَا تَعْدُ»، «وَلَا تُطِعْ»، فيها أمر شديد جدًّا.

قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا﴾، أي جعلناه غافلًا. وأعظم داء يُصاب به الإنسان الغفلة، فهي الداء العضال. فلا ينتبه إلىٰ حاله، ولا يتفقّد قلبه، ولا ينظر إلىٰ إيمانه؛ فيظن أنه يُحسن صنعًا وهو ليس كذلك، ولذلك أمر الله -عَزَّوَجَلَّ- النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- بأن يُكثر من ذكره حتىٰ لا يكون من الغافلين.

قال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٥]؛ لأن داء الغفلة مصيبةٌ كبيرةٌ جدًّا.

قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾، فيها **أقوال**:

القول الأول: أغفلنا، معناه جعلناه غافلًا.

القول الثاني: من أغفلنا، أي من تركناه غُفلًا أي فارغًا، فهو فارغٌ ليس له هم من شيء يهمه من أمر الآخرة؛ بل هو ساعٍ وباحثٌ عن متاع الدنيا وزينتها. وهكذا «القلب» هو وِعاءٌ، فإما أن يُملأ بالإيمان والتُّقىٰ والعبادة، وإما أن يكون فارغًا ليس له من ذلك شيء.

ثم قال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾، قوله: ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ فيه أقوال:

القول الأول: يحتمل المراد بالذكر هنا القرآن، أي من أغفلنا قلبه عن القرآن الذي أُمر النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن يتلوه في الآيات التي قبلُ ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾.

القول الثاني: ﴿ذِكْرِنَا﴾ يشمل العموم، فيدخل فيه الإسلام برمّته والقرآن ونحو ذلك.

قال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾، وهذا فيه فائدة: أن ذكر الله -عَزَّوَجَلَّ- مطردَة للغفلة. فليكن لك أيها المسلم نصيبٌ من الذكر، ووقتٌ تجلس فيه تذكر الله -جَلَّ وَعَلَا-.

قال: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، أي الذي يكون غافلًا، فإنما يتبع هواه؛ فلو اتبع الحق لما كان غافلًا.

قوله: ﴿فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾، فيها قولان:

القول الأول: من التفريط وهو التقصير، أي كان مقصرًا في أمره مضيعًا لأوامر الله -عَزَّوَجَلَّ-.

القول الثاني: من الإفراط الذي هو مجاوزة الحد، وكلاهما محتمل وصحيح.

قال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾، هذا فيه تنفير من الغفلة، وإلا لو قال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ لاتضحت الصورة؛ لكن قال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾، فالغافل أمره في وبال وضياع وتشتت، نسأل الله السلامة والعافية.

* * *

الدرس الثامن

(٢٩-٣١)



﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾

قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَقُلِ﴾ قيل: الخطاب موجه للذين أغْفَل الله قلوبهم عن ذكره واتبعوا أهواءهم في قوله: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾

قوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ﴾، فيها **قولان:**

القول الأول: أي فقل يا محمد لأولئك.

القول الثاني: أن يكون الخطاب للجميع، أي قل يا محمد لجميع الناس الحق من ربكم.

قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾، قيل هذا للتذكير بوجوب التوحيد، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن﴾، هذه الصيغة صيغة تهديد ووعيد وليست بصيغة تخيير، لا يُفهم من ذلك التخيير، ومن يستدل به علىٰ أنَّ هذا للتخيير فقد أخطأ ووقع في الزلل والخطأ. والدليل علىٰ أنها صيغة تهديد الكلام الذي سيأتي بعد. ليس الإنسان حُرًا في أنَّه يختار أن يؤمن أو يكفر، لا، بل هو مُطالَب بالإيمان بالله -عَزَّوَجَلَّ-. فقوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، فيه دليل علىٰ أنَّ الله -عَزَّوَجَلَّ- لا تنفعه طاعةُ الطائعين ولا تضُره معصيةُ العاصين، وليس فيها إباحة الكفر؛ بل إنَّ الدِّينَ عند الله الإسلام.

وقال النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-، كما في الصحيح من حديث أبي هريرة -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ-: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»[(١)].

والدليل علىٰ أنها صيغة تهديد قوله: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ﴾؛ لأنَّه لو كان للتخيير، فلماذا يُعِدّ النار لهم؟!

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ﴾.

وقد أطلت في هذه المسألة؛ لأن كثيرًا من الناس يظن أنَّها صيغة تخيير،

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب إيمان أهل الكتاب برسالة الإسلام، (١٥٣).

ويستدل بها من يرىٰ تعدد الأديان، ويرىٰ ألا بأس أن يختار دينه، «يريد أن يكون نصرانيًا، يريد أن يكون يهوديًا، يريد أن يكون بوذيًا» مستدلًا بهذه الآية؛ وهذه الآية ليست بدليل له، فهذا من أسباب الجهل بلغة العرب في استخدام مثل هذه الأشياء.

ومثال علىٰ ذلك قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾، [فصلت: ٤٠].

هل في ذلك دليل علىٰ أنَّ الإنسان يعمل ما يشاء، يرتكب الكبائر، يقع في الكفر، يفعل الفواحش؟

الجواب: لا، هذه صيغة من صيغ التهديد، وهذا أسلوب من أساليب العرب.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا ﴾، قوله: ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾، أي أعددنا وهيأنا وأرصدنا للظالمين نارًا أحاط بهم سُرادقُها، وفيه وعيد شديد وتأكيد للتهديد. ولذلك وصفهم الله -عَزَّوَجَلَّ- بالظلم. والظلم: وضع الشيء في غير موضعه؛ فالذي يتخذ غير الإسلام دينًا هو من الظالمين، ولذلك قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا ﴾، ولكن لماذا نكّرَ النار؟

قال أهل العلم: للتهويل والتعظيم، أيْ نارًا عظيمةً شديدةً ﴿أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ ﴾، السُّرَادِق المراد به السور؛ وفيه أنَّ النار تُحدِق بهم مِن كل جانب.

في قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الزمر: ١٦]. وهذه النار لا مخرج لهم منها، وهي عليهم مؤصدة، قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ﴿٩﴾ ﴾ [الهمزة: ٨-٩].

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ﴾، الإغاثة لا تكون

بالشيء الضَار؛ بل الإغاثة تكون بالشيء النافع. فلماذا قال: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ﴾؟ قال أهل العلم: هذا فيه تهكُّم؛ لأنَّ الإغاثة هي الإنقاذ من العذاب لا زيادة العذاب.

قوله: ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾، اختلف العلماء -رحمهم الله- في ذِكر أوصاف المـُهل؛ لكن المـُهل يجمع الأوصاف الرذيلة، فهو «أسود، مُنتِن، غليظ، حارّ، قد أُوقِد عليه حتىٰ بلغ غاية حرِّه».

وهو كل مائع، سواء من «رصاص، أو من ذهب، أو من فضة». لكن اجتمعت فيه الأوصاف كَدُرْدِيِّ الزيت.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد: ١٥]، وقال -عَزَّوَجَلَّ- في سورة إبراهيم -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ [إبراهيم: ١٦]، في ذكر العذاب الذي سيأتيهم.

قال -تعالىٰ-: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾، فإذا أقبلوا علىٰ هذه النار سقطت فروة وجوههم قبل أن يدخلوها -والعياذ بالله-. وقيل إنهم إذا شربوا هذا الماء تسقُط فرّوة وجوههم من شدة حرارته -والعياذ بالله-.

لماذا ذكر الوجه؟ مع أنَّ الماء في العادة هو الذي يقَطِّع الأمعاء في الشرب، فما علاقة الوجه؟

قال أهل العلم:

لأنَّه أقرب شيء إلىٰ الفم، وإذا أراد أن يشرب الماء قبل أن يُباشر الفم تأتي حرارته علىٰ الوجه؛ فإذا كان يشوي الوجوه، فكيف بالفم والجوف الذي

يُباشر الشرُب؟!

وهذا فيه أيضًا تنكيل بهم؛ لأنَّ أشرف شيء في الإنسان هو وجهه.

ولذلك نهىٰ النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عن الضرب علىٰ الوجه حتىٰ في البهائم تكرُمةً؛ لأنَّ هذا من كرامة المخلوق.

وهذا من أشد العذاب -والعياذ بالله-.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠﴾ [الأعراف: ٥٠].

قال -جلَّ ذكره-: ﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ﴾، أي بئس ذلك الشراب الذي وصفنا لك في كونه كالمـُهل.

قوله: ﴿وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ٢٩﴾، قيل فيها عدة أقوال:

قيل إنَّ قوله: ﴿وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ٢٩﴾ تعود علىٰ النار وبئس المـُستقر والمـُقام، كما قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: عن جهنم ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٦٦﴾ [الفرقان: ٦٦]. وفيه نوع من التهكُّم أصلًا في الآية؛ لأنَّ النار ليس فيها رفقٌ، (ارتفاق)، ليس من الرُّفقاء، بل من الارتفاق يعني الرفق؛ وأنَّ الإنسان يكون فيها تتيسر أموره وتسهل أموره وتسير من الرِفق.

الرِّفق: هو الاتكاء والاعتماد، ولذلك سُمي المِرفق مِرفقًا؛ لأنَّك تستقر عليه وتتكئ عليه وتعتمد عليه.

فهؤلاء -والعياذ بالله- ليس لهم في هذه النار راحة، وهذا نوع من أنواع التهكُّم بهم.

فقال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ۝٢٩﴾، لـمَّا ذَكَر حال أهل النار، والعياذ بالله، تكلم أول ما تكلم عن فريق الكافرين، لقوله: ﴿فَلْيَكْفُرْ﴾، وهذا يسميّه أهل العلم اللفّ والنشّر غير المرتّب؛ لأنَّه قال: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، كانَ التقدير أن يأتي بجزاء المؤمنين ثم يأتي بجزاء الكافرين، لكن جاء بجزاء الكافرين ثم جاء بجزاء المؤمنين، وهذا من صفات القرآن أنَّه من «المثاني»، وقدَّم ذكر الكافرين؛ لأنَّ سياق الحديث عن الكافرين في قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨﴾.

وفي قوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، بعد وضوح الإيمان لهم فالعقاب سيأتي، لأنَّه أُقيمت عليهم الحجة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾

في قوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾، لماذا جئ بالاسم الظاهر "أحسن" مكان الإضمار؟

كان تقدير الكلام: «إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنّا لا نُضيع أجرهم لأنَّهم عملوا الصالحات أصلًا فهم أحسنوا العمل».

قال بعض أهل العلم:

جيء بالاسم الظاهر "أحسن" ليدل أنَّهم استحقوا ذلك الوصف بالإحسان فهم محسنون، ولذلك كـــــــان من أعلىٰ مقامات العبودية الإحسان.

والإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. والله -عَزَّوَجَلَّ- قال: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة: ١٩٥].

تأملوا قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾، يعني هؤلاء الفقراء المساكين الذين استنكف الكافرون عن مجالستهم وعن الجلوس معهم، هؤلاء لا يُضيع الله أجرهم. وهذا يُذكرنا بآية في سورة هود في قوله -عَزَّوَجَلَّ- في قصة نوح -عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ- لمَّا استنكف الأشراف عن مجالسة الضعفاء، قالوا ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ٢٧﴾، إلىٰ أن قال -عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ-: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١﴾ [هود: ٢٧-٣١]. وفي آية الشعراء: ﴿قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٢ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ١١٣ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٤﴾ [الشعراء: ١١٢-١١٤].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ
فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ
مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ٣١﴾

المجيء هنا باسم الإشارة الدّال علىٰ البعيد في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ فيه **فائدة**، وهي علوُّ منزلتهم ورفعتهم واستحقاقهم الأوصاف المذكورة قبل، وهي آمنوا وعملوا الصالحات؛ فهم وإن كان يراهم الكافرون فقراء وضعفاء، لكنهم عند الله -عَزَّوَجَلَّ- لهم شأن عظيم ومنزلة عليّةٌ. قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ﴾، جيء «باللام» التي تدل علىٰ

الاستحقاق. ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾، ذكر الله -عَزَّوَجَلَّ- صفة مقامهم جنات، في مقابل ماذا؟

في مقابل النار التي وصفها في قوله: ﴿وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ٢٩﴾، وسيأتي الحديث بعدها. ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾. قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ﴾، ثم بدأ بذكر المكان، المقام، ثم سيأتي بعد ذلك ذكر اللباس، ثم سيأتي بعد ذلك كيفية الجلوس. فهو سيذكر ما ذكره في النار، ذكر المكان وذكر الشراب، وسيأتي بذكر الجلوس بعد، وسنُبين ذلك.

قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾، ومعنىٰ عدن أي إقامة. قوله: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ﴾، أضاف الضمير لهم دون الجنات، لم يقل -جَلَّوَعَلَا-: «أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار». فلماذا لم يقل تجري من تحتها الأنهار؟ قال أهل العلم: في قوله: ﴿مِن تَحۡتِهِمُ﴾ أضاف الضمير لهم دون الجنات؛ زيادة في تقرير المعنىٰ الذي أفادته لام الملك في قوله: ﴿لَهُمۡ﴾ «لام الاستحقاق» التي ذكرناها، فكأنَّ هذه لهم ومُلكهم وهم خالدون فيها لا يخرجون عنه ولا يبغون عنها حِولًا.

قوله: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾، هل الحلية من أساور من ذهب خاصة بالنساء دون الرجال أو الحلية تشمل الرجال والنساء؟ قال أهل العلم:

فيه دليلٌ علىٰ أنَّ الحلية في الجنة عامة للذكور والإناث، سواء من ذهب أو من فضة وكذلك الحرير.

لماذا جيء بالفعل الذي لم يُسمَّ فاعله؟ لماذا قال يُحَلَون ولم يقل يُحَليهم الله مثلًا؟

قالوا: هنا إيثار بأنَّهم يُكرَمون ولا يُتَعَاطَون ذلك بأنفسهم، يعني من زيادة

النعيم أنهم يُحلَّون، يُلبِسونهم الحلية، وليس هم الذين يباشرونها؛ وهذا من باب الكرامة وزيادة التكريم لهم.

ولذلك في الدنيا الآن، نأخذ مثلًا، الأفضل في حق المرأة المُنعّمة أنَّ وصيفاتها هن اللاتي يُحَلّينها، هن اللاتي يُلبسنها الذهب ونحو ذلك، هي التي تُخدَم.

فهذا من باب تكرمة الله -عَزَّوَجَلَّ- لأولئك أنَّهم يُحلُّون، يعني لا يُتعاطون ذلك بأنفسهم، هم يُكرمون.

لماذا قال هنا يُحَلَّون من أساور من ذهب وفي اللبس قال ويلبسون ولم يقل ويُلْبَسُون؟

من باب الستر والحياء والعورة، فقال: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا﴾؛ لأنَّ الإنسان هو الذي يُباشر اللبس بنفسه.

ويبقىٰ سؤال هنا: لماذا قدم الحلية علىٰ اللباس؟ المفترض في العقل أنَّ الإنسان أولًا يلبس، ثم بعد ذلك يتحلىٰ، يلبس الحلية لا العكس. قال أهل العلم:

لأنَّ الحلية في النفس أعظم وإلىٰ القلب أحب، وأيضًا هي في القيمة أغلىٰ، وفي العين أحلىٰ؛ لذلك قُدِّمت. قدَّم الحلي علىٰ اللباس؛ لأنَّه صفة للجنات. واللّباس أشدُّ اتصالًا بأصحاب الجنة لا بمظاهرها.

فاللباس اتصالٌ بالإنسان أقرب من اتصاف الجنة باللباس، واتصاف الجنة بالحلية أولىٰ. لذلك قال: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا﴾.

قال: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ﴾، هل ﴿مِنۡ﴾ للتبعيض أم لا؟ هل يلبسون بعض أساور أم لا؟

قولان لأهل العلم:

القول الأول: قالوا للتبعيض، أي بعضهم يلبس بعض الأساور ذهبًا وبعض الأساور فضة... إلخ.

القول الثاني: ﴿مِنْ﴾ للبيان، أي بيان ما يُحلَّون به وهو الأساور.

ثم قال: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾، لماذا لم يقل أساور ذهب مثلًا؟ قال أهل العلم:

﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ هي بيانية. والأساور جمع أَسْوِرَة الذي هو جمع سِوار، فصيغة جمع الجمع أساور. ما جمع سوار؟ الجواب: أَسْوِرَة.

فجاء بصيغة جمع الجمع للإشارة إلىٰ اختلاف أشكالها، الذهب في أشكال، الفضة في أشكال... إلخ. هذا من باب الكرامة لهم. وأيضًا لماذا قال أساور من ذهب؟

الإبهام هنا لأنها تكون في غاية الحسن؛ فلا تسأل عن تلك الأساور! في ألوانها وأشكالها وهيأتها! وهذا أعدّه الله -عَزَّوَجَلَّ- كرامة لأولئك المؤمنين. فنسأل الله -عَزَّوَجَلَّ- الفردوس الأعلىٰ من الجنة.

قال -سُبْحَانَهُوَتَعَالَى-: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ فقط، أم يوجد أساور أخرىٰ غير الذهب؟ ولماذا لم يذكرها هنا؟ قال أهل العلم:

هذا يُسموه عند البلاغيين من باب الاكتفاء، ومعنىٰ الاكتفاء، أي فيه إشارة إلىٰ غيره، وأنهم يُحلون من أساور من ذهب وفضة. جاء في سورة الإنسان عكس هذا، قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١﴾ [الإنسان: ٢١]، ذُكر في

مواطن أخرىٰ تحليتهم بالأساور من فضة، فهم يُحلون بالأساور من ذهب، ومن فضة. نسأل الله من فضله.

قال -سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ-: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾، لماذا خصَّ اللون الأخضر؟

خصَّ اللون الأخضر؛ لأنَّه أحسن الألوان وأعدلها وأنفعها للبصر، وأشدّ ما يكون راحة للعين هو اللون الأخضر، وهذا يدل علىٰ شدّة النعيم.

قال: ﴿مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾، الحرير نوعان: السُندس هو رقيق الحرير، والإستبرق هو غليظ الحرير، حتىٰ في اللباس يُنَعّمون، وهذا غاية النعيم الذي يحصل لهم.

قال: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾، ما المراد بالاتكاء هنا؟

قيل الاتكاء الاضطجاع، كما يتكئ الإنسان علىٰ الأريكة، وقيل الاتكاء هنا التربّع وهو الجلوس، يعني أن تجلس متربّعًا في جلستك. وهو أشبه هنا بالمراد.

لماذا جاء التعبير بالاتكاء مع أنَّه هيئة من هيئات الجلوس؟

قال أهل العلم: فيه دليل علىٰ راحة النفس وعلىٰ الطمأنينة؛ لأنَّ الإنسان القلق لا يجلس متربّعًا ولا يجلس متكئًا، تجده قلقًا حتىٰ في جلسته، لكنْ جلسة هؤلاء دليل علىٰ أنهم في شدَة الراحة.

انظروا إلىٰ تدرُّج النعيم: اللباس قبله الحلية، والأنهار قبل ذلك، واللباس ثم الاتكاء، وهذا من كمال النعيم، وهو دليل علىٰ تمكُن أولئك في النعيم.

قال: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾، الأرائك: جمع أريكة، وقيل أصلها من أرك، أي الإقامة. وسُميت بذلك؛ لأنها مكان للإقامة. وقيل بل هي مُتخذة من الآراك وهو الشجر المعروف.

وقالوا: المراد بها السُّرر التي فيها الحجال، يعني لها قُبة، سرير وله قُبة، وهذه القبة تُزيَّن بالثياب والستور ونحو ذلك، وهذا معروف ويصنعونه للعرائس، وهو من باب النعيم. وتكون هذه السُّرر مغطاة بقبة من أقمشة وثياب فاخرة، فهؤلاء من شدّة نعيمهم مُتكئون علىٰ الأرائك.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ﴾، وهذا مقابل الآية التي قبلها وهي قوله: ﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ﴾.

قال هنا: ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ﴾، أي هذا الثواب الذي أعطاهم الله -عَزَّوَجَلَّ- إياه هو نِعْم الثواب.

ثم قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾، أي هذه الجنات التي أعدها الله -عَزَّوَجَلَّ- لهم حسُنت مُرتفقًا، وهي في مُقابل ﴿وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٤]. فإذا دخل أهلها قالوا: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٣٤-٣٥].

فلا تعب في الجنة، كل الهموم والأتعاب والأحزان تنتهي عند أولِ قدمٍ تضعها في الجنة.

فهذه فيها رسالة إلىٰ كل مهمومٍ ومغموم وكل إنسان مُبتلىٰ، وكل إنسان قد أصابه من الكرب ومن الشِّدة: «إنها سحابة صيف عن قليل تقَشَّعُ»[1]. ما هي إلا أيام

(١) تضرب العرب بهذا المثل علىٰ الأمور التي يرجىٰ زوالها؛ أو لا تلبث قليلًا حتىٰ تنقشع وتذهب لأواؤها.

قلائل وتمر هذه الدنيا؛ فإذا وضع الإنسان قدمه في الجنة زال عنه كل شيء. ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [فاطر: ٧٤]. وعندها ينسىٰ الإنسان كل بؤس مرَّ به في هذه الدنيا، فالراحة أمامكم، والنعيم والسعادة أمامكم، ولكن لا يمكن أن تدركوا نعيم الآخرة إلَّا بترك النعيم في هذه الدنيا. لتجتهدوا في الأعمال الصالحة وتُقبِلوا علىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ-، وتُنيبوا إليه وتُروا الله من أنفسكم خيرًا، وتُقبِلوا علىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ- بالإيمان والعمل الصالح؛ حينها ينعَم الإنسان عندما يدخل الجنة فينسىٰ كل بؤس مرَّ به.

جاء في الحديث: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ-، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-: «يُؤْتَىٰ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ. وَيُؤْتَىٰ بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً [(١)] فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ» [(٢)].

فنسأل الله -سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ- أن يجعلنا وإياكم من أهل الجنة، وأن يغفر لنا ولكم ولوالدينا ولجميع المسلمين.

* * *

(١) أي: فيُغمسُ غمسةً.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، بَابُ صَبْغِ أَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا فِي النَّارِ وَصَبْغِ أَشَدِّهِمْ بُؤْسًا فِي الْجَنَّةِ، (٢٨٠٧).



الدرس التاسع
(٣٢-٣٨)

﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ
وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾

ما مناسبة هذه الآية لما قبلها؟ ذكر أهل العلم **مناسبتين:**

المناسبة الأولى: تتعلق بالآيات التي قبلُ، حينما قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ﴾، ثمّ قال بعدها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾، لما ذكر الله -عَزَّوَجَلَّ- هذين الفريقين، ضرب مثلًا للفريق الأول ومثلًا للفريق الثاني.

المناسبة الثانية: لما قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾، ذلك أن النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- طلب منه أشرافُ القوم أن يعتزِل ضعفاءهم وأن يخلو بهم في مجلس خاص لا يجلس معهم فيه الضعفاء، فضرب الله -عَزَّوَجَلَّ- لهؤلاء مثلًا بهذين الرجلين، رجل آتاه الله -عَزَّوَجَلَّ- مالًا فكفر بنعمة الله -عَزَّوَجَلَّ-. فكأن الآيات تشير إلىٰ أن المال ليس هو المعيار الذي يُحكم من أجله علىٰ الرجل بأنه خَيِّر أو شرير، بل يحكم علىٰ الرجل بِأنه خَيِّر أو شرير، بأعماله التي يعملها، فإن كانت خيرًا فخير، وإن كانت شرًا فشر. هذا ملخص ما قيل في مناسبة هذه الآية لما قبلها.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ ۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيۡنِ﴾، اختلف العلماء -رحمهم الله- في الرجلين، هل هما مقدران أم محققان؟ يعني هل هذا المثل لرجلين اثنين فعلًا، أو هو مثل من باب ضرب المثل.

كأن تقول مثلًا: نضرب لكم مثالًا في شخصين فَعَلَا كذا وكذا، وليس ثمة شخصان.

خلاف بين المفسرين؛ فيرىٰ بعض المفسرين أنهما مثلان مقدَّران، ويرىٰ مفسرون آخرون أنهما مثلان محققان.

ثم اختلفوا في هذين الرجلين، من هما؟ علىٰ **أقوال** عدة:

منها أنهما كانا ابني ملك من بني إسرائيل ورثا عن أبيهما الجنتين، فكان الصالح ينفقهما في الطاعة، وكان الكافر يحتفظ بهما، فاحتاج إليه الصالح، فحصلت المحاورة بينهما. وقيل غير ذلك.

وهذه قاعدة مهمة جدًّا في السورة، وتشمل كذلك ما يمكن أن يقال في

القصص القرآني، أن الاهتمام بذكر التفاصيل في شيء لا فائدة فيه ينبغي للإنسان أن يضرِب عن ذلك صَفْحًا، وأن يترك الاهتمام بالتفاصيل التي لا تعود عليه بالعظة والعبرة.

يعني، ليس المهم الآن أن نعرِف هذين الرجلين، وأين كانت الجنتان وتفاصيل الجنتين، ونحو ذلك. ومما ألهمه الله -عَزَّوَجَلَّ- لنا أن العظة والعبرة فيما يحصل في القصة من النفع والاتعاظ، وليس المقصود التفاصيل.

قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ ۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا ﴾، أيُّ الرجلين سيكون الحديث عنه؟ هل الرجل الكافر أو الرجل الصالح؟ سياق الآيات يدل علىٰ أن في قوله: ﴿لِأَحَدِهِمَا﴾ للرجل الكافر.

قال: ﴿جَنَّتَيۡنِ﴾، المقصود بالجنتين هما بستانان.

سميت الجنة جنة؛ لأنها تَجِنُّ ماوراءها، يعني تستر كل شيء.

لأن تصاريف الفعل جَنَنَ «جَنَّ» يدل علىٰ التغطية، فتقول الجنة يعني: تستر ما وراءها، فمن كثرة التفاف أشجارها مع بعضها بعضًا فإنها تستر ما فيها.

ومنه كذلك سمي الجِنُّ جِنًّا؛ لأنهم لا يُرَون أصلًا. ومنه كذلك سمي الجنين جنينًا؛ لأنه في بطن أمه لا يُرىٰ.

وكذلك المجنون سمي مجنونًا؛ لأن عقله قد غُطِّي. فحينئذٍ سُمِّيَ هذان البستانان بالجنة لكثرة أشجارهما والتفاف بعضها علىٰ بعض.

قال: ﴿مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ﴾، أي هذه الجنان فيها من الثمرات العنب. وذكر أهل العلم أن للعنب والنخل **فوائد**، وهو من أفضل الفواكه. وكانت العرب تعد هذين الثمرتين من أفضل

الثمار، ولذلك دائمًا تجدون في الحديث عن الجنة ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخۡلٌ وَرُمَّانٌ ۝٦٨﴾ [الرحمن: ٦٨]. قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ [الأنعام:٩٩] إلىٰ آخر الآيات، فهذه من أفضل الثّمارِ.

قال: ﴿وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ﴾، الحفُّ معناه إِحاطة شيء بشيء، أي حففنا هذين البستانين بِنخلٍ.

يعني: أحطناهما بنخلٍ. قال: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ۝٣٢﴾، أي جعلنا بين الجنتين زرعًا.

ما الفائدة من مجيء قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ۝٣٢﴾ بعد أن قال: ﴿۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ﴾؟ أي جعلنا بين البستانين أو بين الجنتين زرعًا. لماذا؟

لأن هذه الجنان عامرة ليست مهجورة، وليس بين الجنتين فراغ أو فضاء، لا، بل هذا يدل علىٰ أن فيهما من الثمار الشيء الكثير.

﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ۝٣٣﴾

قال: ﴿ءَاتَتۡ أُكُلَهَا﴾، أي أعطت. والمعنىٰ أنها أثمرت إثمارًا كثيرًا، ومن شدة إثمارِها الكثير أشْبهتْ المـُعطي.

في قوله: ﴿ءَاتَتۡ﴾، لماذا لم يقل الله -عَزَّوَجَلَّ-: «تلك الجنتين آتتا أُكلها»؟ يحتمل أن يعود إلىٰ لفظ ﴿ٱلۡجَنَّتَيۡنِ﴾ ويحتمل أن يعود إلىٰ المعنىٰ فـــــ ﴿ءَاتَتۡ﴾ جاءت لمراعاة اللفظ المفرد.

في قوله: ﴿أُكُلَهَا﴾، أي ثمرها وما يؤكل منها. فلماذا سُمِّي الثمر أُكلًا؟ لماذا لم يقل كلتا الجنتين آتت ثمارها؟ الجواب: سمي الثمر هنا أُكُلًا لأنه يُؤكَل. قال: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾، أي لم تنقص منه شيئًا، يعني: هاتان الجنتان تعطيان ثمارًا كثيرة. لكن يبقىٰ سؤال مهم جدًّا، لماذا جاء بالفعل تظلم ولم يقل تنقص منه شيئًا؟ أو جاء بغير فعل الظلم أو غير مفردة الظلم؟

الجواب: لأنّه سيأتي الآن هذا الرجل الظالم لنفسه ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾، فكأنّ فيه إشارةً الىٰ أن الله -عَزَّوَجَلَّ- قد أنعم عليه وأغدق عليه حتىٰ أن جنتيه قد فاضت بالخيرات والثمار، لكنّ هذا الرجل قد ظلم نفسه وقابل الكمال بالظلم.

كأنّ فيه تقديمًا وتأخيرًا في الآية؛ المعلوم أن الماء هو الذي يسقي الثمار وليس الثمار التي تخرج قبل الماء، لكن هنا فائدة: وهي أن هذه فيها كثيرٌ من الرِّيْ وأنها دليل علىٰ البركة.

ويبقىٰ السؤال: هو نهر واحد، فلماذا جاء التعبير بقوله فجّرْنا؟ الجواب: لتدل علىٰ كثرة الماءِ الموجودِ وامتِداد هذا النّهر، فقال: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾.

قوله:

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ قوله: ﴿ثَمَرٌ﴾، فيها **ثلاث قراءات:**

القِراءة الأولى: هي التي نَقْرأ بها برواية حفص عن عاصم ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾، فيصبح ثَمَر جمع ثَمرة. كما يقال بَقَر جمْع بَقَرة، فالثَّمَرُ هنا علىٰ القِراءة ثَمَر،

بمعنىٰ جمع ثمرة.

القِراءة الثانية: ثُــمْـر بِضَمّ الثاء وإسكان الميم ثُــمْـر، هذا أيضًا جمع ثَمَـرة.

القِراءة الثالثة: والتي فيها خلاف، هي ضَمُّ الثاء والميمِ ثُــمُر ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثُمُرٌ﴾. فما معنىٰ ثُــمُر؟

قيل: معناه جمع ثمار، وقيل لا، ثُمُر معناه الأموال. ولذلك قال بعض العلماءِ: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثُمُرٌ﴾، أي أَموال، وهذا مناسب. لماذا؟ لأنّ الأموال تثمر، يثمرها الإنسان وتنمو ويراها؛ لأن سياق الآية يدل عليه ذلِك، لِقولِه: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا﴾.

وأيضًا سبق أن ذكر الله -عَزَّوَجَلَّ- أن كلتا الجنتين آتت أكلها، يعني ثمارها. وهذا علىٰ وجه من يقول القراءة التي تقول «ثُــمُر» الأموال.

وعندنا قاعدة فيما يتعلق بالقراءات، أن يقال القراءتان كالآيتين، يعني كل قراءةٍ بمنزِلة آية، فلها معنًىٰ ولها تفسير، وهكذا.

قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ﴾، لماذا جاء بلفظ لصاحبه؟ ليس للتودُّد، إنما الصاحب معناه المقارن والملازم والمخاصم. فلذلك قال: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ﴾، يعني المقارن له والملازِم له.

وهذا مستخدم في كلام العرب، فنقول مثلًا: صاحبك قال كذا وكذا... وهو في الأصل ليس صاحِبَك، لكنْ لمّا كان الحديث مَعك أو المشكلة كانت معه أو نحو ذلك، فهذا يطلق عليه لفظ الصاحب. ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾، أي حال كونه يحاوره جاءت المحاورة.

وفي لفظ ﴿يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ **فائدة**، وهي أن الرجل الكافر أخذ بيد الرجل المؤمن وأدخله جنته وهو يتكلم معه، يمشيان ويتكلم معه ويبدأ النقاش بينهما. قال: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا﴾.

في قوله: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ﴾، يقول أهل العلم:

لا بد أن تنفر من ثلاثة أشياء التي تدل علىٰ العُجْب والغرور. ما هي؟ أنا، عِندي، لي. دائمًا حاول قدر الاستطاعة أن تبتعد عن هذه الأشياء، بألا تنسب الأشياء لك، فلا تقل: أنا أفعل كذا وكذا، أنا صنعت كذا وكذا، أنا فعلت كذا وكذا، أو تقل: هذا لي، حقّي، مالي، كذا... إلخ، أو تقل: عندي؛ لأن هذه الأشياء تدل علىٰ العُجْب والغرورِ، وسوء الأدب في أنك تنسب النعمة لك، وتعتمد علىٰ قدراتِك وذكائك و... إلخ، وتنسىٰ المتفضِّل والمعطي -جَلَّ وَعَلَا-، فينبغي للإنسان أن يحذر. ولذلك تجدون هذه الكلمات الثلاثة كثيرًا في القرآن تتكلم عن أولئك القوم الذين افتخروا بِما أعطاهم الله -عَزَّوَجَلَّ-.

قال: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨]، قال: ﴿هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾ [فصلت: ٥٠]، قال: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢﴾ [الأعراف: ١٢]... إلخ.

فليحذر الإنسان دائمًا، وينسب النعمة الىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ-، ولذلك كان أدب الأنبياء لو تقرؤون مثلًا في سورة يُوسف أو في سورة النمل، تجد الأنبياء دائمًا يقولون: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [يوسف: ٣٨]، ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾ [النمل: ٤٠]. فيحذرالإنسان من هذا الأسلوب، ودائمًا ينسب النعمة إلىٰ مُسْديها. ومن شكر النعمة، أن يوفَّقَ العبد إلىٰ الطاعة، وأن ينسب النعمة

إلىٰ بارئها ومعطيها.

تأملوا، سيورِد هذا الكافر ثلاث حُجج، وسيرد عليه المؤمن الثلاث حُجج.

المقولة الأولى: قال: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾، ولكن سنبين بعد ذلك اللف والنشر في الآيات عند حديث المؤمن.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا﴾. دائمًا مَنْ أُوتي مالًا يأتيه العُجْب والفخر والتعالي، سواء كان بلسان حاله أو بلسان مقاله.

﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦﴾ [سبأ: ٣٥-٣٦]. فدائمًا في الافتخار بالمال، يظن العبد أنه أُعطيه لأنّه هو المستحق له.

قال: ﴿وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾، المقصود بالنّفَرِ العشيرة والأنصار والأعوان، «النفر ما بين الثلاثة إلىٰ عشرة». لكن لماذا سُمِّيَ الأعوان والأنصار نفرًا؟ والجواب: مِنَ النُّفُور؛ لأنهم يَنْفِرُونَ للنصرة فسُمُّوا نَفَرًا.

لكن يبقىٰ السؤال المهم جدًّا، لماذا قال: ﴿وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾؟ لماذا جاء بـ ﴿وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾؟

تأملوا، تدبروا، قال: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا﴾ واضحة، ولكن ما سبب مجيء ﴿وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾؟

لأنه يقول لو حصل شيء لهاتين الجنتين مثلًا، فأنا أستطيع إعادة الجنتين بمالي وبأنصاري ومن أستعين بِهم من الخدم والعشيرة والأبناء، ونحو ذلك.

ولذلك، تجد شيئًا من الغرور في بعض الناس الذين يُعْطَوْن مالًا، فيقول إذا راح هذا الشيء أعوض بدلًا منه، أستطيع أن أُنشئ بدلًا من المصنع ثلاثة، أربعة... إلخ، وهكذا. وهذا من الغرور -والعياذ بالله-.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ

قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾﴾

لكن سيأتي رد المؤمن الحكيم عليه بِرد عجيب جدًّا.

والسؤال المهم جدًّا: لماذا قال: ﴿جَنَّتَهُۥ﴾ ولم يقل جنتيه، مع أن الله -عَزَّوَجَلَّ- قال: ﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ ﴾، لماذا جاء بالمفرد ولم يجِئ بالمثنىٰ؟

أجاب أهل العلم عن هذا بأجوبة، بلغ بها بعضهم خمسة أجوبة، ولكن نحن نقتصر علىٰ الشيء الواضح:

قال: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾، قيل: إنه لإرادة الجنس، يعني المقصود بها جنس الجنة، فهذا يدل علىٰ أنهما لاتصالهما كأنهما جنة واحدة.

قيل: إنه أول ما يدخل إنّما يدخل إحداهما قبل أن ينتقل للأخرىٰ، فقال: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾.

وقيل غير ذلك من الأجوبة التي ذكرها أهل العلم.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ نسبها إليه. لماذا قال ﴿جَنَّتَهُۥ﴾ ولم يقل ودخل الجنة؟

لأن الرجل هو الذي يملكها، وكان مفتخرًا بها، وأنها له ولن يستطيع أحد أن يفني هذه الجنان التي يملِكها. قال: ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾، أي حال كونه ظالمًا لنفسه. وهذ الرجل الذي ظلم نفسه، بأي شيء ظلمها؟ الجواب، بأمرين:

الأمر الأول: بكفره وإنكاره للبعث، وهذا من الظلم لله -عَزَّوَجَلَّ-. والظلم ثلاثة أنواع: أن يظلم العبد نفسه ويظلم ربه ويظلم العباد.

الأمر الثاني: أنّ الرجل تنكّر للنعمِ التي أعطاها الله -عَزَّوَجَلَّ- له، فتكبَّر وعمل فيها بغير ما يرضي الله -عَزَّوَجَلَّ-، قال :﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾، أي هذا الكافر.

المقولة الثانية: قال: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾﴾، قوله: ﴿أَن تَبِيدَ﴾، أي تفنىٰ وتخرب.

لا يمكن هذا، انظر إلىٰ بساتينها وما فيها من الثّمار، وما فيها مِن أنواع العنب والنّخل ونحو ذلك، وهذه الأنهار والمِياه و... لا، ما أظُنّ أن تبيد هذه أبدًا.

ولِذلك اختلفوا في عود اسم الإشارة ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾، علىٰ أيِّ شيءٍ تعود؟

هل تعود ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ علىٰ جنته؟ أو تعود علىٰ الدّنيا؟ قولان لأهل العلم:

القول الأوّل: قالوا هذه تعود علىٰ الجنّة، أي ودخل جنّته فقال ما أظنّ أن تبيد هذه الجنّة أبدًا، انظروا إليها كيف هي في ثمارها وأموالها!

القول الثاني: وقيل بل تعود علىٰ الدنيا، فإنّ الرجل منكر للبعث ويشهد له الكلام الذي سيأتي بعد.

﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾، يقول لا، هذه هي الحياة، الحياة الدنيا فقط.

لكن عمومًا يصلح هذا ويصلح هذا. قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾، أي: تفنىٰ وتخرب. ولذلك جاء بلفظ «تبيد»؛ لأن الإبادة معناها الإزالة تمامًا، ممكن أن تنقص الثمار، ولكن لا تفنىٰ، هكذا يدعي ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾

المقولة الثالثة: لهذا الرجل الكافر، قوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، أي لا أظنّ هنالك قيامةً.

قوله هذا، هل هو جهل منه أو هو مِن باب المكابرة؟ **قولان** لأهل العلم:

القول الأوّل: قالوا هذا من باب الجهل؛ فهذا الرجل كان فعلًا يظن أنّه ليس ثمَّة بعث، فهذا جهل منه.

القول الثاني: قالوا إنّ الرجل كان عالمًا بحقيقة الحال، ولكنه منكر وقال هذا القول: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ علىٰ وجه التهكُّم والاستهزاء، يعني كأنه يقول للمؤمن ليس هناك الذي تؤمن به أنت، هذا شيء من الأساطير ونحو ذلك، كأنه يقول هذا الكلام. وهذا أيضًا زيادة في الظلم. قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، يريد هذا الظالم الآن أن يفترض افتراضات، كأنه يقول ولو سلمت لك جدلًا أيها المؤمن بأن ثمّة حسابًا وعذابًا وقيامةً ونحوَ ذلك، قال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾، يعني لو قُدِّر أنه كان هناك حسابٌ أو عذابٌ أو... إلخ، فإن العاقبة أيضًا في الآخرة ستكون لي وأفضل مما عندي الآن في الدنيا. لماذا؟

كأن لسان حاله ومقاله يقول: «ما دام أنه أعطاني في الدنيا هذا العطاء، فهذا دليل علىٰ رضاه عني في الدنيا، فكيف بالآخرة؟!» وهذا من القياس الفاسد؛ فإن الأعمال لا تقاس بما يُعطىٰ في الدنيا.

إنَّ هذه الدنيا يعطيها الله -عَزَّوَجَلَّ- لمن يحب ومن لا يحب، أما الآخرة فلا يعطيها الله -عَزَّوَجَلَّ- إلا لمن يحب، لقوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣]. فضيق العيش في الدنيا وكثرة الهموم والغموم وتنزُّل المصائب ونحو ذلك علىٰ المؤمن، لا يعني ذلك أنّه ليس له نصيب عند الله -عَزَّوَجَلَّ-، بل إنّ كثرة الابتلاء تدل علىٰ محبة الله للعبد.

أشدُّ الناس بلاءً الأنبياءُ، ثم الأمثل فالأمثل، كلٌّ يبتلىٰ علىٰ قدر إيمانه، وإذا أحب الله -عَزَّوَجَلَّ- أقوامًا ابتلاهم. فبَسْطة الرزق في الدنيا وسعته وما يعطيه الله -عَزَّوَجَلَّ- في الدنيا من الخيرات والبركات والأموال... إلخ، ليس دليلًا علىٰ أنّ ما له في الآخرة أفضل وأكثر، لا، بل أكثر أهل الجنة من الفقراء، وأنّهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام.

فليس ما يُعطاه العبد في الدنيا من متاعها وزخرفها دليلًا علىٰ رضىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ- عنه، فإن هذا الظن الذي ظنه الرجل فاسدٌ.

قوله: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا﴾، لها قراءتان:

علىٰ قراءة: ﴿خَيْرًا مِّنْهَا﴾ يكون الضمير في منها يعود علىٰ الجنة.

علىٰ قراءة: ﴿خيرًا مِنْهُما﴾ فضمير التثنية في منهما يعود علىٰ الجنتين.

قال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾، أي: مرجعًا وعاقبةً.

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ ﴾

قوله: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ ﴾، صاحبه هو المؤمن الآن، وما قيل في الصاحب الأوّل يقال في الصاحب الثاني، والمقصود به المقارن أو المخاصم هنا. ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴾.

الآن، يبدأ الرد، ما هي الأشياء الثلاثة التي أنكرها هذا الكافر بالترتيب؟

الجواب: الأولى: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾.

الثانية: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

الثالثة: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾.

الآن، سيأتي الرد المفترَض على الشبهة الأولى، ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾.

جاء الرّد بالعكس الذي نسميه باللفِّ والنَّشر المشوش غير المرتب.

الآن، جاء الرد على الشّبهة الأخيرة في قوله: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ قال: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ ﴾ للأهمية؛ لأن المؤمن بدأ الرد بالأهم فالمهم، لا يريد أن يناقشه في قوله: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾، من حيث إن المال لا يغني عنه شيئًا، وهؤلاء النفر لن يغنوا عنك شيئًا، لا، بل جاء يناقشه في أهم مسألة، وهي إنكار البعث.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ ﴾، في قوله: ﴿أَكَفَرْتَ ﴾

دليلٌ علىٰ ماذا؟

الاستفهام هنا للإنكار، يريد أن يُنكِر عليه، يقول: كيفَ تكفر؟! وهذا مِن باب الإنكار والتقريع له.

في قوله: ﴿أَكَفَرْتَ﴾ فائدة، وهي أنّ إنْكار البعث كفرٌ بالله -عَزَّوَجَلَّ-، ولذلك قال له: ﴿أَكَفَرْتَ﴾. وفي قوله: ﴿ثُمَّ﴾ لأن «ثم» تفيد التوالي، وهنا لم تَلِها ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝٣٧﴾.

لاحظوا ردَّ هذا المؤمن القوي، الرد من وجهين:

الوجه الأوّل: الرّد علىٰ أن القادر علىٰ الابتداء قادر علىٰ الإعادة، قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الرّوم: ٢٧]. فمعلوم عقلًا عند العقلاء أن الإعادة أسهل مِن الابتداء، أي المرة الثانية أسهل من المرة الأولىٰ.

الاستدلال الأول: جاء بالاستدلال العقلي، الآن، يقول: انظر إلىٰ خلقك، كنتَ ترابًا ثمّ نطفة، ثمّ... إلخ، فالذي جعلك تمرُّ بهذه المراحل قادر علىٰ أن يعيدك مرة أخرىٰ.

الاستدلال الثاني: نبهه بهذه المراحل؛ الذي خلقك من تراب ثمّ مِن نطفة ثم كذا. لماذا نبه عليه؟ لأنه يرىٰ الجنان «الجنّة» كانت، وكيف بدأت غرسًا ثمّ شيئًا ثم شيئًا ثم شيئًا حتّىٰ آتت أُكُلَها، فيبيّن له سُنّة التّدريج، انظر إلىٰ نفسك ألا يعني ذلك أن ثمة بعثًا؟

الاستدلال الثالث: وهو أنه إذا كنت أنت خُلقت من تراب، ثم من نطفة، ثم من

علقة، ثم من مضغة، إلىٰ أن استويت رجلًا كما ترىٰ الآن، هل يُعقل أن هذه السُّنة في التدريج لا يكون شيء بعد ذلك؟ يعني أيصبح خلقك عبثًا هكذا؟ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون:١١٥].

ليس كما يقول البعض منا «أَرْحامٌ تَدْفع وَأَرْضٌ تَبْلَع» ليس هذا الأمر، بل هذا يدل علىٰ أن ثمة حكمة مرادة، وهي أنه سيكون هنالك بعث وجزاء وحساب. قال: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾، لماذا قال: ﴿خَلَقَكَ﴾ ولم يقل أكفرت بالخالق؟ ما السبب؟

لأنه هو الذي بيده كل شيء، وهو الذي يستحق العبادة، فلماذا تنفر من العبادة وتستنكف وتستكبر؟! فهو الذي أعطاك وليس هذا منك ابتداءً.

قال: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾، لماذا لم يكمل المراحل، لم يقل ثم من نطفة ثم من علقة... إلخ؟

المهمّ عِندنا جملة ﴿سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾، فيها **فائدة** مهمة جدًّا، هي دليل علىٰ اكتمال الخلق والقوة والفتوة، وهو مناسب للجنتين في قوله: ﴿ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ فاكتمال الجنّتين مناسب ﴿سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾. فيأتي علىٰ اكتمال الجنتين، وبعد الاكتمال ماذا سيكون؟ سيكون النزول، الضعف، وكذلك أنت ستؤول إلىٰ الضعف، فتضعُف جنتاك.

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾.

قوله: ﴿لَّٰكِنَّا۠﴾، أصلها لكن أنا؛ أي لكن أنا، هو الله ربي. لكن لمّا كانت العرب تستخدم هذا كثيرًا، حذفت الهمزة «همزة أنا»، فتُقرأ «لكنّا»، أي لكن أنا، هو الله ربي.

فهذا المؤمن يقول لكن أنت لمّا كفرت بهذه النّعمة وأنكرت البعث، اللهُ هو ربّي.

﴿هُوَ﴾ سماه العلماء بضمير الشأن، أي «لكن أنا هو، الله ربّي الذي أعطاني من النعم ورباني وأمدني بالنعم، هو الذي يستحق أن أعبده وأن أشكره، وأن ألتجئ إليه، وأن أتوكل عليه، وأن أفوض أمري إليه».

في قوله: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾، سبق أن أشرنا لماذا جاء بلفظ الربوبية والإضافة كذلك، فقلنا المقصود بها التربِية الخاصة التي تعطيها النّعم، والمقصود بها المد من الله -عَزَّوَجَلَّ- والعون والرعاية والإحاطة، وكذلك كمال التفويض إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ-، ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨﴾، أي لا أقع في الشرك ولا أجعل لله -تعالىٰ- شريكًا أبدًا.

أين هذا الرجل هذا الذي جعل لله شريكًا؟ كيف يرد عليه؟ يقول الرجل لم يقل أنا أعبد صنمًا أو غيره. فإن الشريك لا يلزم أن يكون صنمًا، أو معبودًا، أو... إلخ، بل أحيانًا يكون الشريكُ الإنسانَ نفسَه؛ فيعبد الإنسانُ نفسَه ويمجدها ويعتمد علىٰ قُواه وما أعطي من النعم.

سيأتي بعد ذلك المحاورة في الرد علىٰ الجملتين الباقيتين، في الدرس القادم إن شاء الله.

❋ ❋ ❋

الدرس العاشر
(٣٩-٤٥)



﴿ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ﴿٤٤﴾ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾

﴿ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ

إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴿٣٩﴾ ﴾

هذه الآيات لا زالت متعلقة بسياق قصة أصحاب الجنتين، ولا زال الحديث يدور بين محاورة الرجل المؤمن الصالح للرجل الكافر، وقلنا إن الرجل الكافر ذكر ثلاثة أشياء قبل، وأن المؤمن سيرد علىٰ هذه الأشياء الثلاثة، فما هي **الأشياء الثلاثة** التي ذكرها الكافر؟ قال:

الأول: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾.

الثاني: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥﴾.

الثالث: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ ﴾.

يسمىٰ أسلوب الرد علىٰ هذا الكافر عند البيانين باللَّفّ والنّشْر غير المرتب(١).

فرد عليه الأول «المؤمن» في مسألة إنكار البعث.

ثم يأتي الآن ليرد عليه في المسألة الثانية المتعلقة بقوله: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥﴾. قال: ﴿ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ ﴾، أي هلّا. لولا للتحضيض: «هلا إذ دخلت جنتك»، وهذا وإن كان فيه تحضيض لكنه يدل علىٰ الإنكار.

قال: ﴿ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ ﴾، أي حال كونك داخلًا لهذه الجنة ﴿قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾.

وفي قوله: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾ فيه استحباب هذا الذكر عند رؤية الإنسان ما يعجبه، فيقول: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾.

ولذلك قال بعض السلف: مَن أعجبه شيءٌ من حاله أو ماله أو غير ذلك، فليقل: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾.

وهنا مسألة في قوله: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾، قال أهل العلم في قوله:

---

(١) اللف والنشر: هو أن يذكر شيئان أو أشياء، إما تفصيلًا بالنص علىٰ كل واحد أو إجمالًا بأن يؤتىٰ بلفظ يشتمل علىٰ متعدد، ثم يذكر أشياء علىٰ عدد ذلك، كل واحد يرجع إلىٰ واحد من المتقدم، ويفوِّض إلىٰ عقل السامع ردَّ كل واحد إلىٰ ما يليق به. انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، (٣/ ٣٢٠)، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ.

﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ أمران:

الأمر الأول: أن يتبرأ الإنسان من حوله وقوته، ويسلم الأمر كله لله -عَزَّوَجَلَّ- مالكه -سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ-.

الأمر الثاني: في قوله: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ هذه نقطة مهمة جدًّا، ولها علاقة بمحور السورة الذي ذكرته لكم. ما وجه الربط بين محور السورة وقوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾؟

أولًا: فيها براءة من الحول والقوة وتسليم الأمر لله -عَزَّوَجَلَّ-.

ثانيًا: يعلم المرء بأنه لا قوة للمخلوقين إلا بالله -تعالىٰ- فلا يخاف منهم، إذ ذاك يوجب الخوف من الله -عَزَّوَجَلَّ-. فإذا كان الأمر كذلك، فإن الإنسان لا يرجع عن دينه طرفة عينٍ حتىٰ ولو آذاه الخلق، فالخلق لا يستطيعون أن يقدموا له شيئًا أو يدفعوا عنه شيئًا.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٧﴾ [الأنعام:١٧].

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٧﴾ [يونس:١٠٧].

فحينئذٍ إذا علم الإنسان أن المخلوقين ليس لهم قوة إلا بحول الله وتوفيقه، علم أنه لا ينبغي له أن يخاف إلا من الله -عَزَّوَجَلَّ-، وهذا الأمر يورِثه الثباتَ والتوفيقَ.

وقوله: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ ليعلم الإنسان أنه لا يمكن أن يحدث عملًا من الأعمال، وخصوصًا أعمال الخير أو دفع الشر، إلا بتوفيقٍ من الله -جَلَّوَعَلَا-، ولذلك كان النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- يكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ-: «يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ قَيْسٍ، أَلاَ أُعَلِّمُكَ كَلِمَةً هِيَ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ، لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»(١).

ومعنىٰ لا حول ولا قوة إلا بالله، أي لا انتقال ولا عمل ولا إحداث أي شيءٍ إلا بعون الله -عَزَّوَجَلَّ- وتوفيقه، ولذلك شُرع للإنسان إذا سمع المؤذن يقول حي علىٰ الصلاة - حي علىٰ الفلاح، أن يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله. **ما المناسبة؟**

لأن المؤذن يقول له: حي علىٰ الصلاة، أي تعالَ، أقبل علىٰ الصلاة، فهو يقول: لا أستطيع أن أقوم إلىٰ الصلاة إلا بعد توفيق الله -عَزَّوَجَلَّ-، فلا حول لي ولا انتقالٍ من حال إلىٰ حال إلا بعد توفيق الله -عَزَّوَجَلَّ-.

ولذلك ذكر شيخ الإسلام -رَحِمَهُٱللَّهُ- أن كثيرًا من الناس يخطئون في فهم هذه الكلمة: "لا حول ولا قوة إلا بالله"؛ فيجعلون هذه الكلمة كلمة استرجاع، يعني كقوله لا حول ولا قوة إلا بالله عند المصائب، فهذا غير صحيح، بل هذه الكلمة كلمة تفويضٍ وتوكلٍ علىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ-. فإذا قيل لك افعل كذا، تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله. ولن تستطيع أن تقوم بعملٍ من الأعمال ولا أن تنتهي عن سيئ من السيئات، إلا بعد توفيق الله -عَزَّوَجَلَّ-. ولذلك أكثِر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله؛ فإن لها تأثيرًا عجيبًا كما قال شيخ الإسلام -رَحِمَهُٱللَّهُ- في تحمُّل الأهوال والشدائد.

---

(١) أخرجه البخاري في كِتَابِ القَدَرِ، بَابُ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، (٦٦١٠).

وهذه **مناسبة**، خصوصًا وقت الفتن، يُكثر الإنسان من قول لا حول ولا قوة إلا بالله، حسبنا الله ونعم الوكيل. ولذلك عند المرور علىٰ الصراط يكون قول الأنبياء: حسبنا الله ونعم الوكيل، ولذلك قال الصحابة للرسول -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ماذا نقول؟ قال: قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل.

فرددوا هذا الذكر والْهجوا به، وانطقوا لا حول ولا قوة إلا بالله، فمن **فوائدها:**

أنها تورث قوةً ونشاطًا عجيبًا، فمن أكثر منها، أعانه الله -عَزَّوَجَلَّ- علىٰ تحمُّل الشدائد والأهوال والأمور العظام، فلا حول لنا ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وجاء في ألفاظها:

لا حول ولا قوة إلا بالله، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، لا حول ولا قوة الا بالله العزيز الحكيم.

قال: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴿٣٩﴾﴾، أي إن رأيتني أقلَّ منك مالًا وولدًا، فتكبرت عليّ وافتخرت عليّ بهاتين الجنتين واحتقرتني؛ لأنني أقل منك مالًا وولدًا، حيث قال الرجل له من قبلُ: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾﴾.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿٤٠﴾﴾

قوله: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ﴾، يحتمل أن يُراد به **أمران:**

الأمر الأول: الترجي لأن «عسىٰ» للترجي، وأن هذا دعاء من هذا الرجل الصالح، بأن يؤتيه الله خيرًا من جنته.

الأمر الثاني: هو من باب التوقُّع، والمعنىٰ حينئذٍ: «إن كنت ترىٰ هذا، فإنه يُتوقَّع أن الله -تعالىٰ- يزيل عنك هذا الأمر ويبدلني خيرًا مما عبتني به». الأمران محتملان.

وأيًّا ما كان، فالأمر واقع، قد وقع وانتهىٰ؛ إما استجاب الله -عَزَّوَجَلَّ- إذا كان دعاءً، وإن كان توقُّعًا فإن توقُّعَه قد وقع، فأرسل الله -عَزَّوَجَلَّ- علىٰ جنة ذلك الظالم عذابًا، كما سيأتي.

فقوله: ﴿أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾، قال أهل العلم:

فيه إشارةٌ إلىٰ التسلّي عن لذات الدنيا وشهواتها بما عند الله من الخير، فإذا رأىٰ الإنسان ما عند غيره من النعم التي وهبها الله -عَزَّوَجَلَّ- إياه، يجوز له أن يتسلىٰ بما عند الله -عَزَّوَجَلَّ-؛ يقول: نصبر ونحتسب والذي عند الله -عَزَّوَجَلَّ- خير لعباده المؤمنين، وهذه الدنيا فانية؛ ويدفع الله -عَزَّوَجَلَّ- عنا سوءًا ويبدلنا خيرًا من هذه الأشياء. وهكذا، يجوز له أن يتسلىٰ بما عند الله -عَزَّوَجَلَّ- من الخير عن لذات هذه الدنيا وشهواتها، ويقول: اصبروا، خصوصًا إذا كان أهل بيته يحدثونه عن ذلك، يقولون: اجلب لنا كذا، اِيتِ لنا بكذا، انظر إلىٰ فلان عنده كذا وكذا... إلخ، فيُشرَع له أن يتسلىٰ بما عند الله -عَزَّوَجَلَّ- من الخير، يقول: عند الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- للمتقين خير، وإذا اتقينا الله -عَزَّوَجَلَّ- وقمنا بحقه -عَزَّوَجَلَّ- يبدلنا الله -عَزَّوَجَلَّ- خيرًا ويعوضنا، وهكذا.

قال: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾، أين يؤتيه؟ في الدنيا أو في الآخرة؟ **قولان** للمفسرين:

القول الأول: قالوا في الدنيا أن يعطيني الله -عَزَّوَجَلَّ- خيرًا من جنتك.

القول الثاني: قيل في الآخرة وهذا هو الأشهر؛ لأن المؤمن نظره دائمًا إلىٰ الآخرة.

قال: ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا﴾، أي يرسل علىٰ جنتك ﴿حُسْبَانًا﴾، الحسبان في لغة العرب معناها المرامي يُرمىٰ بها، سواء كانت هذه المرامي حجارةً أو نارًا أو إعصارًا أو غير ذلك.

والظاهر أن العذاب "الحسبان" الذي نزل علىٰ هذه الجنّة، المطر العظيم المصحوب بالصواعق، ونحو ذلك الذي يقتلع الزروع والأشجار و... إلخ.

﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، لماذا قال: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؟ ولم يقل ويرسل عليها عذابًا.

قال أهل العلم: لأن العذاب الذي يكون من السماء في الغالب أنه لا يُرَدّ، بخلاف ما سيأتي من الأرض كالفيضانات مثلًا والسيول ونحو ذلك، قد يدفعها الإنسان أو يضع لها أسبابًا تدفعها. أما العذاب الصادر من السماء، فهذا لا طاقة للبشر به، لذلك قال: ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

وفي قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾﴾ يدل قوله: ﴿فَتُصْبِحَ﴾ علىٰ أن العذاب كان في الليل، فإذا قام واستيقظ من نومه يرىٰ جنّته قد أُبيدت، وهذا يشبه حال أصحاب الجنّة الذين ورد ذكرهم في، سورة القلم، قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ

ﭐغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [القلم: ٢٠].

قال: ﴿زَلَقًا ﴿٤٠﴾﴾، أي هذه الجنة بعد أن كانت معمورةً بالأشجار والماء والبساتين ونحو ذلك، تصبح أرضًا مستوية جرداء لا نبات فيها، ملساء لا تثبت عليها قدم، أي تزلق القدم، فتصير هذه الجنة بعد أن كانت جنة ملتفة الأشجار فيها من الثمار والزروع والماء ونحو ذلك، أرضًا مستوية لا نبات فيها البتّة، ولا يثبت عليها قدم من الزلق، يزلق الإنسان فيها.

وفي قوله: ﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾.. الآية﴾ جواز الدعاء بتلف مال مَنْ كان ماله سببًا لطغيانه وكفره وخسارته، ويُسخِّر ماله خدمة للصدِّ عن دين الله –تعالىٰ–.

﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾﴾

وفي قوله: ﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا﴾، يعني ماء النهر.

﴿غَوۡرٗا﴾ مصدر، أصلها يصبح ماؤها غائرًا، لكن هذا للمبالغة. ومعنىٰ الغور أن الماء داخل في الأرض، لا يستطيع أحد أن يجلبه بعد أن كان نهرًا يجري ويفجر الماء في كل مكان.

قال –عَزَّوَجَلَّ–: ﴿وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾﴾، مع أنه نهر واحد، لكن تتفجر منه الماء من كل مكان.

وفي قوله: ﴿فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾﴾، يُحتمل أمران:

الأمر الأول: ألا تستطيع رد الماء الغائر ولا تقدر عليه بحيلة، فلا تستطيع أن

ترده بحيث يكون نهرًا يجري، ولا تستطيع أن تجلب هذا الماء ولو بحيلة.

الأمر الثاني: الماء الذي ذهب من هذا النهر لا تستطيع أن تأتي به، ولا تستطيع أن تؤمّن غيره، بأن تأتي مثلًا بماء من مكان آخر أو نحو ذلك.

قوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾، فيه أن الله -عَزَّوَجَلَّ- استجاب لهذا الداعي دعاءه، إذا قلنا إن هذا الأمر كان من المؤمن دعاءً، أو حصل ما توقَّعه هذا المؤمن.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾﴾

ما مناسبة كلمة ﴿وَأُحِيطَ﴾ للآيات التي سبقت؟ ما هي المفردة التي تناسبها؟

﴿وَأُحِيطَ﴾، هذه المفردة تناسبها ﴿وَحَفَفۡنَٰهُمَا﴾، الحف هو الإحاطة، فبعد أن كانت هاتان الجنتان محفوفتين ومحاطتين بالنخل، جاءها العذاب.

فقال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾، أي أصاب هذا الثمر ما أهلكه، فأتلف جميع الأشجار والثمار والزروع والأموال، وهذا على قراءة «ثُمُر».

لماذا خص الثمر؟ قال: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾، يعني أُهلك الثمر. هل يعني ذلك أن أصول الأشجار باقية أم أتىٰ الهلاك علىٰ كل الجنّة؟ قال في الآية التي قبلها: ﴿فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿٤٠﴾﴾. وفي قوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾، لماذا خص الثمر؟

الجواب: لأن الفائدة تكون في الثمر، فإذا ذهب الثمر فمعنىٰ ذلك أن الأصول قد ذهبت؛ لأنه كان يفتخر به، وقد حكىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ- عنه، فقال:

﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ ﴾.

قال الله -تعالىٰ-: ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ﴾، قيل المقصود بتقليب الكف:

أنه يضرب اليد علىٰ اليد الأخرىٰ، أو كانت باطن يديه إلىٰ السماء فيقلبها من البواطن إلىٰ الظواهر.

يقلب يده، وهو غاية في المقصود بذلك وهو التلهّف والندم، كناية عن شدة الندم. رجل ما زال يرعىٰ هذه الجنان بماله ويتعاهدها ويصلحها ثم يصبح وقد أصبحت لا شيء، فأصبح يتلهف ويندم.

وعلىٰ كل حال، هذا كناية عن شدة الندم.

قال: ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ﴾، أي كان الهلاك بالليل. قال: ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾، أي في هذه الجنّة من عمارتها وإصلاحها، وما بذله فيها من أموال ذهبت.

وقيل «في» هنا بمعنىٰ «علىٰ»، أي فأصبح يقلب كفيه علىٰ ما أنفق «عليها» من المال ونحو ذلك.

قوله: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾، خاوية، يعني خالية قد سقط بعضها علىٰ بعض.

قال: ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، المقصود بالعرش السقف. فسقطت سقوفها علىٰ حيطانها، سقطت عروش النخل، وكذلك عروش العنب الذي ذكره الله -عَزَّوَجَلَّ-. فانظر إلىٰ حالها -والعياذ بالله-!

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾﴾، لماذا جاء بقوله: ﴿وَيَقُولُ﴾ مع أنه حصل الأمر وانتهىٰ؟ لماذا لم يقل فأصبح يقلب كفيه علىٰ ما أنفق

فيها وهي خاوية علىٰ عروشها وقال يا ليتني لم أشرك بربي أحدًا؟

هذا فيه دليل علىٰ تكرار ذلك القول منه، وأنه أصبح دائمًا يردد: ذهبت الجنّة وذهبت الأموال التي أنفقتها فيها، ويتلهف ويتحسر، وأصبح هذا الأمر، الندم، مستمرًا معه.

في قوله: ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي﴾، لماذا جيء بقول «يا» مع أنه لو قال: «ويقول ليتني» كان ممكنًا؟ قال أهل العلم:

حرف النداء هنا مستعمل في التلهّف، ما زال عنده تلهف وحسرة وشدة ندم. فيقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ۝٤٢﴾. متىٰ سيكون هذا القول: ﴿لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ۝٤٢﴾؟ هل قال هذا القول في الدنيا أو يقوله في الآخرة؟ قولان لأهل العلم:

القول الأول: إن هذا الرجل قاله في الدنيا، وعليه، يجوز أن تكون هذه المقولة توبة لهذا الرجل فتاب ورجع وأناب. وفضل الله -عَزَّوَجَلَّ- ورحمته واسعة، والله -عَزَّوَجَلَّ- يهدي من يشاء.

سبق أن مرَّ معنا آية تدل علىٰ هذا في سورة الكهف، في قول الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ۝١٧﴾، فالتوفيق والهداية بيد الله -عَزَّوَجَلَّ-.

القول الثاني: إنه سيقول هذا القول في الآخرة ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ۝٤٢﴾، وهنالك يتمنىٰ الكافر أن لو كان ترابًا، ويتمنىٰ أن يرجع إلىٰ الدنيا فيعاد ويقوم بهذا. قال -تعالىٰ-: ﴿فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢٧﴾ [الأنعام:٢٧]،

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨].

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾

ما مناسبة هذه الآية بالآيات السابقة ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ﴾؟ في أي شيء؟

قوله: ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾ هذا رد، فلماذا قال: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ﴾ ولم يقل «ولم تكن له فئةٌ تنصره»؟ لماذا قال: ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾ بالجمع؟

الجواب: مراعاةً للمعنىٰ؛ لأنه قال: ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾، يعني عندي عشيرة وأولاد، لذلك قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ﴾ باعتبار المعنىٰ.

قال: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، هذا فيه **فائدة** جليلة جدًّا، أن من فَقَدَ الله فَقَدْ فَقَدَ كل شيءٍ، ومن وجد الله -تعالىٰ- فقد وجد كل شيء، وأن من استقام علىٰ أمر الله نصره الله وأيده.

ما زال الكلام عن محور السورة، فقوله: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ﴾، فالإنسان إذا اعتصم بالله -عَزَّوَجَلَّ- وفَرّ من الفتن نصره الله وأيده. قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد:١١]، وقال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾ [محمد: ١٣].
قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾.

لماذا جاء بقوله: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾ مع أنه قال: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ﴾؟ إذًا الكلام انتهىٰ، فلماذا قال: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾؟ لأن هناك الفئة التي تنصره، أما هنا فما كان منتصرًا هو بنفسه، أي لا يستطيع في الأصل أن ينقذ نفسه وينتصر من عذاب الله

-عَزَّوَجَلَّ-. فهو في قوله: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾ ردٌّ علىٰ كلمة ﴿وَأَعَزُّ﴾، وكلمة ﴿نَفَرٗا ٣٤﴾ رد عليها قوله -جَلَّوَعَلَا-: ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ﴾، إذًا لست أنت منتصرًا بنفسك ولا غيرك سينصرك، قال: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ٤٣﴾.

﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ٤٤﴾

﴿هُنَالِكَ﴾، علىٰ ماذا يعود اسم الإشارة؟ هل يعود علىٰ العذاب الذي أصابه في الدنيا أو العذاب الذي سيصيبه في الآخرة؟ قولان لأهل العلم:

القول الأول: قالوا الإشارة فيها إلىٰ العذاب الذي أصاب جنته في الدنيا.

القول الثاني: قالوا الإشارة فيها إلىٰ العذاب في الآخرة، فيصبح تقدير الآية ﴿هُنَالِكَ﴾ أي في ذلك المقام، علىٰ القولين اللذين ذكرا لكم. وتلك الحال، النصرة لله المعبود الحق وحده، لا يملكها غيره ولا يقدر عليها سواه فهو -عَزَّوَجَلَّ- من أسمائه النصير الذي يهب النصر لأوليائه، فنعم المولىٰ ونعم النصير.

وفي لفظ: ﴿ٱلۡوَلَٰيَةُ﴾ قراءتان:

القراءة الأولى: بكسر الواو ﴿هُنَالِكَ ٱلوِلَـٰيَةُ﴾، فيكون معناها الملك والسلطان والقدرة في يوم القيامة، ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾ [غافر: ١٦].

القراءة الثانية: بفتح الواو ﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ﴾، فمعنىٰ الولاية هنا النصرة والتأييد.

قال: ﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ﴾، في هذه القراءة وجهان:

الوجه الأول: في ذلك المقام تكون الولاية من كل أحدٍ لله، لأن الكافر إذا رأىٰ

العذاب رجع إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ- فيبطل عنه ما كان يظن أنه سينصره، لذلك قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يس: ٧٤-٧٥]، وقال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ [مريم: ٨١]، كلا ليس كذلك الأمر.

الوجه الثاني: أن ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ في ذلك المقام لله وحده يوالي المسلمين وينصرهم، وتكون هذه النصرة رحمة من الله -عَزَّوَجَلَّ- وتوفيقًا وتأييدًا.

قال: ﴿لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾، في لفظ: ﴿ٱلْحَقِّ﴾ **قراءتان:**

القراءة الأولى: بضم القاف: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقُّ﴾، فتصبح الحق صفة للولاية، أي هنالك الولاية الحقُّ لله.

القراءة الثانية: بكسر القاف: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾، فتصبح الحق صفة لله، اسم من أسماء الله -عَزَّوَجَلَّ-. لا يستحقها غيره -عَزَّوَجَلَّ- وهي صفة لله -تعالىٰ-، أي هنالك الولاية لله ذي الحق، أي هو الحق في ألوهيته -عَزَّوَجَلَّ-، وهو المستحق للعبادة. قال: ﴿هُوَ خَيْرٌ﴾ كلمة ﴿خَيْرٌ﴾ أفعل تفضيل حُذفت الهمزة. فهل هناك ثواب فيه خير وثواب فيه أكثر خيرًا؟

في ذلك الموقف الجواب: لا، فهنا أفعل التفضيل ليست علىٰ بابها، ولكن المراد بها هنا إثبات الخيرية المطلقة لثواب الله -عَزَّوَجَلَّ- ونفيها عن غيره، فغير الله -عَزَّوَجَلَّ- لا يثيب. وفيه دليل علىٰ أن ما يثيبه الله -عَزَّوَجَلَّ- هو خيرٌ للعبد. قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾، أي خيرٌ عاقبة.

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم ﴾، علىٰ من يعود الضمير في قوله: ﴿لَهُم﴾؟

قيل: يعود علىٰ المستكبرين الذين سألوا النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- أن يطرد الكافرين، في قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية السابقة.

وقيل بل المراد به عموم الناس.

قال: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾، الآن سيأتي تمثيل الحياة الدنيا بماء أُنزل من السماء. فما الفائدة من هذا؟ لاحظوا، هذه من الأشياء العجيبة جدًّا، سبحان الله!

لماذا ضرب الله -عَزَّوَجَلَّ- مثلًا الحياة الدنيا بالماء؟ قيل: لخمسة أسباب تقريبًا:

السبب الأول: أن الماء لا يستقر في موضع، وكذلك الدنيا لا تستقر في موضع، فهي سريعة التقلب، فاليوم غنًىٰ وغدًا فقرٌ، عزٌّ ذلٌّ،... إلخ.

طُبِعَتْ علىٰ كدرٍ وأنتَ تريدُها ... صفوًا من الأقذارِ والأكدارِ

هكذا هي الدنيا ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ [الإنسان: ٤]، فيطمئن الإنسان ويعلم أن هذه الدنيا لا تستقر لأحد.

السبب الثاني: تشبيهها بالماء لأن الماء لا يستقيم علىٰ حالةٍ واحدة، وكذلك الدنيا لا تستقيم علىٰ حالةٍ واحدة.

السبب الثالث: أن الماء لا يبقىٰ ويذهب، وكذلك الدنيا تفنىٰ ولا تبقىٰ.

السبب الرابع: أن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتل، وكذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها.

السبب الخامس: أن الماء إذا كان بقدر كان نافعًا منبتًا، وإذا جاوز المقدار كان ضارًا مهلكًا، وكذلك الدنيا، فإذا كانت بقدر استعان المرء بها علىٰ عبورها إلىٰ الدار الآخرة، فإذا زاد ونافس فيها أهلكته.

ولذلك، قال النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «فَوَاللهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَىٰ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَىٰ عَلَيْكُمْ أَن تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا، كَمَا بُسِطَتْ عَلَىٰ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ»[1].

لاحظوا قوله: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، فيه فائدة:

دليل علىٰ تنزُّل الرحمات والخيرات من الله -عَزَّوَجَلَّ-، وأنه قد يكون في هذا الماء رحمةٌ ﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، وقد يكون فيه عذابٌ، كما سبق ﴿حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾. ﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾، هل اختلط الماء بالنبات أم اختلط النبات بالماء؟

قيل إن الماء اختلط بالنبات حتىٰ استوىٰ. وقيل إن النبات اختلط بعضه ببعض، حين نزل عليه الماء فنما. قوله: ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾، قيل هذا من التشبيه المقلوب.

فما المراد بقوله: ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾؟ الجواب: أن الماء لما جاء

---

(١) أخرجه البخاري في كِتَابِ الرِّقَاقِ، بَابُ مَا يُحْذَرُ مِنْ زَهَرَةِ الدُّنْيَا وَالتَّنَافُسِ فِيهَا، (٦٤٢٥).

انتفعت به الأرض فأنبتت نباتًا حسنًا، ثم قام هذا النبات علىٰ سوقه فاخضر، وبلغ ذروته من الحسن والجمال، ثم بعد ذلك ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾، الهشيم: اليابس المتفتت، ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾، أي تنسفه وتفرقه الرياح.

وهكذا الدنيا، تبدأ في نضارتها وجمالها ثم تؤول إلىٰ الفناء، ونحن هكذا البشر، ضعفٌ ثم قوةٌ ثم ضعفٌ، وهكذا الدنيا إلىٰ زوال. فينبغي للإنسان ألا يغتر ولا تغره الدنيا وجمالها وزينتها، فإنما هي ظل زائل، وعما قليل يكون الانتقال إلىٰ الدار الآخرة.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾، أي أن الله علىٰ كل شيءٍ قدير في تعذيب الكافرين وإحلال العقوبة بهم، وعلىٰ كل شيء قدير في عصمة الإنسان من الفتن.

وفيه كذلك ربطٌ بمحور السورة، أنك لا تفتتن بالدنيا، فالدنيا برّاقة قد يسحر جمالُها طالبَها، فلا يفتتن الإنسان بها، ويعلم أنها ظلٌّ زائل.

❋ ❋ ❋

الفيديو غير موجود

الدرس الحادي عشر
(٤٦-٤٩)

﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦ وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ٤٧ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا ٤٨ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾

﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦﴾

مناسبة الآية: لما ذكر الله -تعالىٰ- الدنيا وحقّر شأنها، ذكر أن المال والبنين زينة الحياة. قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، قوله: ﴿ٱلۡمَالُ﴾ يشمل الأموال والعروض والبهائم وغيرها.

لماذا قدم الله -تعالىٰ- المال علىٰ البنين؟

الجواب: لأن المال مرغوب للجميع بخلاف البنين، وأنه بحاجة إلىٰ المال

أكثر من البنين. قوله: ﴿وَٱلۡبَنُونَ﴾ لفظ البنين هنا خاص بالأبناء الذكور، فعادة العرب لا يفتخرون إلا بالذكور؛ لأن فيهم قوة لدفع الضرّ والنصرة، بل كانوا يئدون البنات ويتشاءمون منهن. قال: ﴿زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، زينة مصدر. لماذا لم يقل زيّن؟ الجواب: لأن المصدر يُؤتىٰ به للمبالغة.

قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾، اختلفوا في المراد بالباقيات علىٰ أقوال:

القول الأول: قيل الصلوات الخمس.

القول الثاني: قيل لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوّة إلا بالله.

القول الثالث: قيل الكلام الطيب.

القول الرابع: قيل جميع الطاعات الواجبة والمستحبة من حقوق الله علىٰ عباده من صلاة، وزكاة، وصدقة، وحج، وعمرة، وتسبيح، وتحميد، وتهليل، وتكبير، وقراءة، وطلب علم نافع، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وصلة رحم، وبر والدين، وقيام بحق الزوجات، والمماليك، والبهائم، وجميع وجوه الإحسان إلىٰ الخلق، كل هذا من الباقيات الصالحات؛ لأنها هي التي تبقىٰ لصاحبها.

قال: ﴿خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا﴾، قوله: ﴿خَيۡرٌ﴾ أفعل تفضيل، ليست علىٰ بابها، قيل خير، أفضل من المال والبنين. قوله: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾، لماذا قدم الباقيات؟ للتنبيه علىٰ ما ذُكر قبل؛ لما ذكر المال والبنين أنهم يفنون والباقيات الصالحات هي التي تبقىٰ، قدم الباقيات فثوابها يبقىٰ، ويتضاعف علىٰ الآباد، ويؤمَّل أجرُها وبرُّها ونفعُها عند الحاجة، فهذه التي ينبغي أن يتنافس فيها المتنافسون، ويستبق إليها

العاملون، ويجدُّ في تحصيلها المجتهدون. وتأمل لما ضرب الله مثل الدنيا وحالها واضمحلالها، ذكر أن الذي فيها **نوعان:**

النوع الأول: نوع من زينتها، يُتمتَّع به قليلًا ثم يزول بلا فائدة تعود لصاحبه، بل ربما لحقته مضرَّتُه وهو المال والبنون.

النوع الثاني: نوع يبقىٰ وينفع صاحبه علىٰ الدوام، وهو الباقيات الصالحات.

قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦﴾، لماذا كرر خير؟ ليبين لك أن الخيرية تختلف، وللحث علىٰ العمل الصالح.

﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ٤٧﴾

يخبر -تعالىٰ- عن حال يوم القيامة وما فيه من الأهوال المقلقة، والشدائد المزعجة. قال: ﴿وَيَوۡمَ﴾، يوم منصوب لفعل مقدر تقديره: «واذكر يوم نسير الجبال». قوله: ﴿نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ﴾، أي يزيلها عن أماكنها، يجعلها كثيبًا، ثم يجعلها كالعهن المنفوش، ثم تضمحل وتتلاشىٰ، وتكون هباءً منبثًا. قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ﴾، لمن الخطاب في قوله: ﴿وَتَرَى﴾؟ علىٰ **قولين:**

القول الأول: قيل الخطاب للنبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ-.

القول الثاني: قيل الخطاب لكل من يصحُّ منه الرؤيا.

قال: ﴿بَارِزَةٗ﴾، تبرز الأرض فتصير قاعًا صفصفًا، لا عوج فيه ولا أمتا. قوله: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ﴾، جيء بالفعل الماضي **لأمرين:**

الأمر الأول: للدلالة علىٰ تحقق هذا الحشر المتفرِّع من البعث.

الأمر الثاني: أن الحشر يكون قبل النشر والبروز.

قال: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾، أي يحشر الله -جَلَّ وَعَلَا- جميع الخلق علىٰ تلك الأرض. قال: ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾، أي يجمع الأولين والآخرين، من بطون الفلوات، وقعور البحار، ويجمعهم بعدما تفرقوا، ويعيدهم بعدما تمزَّقوا، خلقًا جديدًا.

﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾

قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾، أي يعرضون عليه صفًا ليستعرضهم وينظر في أعمالهم، ويحكم فيهم بحكمه العدل، الذي لا جَوْر فيه ولا ظلم، ويقول لهم : ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾، أي بلا مال، ولا أهل ولا عشيرة، ما معهم إلا الأعمال التي عملوها، والمكاسب في الخير والشر التي كسبوها، كما قال -تعالىٰ-: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ﴾ [الأنعام: ٩٤]. وقال، مخاطبًا المنكرين للبعث وقد شاهدوه عيانًا: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾، الخطاب لمنكري البعث، أي أنكرتم الجزاء علىٰ الأعمال، ووعد الله ووعيده، فها قد رأيتموه وذقتموه.

قوله: ﴿مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾، في المراد بالموعد **احتمالان:**

الاحتمال الأول: يشمل الزمان والمكان.

الاحتمال الثاني: أن يكون المراد به الزمن الموعود به.

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾

قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾، أي فحينئذٍ تحضر كتب الأعمال التي كتبتها الملائكة الكرام، فتطير لها القلوب، وتعظم من وقعها الكروب، وتكاد لها الصّمُّ الصّلابُ تذوب. قال: ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، فيه فائدة: لفظ الإجرام في القرآن غالبًا يُقصد بها الكافر. قوله: ﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾، أي يخاف منها المجرمون، فإذا رأوها مسطرة عليهم أعمالهم، محصًى عليهم أقوالهم وأفعالهم، قالوا: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ﴾. قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ جيء بالفعل المضارع للدلالة علىٰ الاستمرار، أي لا يترك خطيئة صغيرة ولا كبيرة إلا وهي مكتوبة فيه، محفوظة لم يُنسَ منها عملُ سرٍ ولا علانيةٍ، ولا ليلٍ ولا نهارٍ. قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ﴾، لمن هذه الآية؟ قال أهل العلم: إن الآية في حق الكافرين، وقيل إن المؤمن يراها لكن لا يحاسب عليها، ليعرف فضل الله -تعالىٰ- عليه وسعة رحمته. قال: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ﴾، أي لا يقدرون علىٰ إنكاره. قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾، فحينئذٍ يُجازون بها، ويُقرَّرون بها، ويُخزَون ويحق عليهم العذاب، ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عمران: ١٨٢]. بل هم غير خارجين عن عدله وفضله، ولا يُكتب عليهم شيء لم يفعلوه، وفيه كمال المدح وهو العدل.

❋ ❋ ❋



الدرس الثاني عشر
(٥٠-٥٣)

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ
كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ
أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾

في هذه الآيات **مسائل**:

المسألة الأولى: في قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾.

ذكر أهل العلم -رحمهم الله- عدة مناسبات بين هذه الآية والآيات التي قبلُ.

ومن أظهر المناسبات، أن الله -عَزَّوَجَلَّ- ذكر أنّ إبليس تكبَّر علىٰ آدم، فافتخر

عليه بأصله ونسبه، وكذلك صنع المشركون في تكبُّرهم واستنكافهم عن مجالسة الضعفاء والفقراء، الذي يدل عليه قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ الآية. فكأن هذه المعاملة التي طلبها المشركون من النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- هي طريقة إبليس بعينها؛ فإن إبليس استنكف واستكبر أن يسجد لآدم، وكذلك المشركون الأغنياء استنكفوا أن يجالسوا المسلمين الفقراء. فأول ذنب عُصي الله به الكِبْرُ والحسد، فحسد إبليسُ آدمَ، وتكبَّر واستنكف عن أن يسجد لآدم، قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤]. ودل ذلك علىٰ أن الكبر يصرف الإنسان عن الحق، فلينتبه الإنسان!

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: ١٤٦]. فيحذر الإنسان من هذا الداء الخطير، ويكون لين الجانب، متواضعًا، يقبل الحق ولو مِمَّنْ هو أقلُّ منه. ولذلك كان النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- يجالس الضعفاء، وقال: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ»[1]. والله -عَزَّوَجَلَّ- يبغض كل جَوَّاظٍ مستكبر، فيحذر الإنسان من أن يأنف عن الحق وعن أهل الحق؛ فإن هذا سبيل إبليس وأتباعه.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، أي واذكر يا محمد إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم. وسجود الملائكة لآدم -عَلَيْهِٱلسَّلَامُ- هو طاعة لله، فإن الله -عَزَّوَجَلَّ- هو الذي أمرهم بأن يسجدوا لآدم، والذي يظهر -والله أعلم- أن السجود حقيقي،

---

(١) سبق تخريجه ص (٩٠).

سجود علىٰ الجبهة.

فإن قيل كيف يكون السجود لآدم مع أن السجود لغير الله شرك؟

الجواب: أنّ الله -عَزَّوَجَلَّ- هو الذي أمرهم بالسجود، فسجودهم امتثال لأمر الله -عَزَّوَجَلَّ-، وهو إكرام وتعظيم. فإن قيل: ذلك شرك. الجواب: لا، هذا أمر من الله -عَزَّوَجَلَّ-، فإن الله -عَزَّوَجَلَّ- قد نهىٰ عن قتل النفس بغير حق، لكنه أمر إبراهيم -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- أن يذبح ابنه إسماعيل، فَهَمّ إبراهيم -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- بذبح ابنه إسماعيل مع أنه قَتْلُ نفس بغير حق، لكن هذا امتثال لأمر الله -عَزَّوَجَلَّ-، وينبغي للإنسان أن يمتثل أمر الله -عَزَّوَجَلَّ- قبل كل شيءٍ، حتىٰ قبل أن يعلم الحكمة؛ فالأوامر والنواهي الأصل فيها التعبُّد، يعني يُقْبل العبد عليها مباشرة حتىٰ لو لم يعلم الحكمة. فسجود الملائكة لآدم هو من باب امتثال أمر الله -عَزَّوَجَلَّ- وهو تكريم وتعظيم لآدم -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-. قال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾، لاحظ قوله: ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾، الفاء هنا تدل علىٰ التعقيب، أي شدة امتثال الملائكة لأمر الله -عَزَّوَجَلَّ-.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾، هذا الذي ينبغي للإنسان أن يفعله مباشرةً، المبادرة والامتثال لأمر الله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، الاستجابة لأمر الله وأمر الرسول -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- علىٰ أي حالٍ كان الإنسان. قال :﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾، إبليس مأخوذ من الإبلاس وهو اليأس، فإنه قد يئس من رحمة الله -عَزَّوَجَلَّ-.

مسألة: هل إبليس من الملائكة أو ليس من الملائكة؟ **قولان** لأهل العلم:

القول الأول: إن إبليس من الملائكة. إذا كان من الملائكة، فكيف أن الله -عَزَّوَجَلَّ- قال: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾؟ قالوا: المقصود بالجن هنا جنس من الملائكة، والجن إنما سموا جنًا؛ لأنهم مستترون عن أعين الناس فكذلك الملائكة.

القول الثاني: إن إبليس لم يكن من الملائكة، وإنما كان من الجن. فإن قيل كيف والله -عَزَّوَجَلَّ- يقول: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ دل ذلك علىٰ أن إبليس مستثنىٰ من الملائكة؟ وفي هذا القول **عدة أمور:**

الأمر الأول: لما كان إبليس قد بلغ في الصلاح مبلغه، رفعه الله -عَزَّوَجَلَّ- إلىٰ منزلة الملائكة. والصحيح أن إبليس من الجن وليس من الملائكة، بدليل أن الله -عَزَّوَجَلَّ- قال: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾، فدل ذلك علىٰ أن إبليس من الجن.

الأمر الثاني: أن إبليس مخلوق من نار والملائكة مخلوقة من نور، وفرق بين النار والنور. كما جاء ذلك في صحيح مسلم أن النبي -صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «**خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ**»(١).

الأمر الثالث: هذا ذكره الإمام ابن حزم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- في الفِصَل، قال: في قوله :﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ دل ذلك علىٰ أن إبليس من الجن، لأن الملائكة لا يتناكحون وليس لهم ذرية، فدل ذلك علىٰ أن إبليس من الجن وليس من الملائكة. إضافة إلىٰ أن الملائكة كلهم مكرمون، بخلاف الجن ففيهم محمود وفيهم مذموم.

لكن تأملوا قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾، الذي صد إبليس عن السجود وامتثال الأمر أنه خانه أصله، فإنه خُلق من نار.

---

(١) أخرجه مسلم في كِتَابِ الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ، بَابٌ فِي أَحَادِيثَ مُتَفَرِّقَةٍ، (٢٩٩٦).

وعقد ابن القيم مقارنة جميلة جدًّا بين أصل آدم الذي هو التراب، وأصل إبليس الذي هو النار، فذكر أن النار فيها الطيش، وفيها السرعة، وفيها الإحراق؛ فكذلك هم الجن. وأن الطين والتراب فيه الثقل وفيه الركود؛ كذلك بنو آدم. وعقد مقارنة جميلة عند قوله: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف:١٢]، إن شئتم أن ترجعوا إليها وتنتفعوا بها[(١)].

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾، ففسق يعني خرج. الفِسق المراد به الخروج عن الطاعة، وأحيانًا يكون الخروج عن الطاعة مطلقًا، وهذا هو الكفر، وأحيانًا يكون غير مطلق؛ فحينئذٍ يكون هذا الفِسق المعروف الذي يقع فيه المعصية التي دون الكفر، لكن هنا المراد به الخروج عن الطاعة وهو الكفر، ولذلك كان كفر إبليس كفرَ عنادٍ واستكبارٍ.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾، وها هنا سؤال، لماذا قال: عن أمر ربه؟ لماذا لم يقل إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر الله، فجاء بلفظ الربوبية والإضافة في الضمير ربه؟ قال أهل العلم:

هذا من باب التفظيع لِفسق الشيطان، ذلك أن فسقه كان مخالفةً عن أمر مالكه، وهذا فيه تبشيع لعِظَم معصية إبليس- أعاذنا الله وإياكم منه-.

قال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ﴾، هنا الهمزة للتوبيخ والإنكار والتعجب، أي كيف تصنعون هذا؟!

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ﴾، أي أَبَعْدَ ما ظهر من إبليس من الفِسق والاستكبار

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة في الرد علىٰ الجهمية والمعطلة، لابن القيم، (٣/ ٩٩٨) ط، دار العاصمة، الرياض ١٤٠٨هـ.

ورفض السجود لأبيكم آدم وحسده أباكم آدم، كيف تتخذونه وذريته أولياء؟! وتأملوا قوله ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾، فيه أسلوب عجيب، يعني كأن الله -عَزَّوَجَلَّ- يقول هذا الذي صنع بأبيكم ما صنع، وأبىٰ عن امتثال أمر الله لأجل أنه قد حسد أباكم، واستكبر عن طاعة الله -عَزَّوَجَلَّ-، والله -عَزَّوَجَلَّ- أبعده من الجنة وأخرجه منها لأجل عداوته لأبيكم، فكيف لا تتركونه؟ وتتركون نصب العداوة له وتتبعون أمره، وإنما أنا أبعدته عن الجنة وطردته من رحمتي لأجلكم، فكيف تصنعون هذا؟! ويا -سبحان الله- كيف يصنع العاقل هذا! كيف يسلم نفسه لعدوه؟! لكنه يهلككم، أي الشيطان، بالذنوب وأنتم تهلكونه بالاستغفار.

قال: ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾، استدل بعض أهل العلم علىٰ أن الجن يتناكحون، وكذلك استدلوا علىٰ أن للشيطان ذرية، لكن يبقىٰ طريقة وجود نسله، أهي عن طريق التزويج أو غيره؟

ليس ثمة دليل أو نص صريح علىٰ تلك الطريقة، لكن الله -عَزَّوَجَلَّ- ذكر أن له ذرية.

قال: ﴿أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي﴾، لماذا جاء بلفظ ﴿مِن دُونِي﴾؟ لماذا لم تكن الآية مثلًا: «أفتتخذونه وذريته أولياء دوني»؟ يسميه أهل العلم صلة، يراد بها التوكيد، يعني كيف تصنعون هذا وتتخذونه وذريته أولياء من دوني وأنا الذي طردته وأبعدته عن رحمتي من أجلكم أنتم. قال: ﴿وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ﴾، أي الشيطان وذريته لكم عدو.
قال: ﴿بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ۝٥٠﴾، فيها **مسألتان:**

المسألة الأولى: بئس البدل للظالمين اتخاذ إبليس وذريته أولياء من دون

الله. وتأملوا، في الآية تقديم وتأخير، تقدير الآية: «بئس بدلًا للظالمين»، فلماذا قدم قوله للظالمين؟

المسألة الثانية: لماذا جاء بالاسم الظاهر الظالمين، وإلا فتقدير الكلام: «أفتتخذونه وذريته أولياء وهم لكم عدو بئس لكم بدلًا»؟ ولماذا جاء به بلفظ الظالمين؟

جاء بالاسم الظاهر مكان المضمر أصلًا للإشارة أن ما فعلوه قبيح، ومستنكر، وشنيع، هذا مناسبة الإتيان بالاسم الظاهر.

وأما الإتيان بلفظ الظالمين ليبين لهم أن هذا من الظلم، وأنه حيفٌ كبير، وهو من وضْع الشيء في غير موضعه، فقال: ﴿بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾.

﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

قوله: ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ ﴾، أي ما أحضرت الشياطينَ خلْقَ السماوات والأرض، ولا أشهدت بعضَهم خلقَ بعض، بل تفردتُ بخلقهم بغير معينٍ ولا ظهيرٍ، فكيف تصرفون لهم حقي من العبادة وتتخذونهم أولياء من دوني وأنا خالق كل شيء؟ لماذا جاء بهذه الآية وقد مر معنا تلميح لهذه الآية في الآيات التي قبلُ؟ جيء بهذه الآية لأن هؤلاء الذين اتخذوا الشيطان وأولياءه وذريته أولياء من دون الله، إنما ظنوا أن لهم شيئًا من الأمر؛ فقال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ ﴾، كذلك ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ ﴾، لست في حاجة أن أتخذ شركاء، فكيف وهم مضلين للناس؟!

قال :﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾، لماذا جيء بخلق السماوات والأرض؟ الجواب: لِعِظَمِهما وأنهما يرون فيهما العظمة أكثر من خلق الإنسان. فإبليس استنكف عن السجود لآدم؛ لأن آدم خُلق من تراب. وخلْق السماوات والأرض أكبر آية وأعظم دليل من خلق الإنسان، قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [غافر: ٥٧].

في قوله: ﴿وَمَا كُنتُ﴾ وفي قوله: ﴿ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾، في هذه الآية دليل علىٰ أن من تكلم في شيء من أمر السماوات والأرض بدون دليل شرعي أو حسي، فإنه لا يُقبل منه؛ لأنه ما أُحْضِر خلق السماوات والأرض، وليس عنده ثمة دليل علىٰ أن يتكلم في شيء من أمر السماوات والأرض. وهذا أيضًا فيه رد علىٰ الكُهان والمنجمين وغيرهم ممن يخوض في هذه الأشياء بدون علم؛ لأنه ليس عنده دليل يدل علىٰ الشيء الذي يذكره، لا حسي ولا عقلي ولا شرعي، وكذلك هو ما شهد خلق السماوات والأرض فكيف يتكلم بشيء لا يعلمه. وفي قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ٥١﴾، أي وما ينبغي لي ولا يليق بي أن أتخذ الذين يُضلون الخلق عن طريق الحق أعوانًا لي في شأن من الشؤون؛ فكيف تتخذونهم أنتم لكم أعوانًا وأولياء- سبحان الله- هذا شيء لا يقبله العقل؛ ولكن هو شيء قد زينه الشيطان لأوليائه.

وفيه تنبيه و**فائدة** مهمة، أن الضالين المضلين لا تنبغي الاستعانة بهم، وكذلك فيه النهي عن بطانة السوء ومرافقة أهل السوء، وكذلك التحذير عن مجالسة

أهل السوء؛ فإنهم لا يزيدون الإنسان الذي يجالسهم إلا خبالًا.

وها هنا سؤال، لماذا جاء بالاسم الظاهر في قوله: ﴿ٱلْمُضِلِّينَ﴾ مع أنه قال: ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾ فلم يقل في الآية «ما أشهدت المضلين»؟

قال أهل العلم: جاء بالاسم الظاهر هنا مكان المضمر لإفادة الذم، والتنبيه علىٰ وصفهم القبيح في قوله المضلين، وكذلك فيه الإشارة كما سبق وذكرنا أن المُضل والضَال لا يُستعان بهما، فالله -عَزَّوَجَلَّ- نهىٰ عن ذلك. كما ذكرنا في سورة آل عمران :﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران:٦٥]. قال: ﴿عَضُدًا﴾ العضد: الذي هو عضو من أعضاء الإنسان، وهو مكمن القوة التي يعتمد عليها الإنسان.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾

في قوله ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾، أي واذكر يوم يقول الله للمشركين يوم القيامة نادوا آلهتكم الذين كنتم تزعمون أنهم شركاء لي في العبادة لينصروكم اليوم. قلنا بالنصر لأنه في الآية قبلها قال: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾، عضدًا يعني أعوانًا وأنصارًا، فأين الشركاء الذين زعمتم أنهم لي أعوان، وأنهم لكم شركاء سينصرونكم؟ أين هم الآن؟ في قوله: ﴿نَادُواْ شُرَكَآءِيَ﴾ مسائل:

المسألة الأولى: لماذا أضافهم إليه، مع أنهم ليسوا شركاء لله -عَزَّوَجَلَّ-؟ فلماذا لم يقل مثلًا (ويوم يقول نادوا الشركاء الذين زعمتم) وقال: ﴿نَادُواْ شُرَكَآءِيَ﴾؟

قال أهل العلم: إنما أضافهم إليه مع أنهم ليسوا شركاء لله -عَزَّوَجَلَّ-، إنما هو علىٰ حد زعمهم أنهم شركاء لله -عَزَّوَجَلَّ- فزيادة في التبكيت والتوبيخ لهم، أي أين هم عنكم؟

المسألة الثانية: لماذا قدم ﴿نَادُواْ شُرَكَآءِيَ﴾ مع أن تقدير الكلام (ويوم يقول نادوا الذين زعمتم أنهم شركائي)؟ قال أهل العلم:

هذا من باب التهكم والتوبيخ لهم، ويدل علىٰ ذلك لفظ زعم؛ فلفظ زعم في الغالب أنه يطلق علىٰ الشيء الكذب، فلذلك قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾، زعم ينصب مفعولين، ومفعولا زعم محذوفان، وتقدير الكلام: «ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتموهم شركائي»، في الأصل هكذا التقدير، لكن حُذف مفعولا ﴿زَعَمْتُمْ﴾ لدلالة المعنىٰ عليهما. وفي قوله: ﴿زَعَمْتُمْ﴾ دليل علىٰ كذبهم وأنهم ليسوا شركاء، ولكن سينكشف لهم أن ما كانوا يدعون أولئك إلا غرورًا وسيتبرؤون منهم. قال الله -عَزَّوَجَلَّ- ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٦]، وتأتي المحاجّة بينهم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠-٤١]. ويقولون: ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الفرقان: ١٨]. قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ﴾، أي فعلًا دعا أولئك الشركاءَ الذين كانوا

يعتقدون أنهم شركاء، لينصروهم ويخرجوهم، وحينئذٍ «ولات حين مندم»، فلا تستجيب تلك الأصنام والمعبودات لأوليائهم، بل يتبرؤون منهم وينكرونهم ويفرون منهم.

قال: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾، وهذا في قوله -عَزَّوَجَلَّ- في سورة القصص: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [القصص:٦٢-٦٤].

قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾، أي جعلنا بين المشركين وآلهتهم التي عبدوها حائلًا ومهلكًا يفصل بينهم. ما هذا الحائل؟ الحائل الذي جُعل بين المشركين وبين آلهتهم جهنم. أين الدليل؟ سيأتي في الآية التي بعدها دليل علىٰ أن الموبق هنا هو جهنم. والنار هلكة، من دخلها فقد هلك -والعياذ بالله-.

﴿وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾، لماذا صرح بقوله المجرمون؟ جاء بالاسم الظاهر مع أن أصل تقدير الآية: «ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا ورءوا النار»، فلماذا جاء بلفظ المجرمين؟ قال أهل العلم -رحمهم الله-:

المجيء بالاسم الظاهر ﴿الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ في موقع المضمر الذي هو «ورأوهم» للدلالة علىٰ تلبُّسهم بما استحقوا به العذاب وهو الإجرام، وأن اتخاذ النِّدِّ جرم كبير.

قال الشيخ حافظ الحكمي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-:

وَهْوَ اتِّخَاذُ الْعَبْدِ غَيْرَ اللهِ ... نِدًّا بِهِ مُسَوِّيًا مُضَاهِي
يَقْصِدُهُ عِنْدَ نُزُولِ الضُّرِّ ... لِجَلْبِ خَيْرٍ أَوْ لِدَفْعِ الشَّرِّ
أَوْ عِنْدَ أَيِّ غَرَضٍ لا يَقْدِرُ ... عَلَيْهِ إِلَّا الْمَالِكُ الْمُقْتَدِرُ
مَعْ جَعْلِهِ لِذَلِكَ الْمَدْعُوِّ ... أَوِ الْمُعَظَّمِ أَوِ الْمَرْجُوِّ
فِي الْغَيْبِ سُلْطَانًا بِهِ يَطَّلِعُ ... عَلَىٰ ضَمِيرِ مَنْ إِلَيْهِ يَفْزَعُ(١)

فهذا من الإجرام والظلم الكبير. وأيضًا جاء بالاسم الظاهر في قوله: ﴿ٱلنَّارَ﴾ هذا الدليل الذي ذكرت لكم علىٰ أن الموبق هو النار، مع أن تقدير الكلام المفترض أن يقول: «وجعلنا بينهم موبقًا ورأوها فظنوا أنهم مواقعوها». فلمّا قال: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ دل علىٰ أن الموبق هو النار. قال: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾، وهم يرونها رؤيا عين، وتراهم جهنم -والعياذ بالله- وتكاد تميَّزُ من الغيظ، ويسمعون لها صوتًا وتكلمهم. قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ [الفرقان: ١٢-١٤].

وتتكلم جهنم ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ [ق: ٣٠].

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَظَنُّوٓاْ﴾، وهاهنا خلاف بين المفسرين في المراد بالظن، هل هو الظن علىٰ بابه الذي هو ترجيح أحد الاحتمالين؟ لأن عند الشك تَساوىٰ

---

(١) انظر: معارج القبول بشرح سلم الوصول إلىٰ علم الأصول، حافظ بن أحمد بن علي الحكمي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-، (١/ ٣٣)، ط دار ابن القيم – الدمام، ١٤١هـ.

الاحتمالان. الظن: رَجَحَان أمرٍ علىٰ أمر، فهل المراد به اليقين؟ قولان للمفسرين:

القول الأول: الظن علىٰ بابه، وهو أنهم لا زال عندهم أمل في رحمة الله -عَزَّوَجَلَّ- مما يرون من تنزُّل الرحمات والخيرات، فإن لله -عَزَّوَجَلَّ- مِائةَ رحمة، أنزل منها واحدة يتراحم بها الخلق والحيوان والبهائم حتىٰ ترفع الدابة حافرها عن ابنها خشية أن تهلكه، وأبقىٰ عنده تسعة وتسعين جزءًا، حتىٰ الشيطان يتطاول، يرفع رأسه من كثرة ما يرىٰ من رحمة الله، يريد أن تدركه رحمة الله. فنسأل الله أن يرحمنا ويتجاوز عنا وعنكم!

القول الثاني: إن المراد بالظنّ: اليقين، أي فرأىٰ المجرمون النار فتيقنوا أنهم مواقعوها. وهذا قول أكثر المفسرين، أن الظنّ المراد به اليقين.

فما الفائدة في رؤية جهنم ولم يقعوا فيها بعد؟ هي مصيرهم ولكن من باب تعجيل الهم والحزن والألم النفسي لهم قبل دخولها -والعياذ بالله- فكيف إذا دخلوها؟! قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾، تيقنوا أنهم سيكون مصيرهم إليها، وأنهم سيقعون فيها وأنهم سيُلقون فيها وسينبذون فيها. قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ٩﴾ [القارعة: ٨-٩]. قيل علىٰ قول من أقوال المفسرين: إنه يهوي في النار علىٰ أم رأسه -والعياذ بالله-، فَيُلْقىٰ فيها وتدفعهم الملائكة.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ١٣﴾ [الطور: ١٣]، يدفعون بشدة وقوة وغلظة -والعياذ بالله-. قوله: ﴿وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ٥٣﴾، أي لم يجدوا مكانًا ينصرفون إليه، فيُصَرفون عن الوقوع فيها، ولم يجدوا طريقًا يصرفهم عن الوقوع في جهنم، بل الطريق إلىٰ جهنم مذلَّلٌ معبدٌ لهم -والعياذ بالله-.

قال: ﴿وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ٥٣﴾، في الكلام حَذْف، تقديره: «فظنوا أنهم مواقعوها وحاولوا الانقلاب والانصراف عنها فلم يجدوا عنها مصرفًا».

نسأل الله -سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ- أن يجيرنا وإياكم من النار، اللهم أجرنا من النار، اللهم أجرنا من النار، اللهم أجرنا من النار، اللهم إنا نسألك الجنة وما قرّب إليها من قول وعمل، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل، ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غرامًا إنها ساءت مستقرًا ومقامًا.

❋ ❋ ❋

الدرس الثالث عشر
(٥٤-٥٦)



﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾

هذه الآيات تتعلق بالحديث عن القرآن الكريم؛ وسبق أن ذكرنا لكم في بداية هذه السورة، أن المقصد الأساسي من هذه السورة، هو الفرار من الفتن والتعوّذ منها، وليس ثمة شيءٌ ينجي من الفتن إلا التمسك بالقرآن الكريم. قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ»[1].

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾، هذه الآية **مناسبتها** لما قبلها أن الله -عَزَّوَجَلَّ- لما ذكر افتخار الكافرين علىٰ الفقراء من المسلمين بأنهم أكثر أموالًا

---

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ: كتاب الجامع، باب النهي عن القول بالقدر، (١٨٧٤). وحسنه الألباني مشكاة المصابيح، (١٨٦).

وأتباعًا، وأنهم يأنفون ويستكبرون عن مجالسة المؤمنين، وقد بيَّن الله -عَزَّوَجَلَّ- فساد قولهم ودفع شبههم الباطلة من عدة وجوه؛ فضرب لهم الأمثلة في مثل الرجلين ومثل الحياة الدنيا؛ ثم تكلم بعد ذلك عن عداوة إبليس، وأن هذا سبيل الشيطان... إلخ. فما ذكره -عَزَّوَجَلَّ- هو من باب التمثيل وضرب الأمثلة وسوق الحجج.

وقوله: ﴿صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾، أي نوعنا وكررنا وبيَّنَّا في هذا القرآن للناس من الأمثال بعبارات مختلفة وأساليب متنوعة؛ ليعقلوا ويتذكروا ويتعظوا ويهتدوا ويؤوبوا.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ- هنا في سورة الكهف: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ﴾، بينما ذكر -جَلَّوَعَلَا- في سورة الإسراء قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء:٨٩]، فلماذا جاء بالتقديمِ هنا في قوله: ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ في هذه الآية؟

الجواب: لأن الحديث هنا فيه التنويه بشأن القرآن الكريم ورفعة شأنه وعلوه، وأنه مصدر الهداية، أولىٰ وأجدر، وجاء فيه ضرب الأمثلة، فلذلك قُدِّم هنا. قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾، فكان التنويه هنا بشأن القرآن، خلاف الآية التي في سورة الإسراء.

قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، هنا انتهىٰ الكلام، فما مناسبة جملة ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ بعد هذا الكلام؟

الجواب: هنا في الآية كلام محذوف حتىٰ يتناسب مع نهاية الآية، والكلام المحذوف يقدر بقوله: «ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثلٍ فجادلوا فيه»، ثم قال: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ وهنا يتضح الكلام.

قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ اُختُلِف في المراد بالإنسان هنا علىٰ **قولين**:

القول الأول: المراد بالإنسان هنا الكافر.

القول الثاني: المراد بالإنسان هنا اسم جنس، فيشمل كل من يصلح أن يطلق عليه هذا الإنسان.

لكن الذي يظهر -والله أعلم- أن الإنسان هنا المراد به الكافر؛ والدليل في الآيات، بعدها بآيتين قال: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ﴾، فدل ذلك علىٰ أن المراد بالإنسان هنا الكافر. لكن قد يُشكل عليه ما جاء في الصحيح من حديث عَلِيِّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ-: أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ بِنْتَ النَّبِيِّ -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- لَيْلَةً، فَقَالَ: «**أَلاَ تُصَلِّيَانِ؟» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللهِ، فَإِذَا شَاءَ أَن يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا، فَانْصَرَفَ حِينَ قُلْنَا ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُوَلٍّ يَضْرِبُ فَخِذَهُ، وَهُوَ يَقُولُ:** ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ٥٤﴾»[1].

هنا **مسألة**: هل تُنَزَّلُ الآيات التي وردت في شأن الكافرين علىٰ المسلمين؟ الجواب فيه تفصيل:

إذا كانت الصفة التي جاءت فيها الآيات في شأن الكافرين مشتركة بين المسلمين والكافرين، فيجوز أن تُطْلَقَ علىٰ المؤمن والكافر.

أما إذا كانت مختصة بالكافرين، فلا يجوز أن تطلق علىٰ المؤمنين. مثلا لو

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التهجّد، بَابُ تَحْرِيضِ النَّبِيِّ -ﷺ- عَلَىٰ صَلاَةِ اللَّيْلِ وَالنَّوَافِلِ مِنْ غَيْرِ إِيجَابٍ، (١١٣٧).

كانت الآية في الحديث عن الشرك، فحينئذٍ الشرك مختص بالكافرين؛ فلا يجوز أن تطلق الآية علىٰ المؤمنين؛ لكن الآية المختصة بشيء بشري، مثلًا الجدل يقع من المسلم ويقع من الكافر، فحينئذ يجوز أن يُستشهد بالآية في حق المؤمن وفي حق الكافر.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ٥٤﴾، في قوله: ﴿أَكۡثَرَ﴾، هذا اسم تفضيل، يعني فيه كثير وفيه أكثر، فهل اسم التفضيل علىٰ بابه؟

الجواب: لا، ليس هناك مفاضلة بين كثير وأكثر، إنما هنا جيء باسم التفضيل أكثر، والقصد منه المبالغة في شدة جدل الإنسان وجنوحه إلىٰ المحاورة والنزاع.

قوله: ﴿شَيۡءٖ﴾ استدل بعض أهل العلم علىٰ جواز إطلاق لفظ الشيء علىٰ الإنسان.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿جَدَلٗا ٥٤﴾، أي مجادلةً ومخاصمةً، وهذا واقعٌ حقيقةً؛ فإن الإنسان كثيرًا ما يجادل ليُظهِر نفسه، أو لمجرد العناد ونحو ذلك، فسبحان الله! ولذلك حذّر السلف -رحمهم الله- من الجدال.

قال الحسن البصري -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: «إنه ما أُوتي أحد لجدل إلا حُرم التوفيق للحق».

قال النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ-: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا»(١). فالجدال صفة ذميمة، ولكن ليس دائمًا، لكن أن يأخذ الإنسان ديدنه الجدال في كل شيءٍ فهذا من الصفات الذميمة.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه في كتاب الأدب، بَابٌ فِي حُسْنِ الْخُلُقِ، (٤٨٠٠)، قال الألباني حسن في سنن أبي داود.

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ ﴾

لماذا جاء بلفظ الناس وأظهر الاسم الظاهر، مع أنّ تقدير الكلام يكون: «ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيءٍ جدلًا وما منعهم أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدىٰ ويستغفروا ربهم»؟

قال بعض أهل العلم:

إنما جيء بلفظ الناس هنا؛ لأن الناس هنا لفظ مغاير عن الناس في صدر الآية، فقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ﴾ قيل: المراد بالناس هنا في الآية الأولىٰ من كان في عهد النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ممن حضر الوحي وجادل، واستنكف عن مجالسة المؤمنين، بينما الناس في الآية الثانية ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾، المراد عموم الناس.

قال: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾، المراد بالناس هنا علىٰ قولين عند أهل العلم:

القول الأول: قيل المراد بهم الكفار والمشركون في عهد النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ويكون المراد بالهدىٰ في قوله: ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ ﴾ ما جاء به النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

القول الثاني: قيل المراد بالناس هنا العموم، فيدخل فيه الكفار في عهد النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ويدخل فيه الكفار في الأمم السابقة، فيكون المراد بالهدىٰ الإسلام بمعناه العام.

قال: ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾، أليس الاستغفار من الهدىٰ؟ الجواب: بلىٰ.

فلماذا ذكر هنا الاستغفار؟ الجواب: لفتح باب التوبة لهم، وهذا من كرم الله -عَزَّوَجَلَّ- وفضله ورحمته بعباده، أن يفتح لهم باب التوبة.

ولذلك سيأتي معنا بعد -إن شاء الله- في الآيات القادمة قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾.

وهذا من فضل الله -عَزَّوَجَلَّ- وكرمه ورحمته ومنَّته، أن يفتح لأولئك الذين يصدون الناس عن سبيله ويعادون أولياءه، ويجادلون في آياته، باب التوبة.

ولذلك لما قال الله -عَزَّوَجَلَّ- في سورة المائدة: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، ماذا قال بعدها؟ مع أنّه سبق معنا أن هذا القول عظيم، قال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: ٧٤]. فالذي يُقَنّط الناس من رحمة الله -عَزَّوَجَلَّ- ويُغْلق عليهم باب التوبة، فهذا إنسان لا يفقه شيئًا من كتاب الله -عَزَّوَجَلَّ-، أو من سنة النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-. بل ينبغي له أن يفتح للناس باب التوبة، وأن يرغِّبهم في رحمة الله -عَزَّوَجَلَّ-، وأن يذكر لهم من رحمته وفضله وجوده وإقباله علىٰ عبده التائب، فإن الله -عَزَّوَجَلَّ- يفرح بتوبة عبده إذا تاب إليه.

فهذا من فضل الله -عَزَّوَجَلَّ- أنه فتح لنا باب التوبة ودعانا إليه، وأنه يقبل من يتوب إليه ويؤوب.

فقال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾، ثم قال: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾، ثم قال: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر:٥٣-٥٥].

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾، تأمل لماذا جاء بلفظ ﴿رَبَّهُمْ﴾؟ وانظروا عظمة القرآن لم يقل مثلًا: «إذ جاءهم الهدىٰ ويستغفروا الله أو يستغفروا خالقهم» فأضافهم إليه -جَلَّوَعَلَا-.

جاء بلفظ الربوبية للعناية والرعاية بهم، والإقبال والتودُّد والعطف ورحمته -عَزَّوَجَلَّ- بهم.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾.

اختلف المفسرون في معنىٰ هذه الآية، علىٰ ثلاثة أقوال:

القول الأول: إن هؤلاء الناس لا يؤمنون حتىٰ يأتيهم العذاب، فإذا أتاهم العذاب آمنوا، وحينئذٍ لا ينفعهم إيمانهم لقوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الشعراء: ٢٠١].

القول الثاني: معنىٰ الآية: «وما منع الناس أن يؤمنوا إلا الذي منع الأولين قبلهم، من العناد وتكذيب الرسل».

القول الثالث: يكون تقدير الآية: «وما منع الناس من الإيمان إلا طلب مجيء العذاب، كما أتىٰ الأولين عند امتناعهم من الإيمان».

فهذه ثلاثة أقوال ذكرها المفسرون -رحمهم الله- في معنىٰ هذه الآية. والكل محتمل.

قال: ﴿سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾، يعني عادة الأولين. قال ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾، قوله "أو" هل هي علىٰ بابها في التخيير أم لا؟ ثلاثة أقوال لأهل العلم:

القول الأول: ﴿أَوْ﴾ هنا بمعنىٰ: «الواو»، ويأتي هذا كثيرًا في القرآن، فيكون

تقدير الآية: «إلا أن تأتيهم سنة الأولين ويأتيهم العذاب قبلًا».

القول الثاني: ﴿أَوْ﴾ لوقوع أحد الشيئين، فتكون علىٰ بابها إما يقع هذا ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، أو يقع ﴿يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ٥٥﴾.

القول الثالث: ﴿أَوۡ﴾ للتبعيض، فيكون تقدير الكلام: «يقع أن تأتيهم سنة الأولين فتقع ببعضهم، ويقع العذاب ببعضهم الآخر».

قوله: ﴿ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ٥٥﴾، اختلف المفسرون -رحمهم الله- في المراد بالعذاب هنا علىٰ قولين:

القول الأول: قال بعضهم المراد بالعذاب هنا هو عذاب الآخرة.

القول الثاني: قال المراد بالعذاب هنا هو العذاب الدنيوي.

هذه الآية في حق كفار قريش الذين أَنِفوا من مجالسة المسلمين، فجاءهم العذاب الدنيوي، وشاهدوه في بدرٍ، فقُتل صناديدُهم، فحينئذٍ يكون سنة الأولين وقوع العذاب، وهذا يحصل لهم في الدنيا ولكنه علىٰ درجات متفاوتة، يعني يقع متراخيًا، يقع شيء من العذاب، ثم بعد فترة يقع شيء من العذاب، ثم بعد فترة يقع شيء من العذاب.

أما قوله: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ٥٥﴾، يعني يأتيهم مرةً واحدةً ودفعةً واحدةً، وهذا المعنىٰ يتصرف عليه القراءات الواردة في قوله: ﴿قُبُلٗا﴾، ففيها قراءتان:

القراءة الأولى: ﴿قِبَلٗا﴾ بكسر القاف وفتح الباء ﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قِبَلٗا ٥٥﴾، فيكون معنىٰ الآية علىٰ هذه القراءة: «يأتيهم العذاب أمام وجوههم معاينةً يرونه، فيكون مقابلًا لهم يرونه أمام أعينهم».

القراءة الثانية: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ٥٥﴾ التي نحن نقرأ بها بضم القاف والباء، وهذه لها معنيان:

المعنى الأول: نفس معنىٰ القراءة بكسر القاف وفتح الباء، ﴿قُبُلٗا﴾ أن يأتيهم العذاب معاينةً أمام وجوههم فيرونه، يعني: يقابلهم.

المعنى الثاني: بضم القاف والباء ﴿قُبُلٗا﴾ جمع قبيل، أي: صنفًا، صنفًا، ونوعًا نوعًا، أي يأتيهم العذاب أنواعًا وأصنافًا مختلفةً، يتلو بعضها بعضًا. يأتيهم العذاب أنواعًا أنواعًا، تارةً بالخوف، وتارةً بالجوع، وتارةً بحسبان من السماء... إلخ.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ٥٥﴾، ولذلك إذا جادل الناس وعاندوا رسولهم وطلبوا الآيات واستنكفوا عن قبول عبادته، يأتيهم العذاب مباشرة. ولذلك لما طلب كفار قريش من النبي -صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- أن يقلب لهم جبل الصفا ذهبًا أو بطحاء مكة ذهبًا، جاءه جبريل فأخبره أنه لو فعل ولم يؤمنوا فإنه سيهلكهم، فقال النبي-صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-: لا[(١)]. فحينئذٍ عندما تستعصي الأمم علىٰ أنبيائها ولا يؤمنون بعد ذلك، يأتيهم العذاب مباشرةً ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ١١٧ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٨ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١١٩ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ١٢٠﴾ [الشعراء: ١١٧-١٢٠]، كما في قصة سورة المائدة: ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، يعني: هل تستطيع أن تسأل ربك "تدعوه" أن ينزل علينا مائدةً من السماء ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١١٢ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا..﴾ إلىٰ أن قال الله -عَزَّوَجَلَّ-:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، (٢١٦٦)، وقال الألباني صحيح علىٰ شرط مسلم في الصحيحة، (١١٥٨).

﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١١٥﴾ [المائدة: ١١٢-١١٥]. فاذا جاءت الآيات وما طلبه أولئك الكفار ولم يؤمنوا، يهلكهم الله –عَزَّوَجَلَّ–.

﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ٥٦﴾

ما مناسبة هذه الآية لما قبلها؟ الجواب: كأن الله –عَزَّوَجَلَّ– يقول لهؤلاء الكفار الذين طلبوا من أنبيائهم الآيات وأن يفعلوا لهم كذا حتىٰ يصدِّقوهم، فيقول الله –-عَزَّوَجَلَّ: ليس للأنبياء والمرسلين شيءٌ من هذا الذي أنتم تريدون، وليس بأيديهم أن يأتوا لكم بالآيات التي طلبتم، وليس بأيديهم أن يوقعوا العذاب الذي أعده الله لكم، وليس لهم أن يدعوكم إلىٰ عبادتهم، وليس لهم أن يجيبوا أقوامهم إلىٰ ما طلبوا من الآيات المقترحة أو نحو ذلك، ليس لهم هذا، إنما هم مبشرون ومنذرون فقط، وليس لهم هذا.

ولذلك قال الله –عَزَّوَجَلَّ– في سورة الإسراء لما قالوا: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ٩١﴾، انظروا إلىٰ طلباتهم التي تبين عنادهم ﴿أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ﴾، فماذا كان الرد؟ ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٣﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣]. أنا بشر رسول تطلبون مني أشياء لا أستطيعها؛ فليس للأنبياء شيء قط، لا يستطيعون أن يجيبوكم إلىٰ ما تطلبونه من الآيات، ولا يستطيعون أن يجلبوا لكم ما تتحدثون عنه من

العذاب. وهذا مصداقه في سورة هود -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾، بماذا رد عليهم نوح -عَلَيْهِ السَّلَامُ-؟ قال: ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [هود: ٣٢-٣٤]، أي أنا ليس لي في هذا الأمر شيء؛ فجاءت مناسبة ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾. ليس للأنبياء إلا هذه المهمة. وفيه تسلية أخرىٰ للأنبياء والرسل، ما هي؟ تدل الكلمة التي بعدها تدل علىٰ أن مهمتهم البلاغ فقط. فحينئذٍ الجدال ومحاولة الإقناع وجلب الآيات ما ينفع، فقط ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ﴾ [المائدة:٩٩]. والهداية بيد الله -عَزَّوَجَلَّ-، ثم قال: ﴿وَيُجَـٰدِلُ ﴾، جيء بالفعل المضارع يجادل للاستمرار، والمراد أنهم لا يزالون يجادلونكم حتىٰ يردوكم عن دينكم إن استطاعوا، لا يزالون يقاتلونكم ويجادلونكم ويحاولون أن يثنوكم، وكل يوم يأتون بشبهات، وكل يوم يطلبون اقتراحات وآيات، وهكذا ديدنهم إلىٰ قيام الساعة. يقولون ما دام أنتم مسلمين وعلىٰ الحق، لماذا أنتم فقراء مثلًا؟ المسلمون ما عندهم الخيرات والأمطار والأنهار... إلخ في الدنيا بعكس بلاد الكفر، جدال فقط، وأحيانًا يستخدمون هذا الجدال ليصدوا الناس عن دين الله -عَزَّوَجَلَّ- فيأتون بالشبهات.

ولذلك قال أهل العلم: جدال المنافقين والكفار بالحجة أفضل من جهادهم بالسنان.

إن بيان الحق للناس أمر مهم جدًّا، ويصبر الإنسان علىٰ أذىٰ المخالفين والمعاندين في بيان الإسلام، ويمتثل قوله -تعالىٰ-: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾، فأنت أيها الداعية إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ- ليس لك إلا البلاغ فقط، الهداية بيد الله -عَزَّوَجَلَّ-، ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٦٥].

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾، أي جدالهم بالباطل. لماذا جيء بقوله ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ فمعلوم أن جدالهم بالباطل؟ لأن هذا هو الأصل، فجدالهم ليس لأجل أن يعرفوا الحق، بل لأجل دفع الناس عن الدين وعدم استجابتهم للإسلام، ومن باب التعنّت. فكيف جدالهم يكون بالباطل؟

قال أهل العلم: تارةً يقولون هذا سحر، وتارةً يقولون هذا شعر، وتارةً يقولون هذا أساطير الأولين، ومرةً يصفون النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بأنه مجنون، وحاشاه عليه الصلاة والسلام ذلك، ومرةً يقولون هذا بشر وكيف يُبعث بشر! وتارةً يقولون هذا الذي قاله محمد إنما هو اختلاق... إلخ.

وهنا **فائدة:** إلىٰ الدعاة إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ-، اعلموا أن الكفار يستخدمون نفس الطريقة نفسها، والخُطىٰ نفسها، إلا أنها تتغير عندهم الوسائل في الصدَّ عن الدين، وإلا فهو طريقٌ يسيرون عليه إلىٰ قيام الساعة. والدليل، قال الله -عَزَّوَجَلَّ- في سورة الذاريات: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾، الشاهد في الآية التي بعدها في سورة الذاريات: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ﴾ [الذاريات:٥٢-٥٣]، يعني: هل وصَّىٰ بعضهم بعضًا بهذا؟ كلما جاء رسول قالوا نفس الكلام، ساحر، مجنون،... إلخ، وهكذا إلىٰ قيام الساعة، كلما جاءهم داعية فدعاهم إلىٰ الحق وبين لهم الحق، قالوا: هذا مجنون، هذا مُتخلِّف، هذا رجعي، وهذا كذا، الطريقة نفسها، فقط تختلف الوسائل، ولذلك الذي يتقن منهج القرآن الكريم يستطيع أن يتعامل مع المخالفين، وهذا ديدنهم.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّۖ﴾، تأمل أيها المبارك كلمة ﴿لِيُدْحِضُواْ﴾، انظروا هذه الكلمة الجميلة، ومعناها الإبطال والإزالة، لكن هناك معنًىٰ زائد وهو: أن

أولئك يسعون بأن يغيروا الحق، ويزيلوه من الوجود نهائيًا، هذا هو هدفهم وبكل جهد، ولكن الله -عَزَّوَجَلَّ- قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة: ٣٢]. وقال: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف: ٨]. وهؤلاء يريدون أن يزيلوا الحق تمامًا، ولكن بماذا رد عليهم؟ قال: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١]. فلذلك لا تبتئسوا حينما تنظرون جَلَد الكفار والمنافقين، وسعيهم في صد الناس عن الدين وقوتهم وصبرهم، فإن هذا علامةٌ علىٰ أن الله -عَزَّوَجَلَّ- يُظهر دينه. ولذلك نعوذ بالله من جَلَد المنافق وعجز الثقة.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾، انظروا ختام الآية، أليس اتخاذ الآيات من دحض الحق الذي يريدونه ومن جدالهم؟

لكن هنا **فائدة:** أن هؤلاء يستخدمون أسلوب التشويه للدين، وليس فقط يريدون أن يبطلوا الدين، يريدون أن يشوهوا صورة الإسلام والدين في أذهان الناس، ويبينوا لهم أن هذا الشيء ليس حقًا، وهذا -والعياذ بالله- من شدة تنفير الناس عن الحق.

قال: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ﴾ أي: جعلوا ﴿ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾، أليس الإنذار من الآيات؟ الجواب: بلىٰ، هو من الآيات، هذا ما يسميه العلماء: عطف الخاص علىٰ العام. قال أهل العلم: هذا فيه دلالةٌ علىٰ توغّلهم في الكفر، وحمق عقولهم، فكيف يتخذون آيات الله -عَزَّوَجَلَّ- وما جاءت به الرسل هزوًا وسخريةً؟!

فاصبروا أيها الدعاة إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ- ورابطوا، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. الإسلام له ثغور،

فإياك إياك أن يؤتىٰ الإسلام من قِبَلك، وإياك أن يأتيك اليأس ويدبَّ إلىٰ قلبك الحزن والهم حينما تنظر إلىٰ صولة الكفر وجولته وضعف المسلمين، فإن الله -عَزَّوَجَلَّ- ناصرٌ أولياءه، والأيام دُوَل ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. فلا يَصُدَنَّك ما فيه أهل الكفر عن هذا الدين، فإنه قد يكون من الفتن والافتتان بما عليه الكفار. نحن نتكلم الآن عن محور السورة في الفتن، ومن الفتن الاغترار بما عليه الكافرون من بسط العيش ورغده وقوته وإلىٰ ذلك. فأقبِلوا علىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ- واصبروا وفِرُّوا من هذه الفتن، واثبتوا ببيان الإسلام ومحاسنه وفضله، وهل أنتم إلا دعاة تتبعون الأنبياء والرسل، والله -عَزَّوَجَلَّ- قال في الآيات: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

يتذكر الإنسان حديث النَّبِيِّ -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-، حين قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ - يعني أقل من عشرة -، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»(١).

يعني هناك أنبياء ما استجاب لهم أحد، نبي مؤيَّد من الله -عَزَّوَجَلَّ- بوحي، فكيف بغيره؟! ولَيُخرِجنَّ الله -عَزَّوَجَلَّ- من أصلاب أولئك المعاندين أناسًا موحدين.

فالنبي -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- قال هذه الكلمة: لعل الله -عَزَّوَجَلَّ- أن يخرج من أصلابهم من يقول لا إله إلا الله، ففعل؛ فخرج من صلب أبي جهل عكرمة، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ومن صلب الوليد بن المغيرة خالد بن الوليد، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ومن صلب الحارث بن

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، بَابُ الدَّلِيلِ عَلَىٰ دُخُولِ طَوَائِفَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، (٢٢٠).

هشام عبد الرحمن، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ونصروا الإسلام. فلا تبتئسوا، بل بلغوا عن النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- ولو آية، كما قَالَ -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»[1]. وإنما الدنيا هذه صبر ساعةٍ، ويجتهد الإنسان في أن يكون داعيةً إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ-، وله الشرف أن ينضم تحت هذا اللواء، لواء الدعوة إلىٰ الله، عَزَّوَجَلَّ، فنسأل الله -عَزَّوَجَلَّ- أن يجعلنا وإياكم ممن ينصر هذا الدين.

❋ ❋ ❋

(١) أخرجه البخاري في كِتَابِ أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ، بَابُ مَا ذُكِرَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، (٣٤٦١).



الدرس الرابع عشر
(٥٧-٥٩)

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ
إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ
وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾

هذه الآية قيل في مناسبتها لما قبلها: إن الله -عَزَّوَجَلَّ- لما حكىٰ عن الكفار جدالهم بالباطل في قوله: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّۖ﴾ وصفهم بعد هذا الجدال بهذه الصفات الموجبة للخزي والخذلان. وهذه الآية فيها تخويف لمن ترك الحق بعد علمه أن يُحال بينه وبين الحق؛ فلذلك الذي يعلم الحق ولا يعمل به، هو كحال اليهود المغضوب عليهم، ومن يعمل بلا هدًىٰ ولا علم كالنصارىٰ الذين وصفهم الله -عَزَّوَجَلَّ- بالضالين.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ﴾، قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، أي لا أحد أظلم ممن ذُكِّر بآيات ربه.

اختلف المفسرون -رحمهم الله- في المراد ﴿بِئَايَٰتِ﴾، علىٰ **قولين**:

القول الأول: إن المراد ﴿بِئَايَٰتِ﴾ هو القرآن، ويدل عليه قوله -جَلَّوَعَلَا-: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾، فالضمير يعود علىٰ القرآن؛ لأنه لو كانت آيات غير القرآن لقال: أن يفقهوها. فقالوا: دل ذلك علىٰ أن المراد ﴿بِئَايَٰتِ﴾ هنا القرآن.

القول الثاني: المراد ﴿بِئَايَٰتِ﴾ يشمل الآيات الشرعية التي هي القرآن، ويشمل الآيات الكونية، ويكون الضمير في قوله: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ يعود إلىٰ ما ذكر من الآيات.

في قوله: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾، لماذا جاء هنا بقوله فأعرض، وفي سورة السجدة قال: ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ [السجدة:٢٢]؟ في ذلك **قولان**:

القول الأول: جيء «بالفاء» في قوله: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ إشارة إلىٰ سرعة إعراضهم وعدم تمهَّلهم وتأملهم.

القول الثاني: قيل ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ الخطاب موجه للكفار الأحياء، بينما في سورة السجدة ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ [السجدة:٢٢] الخطاب موجه للكفار الأموات؛ لأنه يفيد التراخي.

قوله: ﴿وَنَسِيَ﴾، المراد بالنسيان التغاضي عن العمل. وقوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، هذا الأسلوب فيه اضطراد في القرآن علىٰ أنه يراد به العمل السيئ، فمهما مر بك في القرآن قوله: ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، فاعلم أنه يراد به العمل السيئ.

فهنا نسب العمل إلىٰ اليدين مع أنه قد تكون هناك أعمال بالقلب وأعمال باللسان؛ فلماذا قال: ﴿مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ﴾؟

قال أهل العلم: لأن اليد أكثر مزاولةً للأعمال من غيرها من الأعضاء، فغالب الأعمال تكون باليد، فنسبت الأعمال إليها علىٰ عادة العرب.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ﴾.

قال أهل العلم -رحمهم الله-: هذه الجملة تعليل لإعراضهم ونسيانهم، فهم قد طُبعت قلوبهم فأعرضوا عن الحق، كأن الآية تقول: «ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه لأنا جعلنا علىٰ قلوبهم أكنة أن يفقهوه»، أي إعراضهم عن الحق ونسيانهم ما قدمت أيديهم هو لأجل ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ﴾.

قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾، قوله: ﴿أَكِنَّةً﴾ مأخوذة من «كَنَنَ» الذي يدل علىٰ الستر والتغطية، أي جعلنا علىٰ قلوبهم أغطية أن يفقهوه.

في قوله: ﴿أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ قيل: الضمير يعود علىٰ القرآن، كما سبق.

وأخذ بعض أهل العلم منه **فائدة:** حثُّ الإنسان المسلم علىٰ فقه القرآن، وأنه ينبغي للإنسان أن يتعلم معاني القرآن؛ إذ المقصود الأعظم من نزول القرآن هو التدبر والفقه والعمل به. قال -سبحانه-: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص: ٢٩]، وقال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة:١٢١]، المقصود بالتلاوة ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ هي الاتباع، ولا يكون

ذلك إلا بفهم معاني القرآن، ولذلك إن الله يحب لعبده أن يفقه معاني كلامه. فالحمد لله، فهذه الدروس -بعون الله تبارك وتعالىٰ- تعينكم علىٰ فهم معاني كلام الله -عَزَّوَجَلَّ- لهذه السورة المباركة، وكلما ازداد الإنسان فهمًا للقرآن وتدبرًا، ازداد بركة وعلمًا نافعًا.

فَتـدبَّرِ القـرآنَ إن رُمـتَ الهُـدىٰ ... فـالعلمُ تحـتَ تَـدبُّرِ القـرآنِ

فتدبر القرآن لا بد أن يكون مبنيًا علىٰ الأصول العلمية، ليس للإنسان أن ينظر في المصحف ابتداءً ويستخرج ويتدبّر دون أن يقرأ ويفهم؛ إذ التدبر نتيجة لفهم الآيات.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾، فَمَنْعُ الله -عَزَّوَجَلَّ- لهؤلاء بأن يفقهوا كلامه هو الإدراك الذي يُنْتَفع به، وإلا فهم قد بلغهم القرآن وفهموا معانيه بما تقوم به الحجة عليهم، لكنهم لم ينتفعوا بهذا العلم، وهو كقوله -جَلَّوَعَلَا-: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ [الصف: ٥]، فليس المقصود بأنهم لم يفقهوا القرآن ابتداءً، ولو كان الأمر كذلك لكان هذا شيئًا محالًا، كيف يعذب علىٰ شيء وهو قد صرف عنه؟! ولكن المقصود به العلم أو الإدراك أو الفقه الذي يُنْتَفعُ به، أما إقامة الحجة فقد أقام الله عليهم الحجة.

قوله: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ﴾، الوقر معناه: الثقل أو الصمم. وهؤلاء معلوم أنهم سمعوا القرآن، ليس المراد أنهم صُمٌّ لم يسمعوا القرآن، بل سمعوه واستمعوا إليه، لكنهم لم ينتفعوا بهذا السماع فأعرضوا عن القرآن؛ وإلا قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ٢٦﴾ [فصلت: ٢٦]. فهم أرادوا

أن يَنفِرُوا من القرآن ويُنَفِّرُوا الناس عنه. قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ﴾ [الأنعام: ٢٦]. وقال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠﴾ [الملك: ١٠].

وهذه **فائدة**: أن الإنسان إذا أعرض عن الحق بعدما فهمه وعلمه، فإنه يُحرم الخير بسبب إعراضه.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾، أي وإن تدعهم يا محمد إلىٰ الهدىٰ الذي جئت به من الله -عَزَّوَجَلَّ- فلن يهتدوا إذا أبدًا.

قوله: ﴿فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٥٧﴾، هذا ظاهره أنهم لن يسلموا. وللعلماء -رحمهم الله- في توجيه هذه الآيات **وجهان معروفان**:

الوجه الأول: يوجه قوله: ﴿فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٥٧﴾، إلىٰ الذين سبق في علم الله -عَزَّوَجَلَّ- أنهم أشقياء، فهؤلاء لن يهتدوا أبدًا، ولذلك جاء بقوله: ﴿فَلَن﴾ النفي.

الوجه الثاني: الذي دائمًا يوجه العلماء به مثل هذه الآية ﴿فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٥٧﴾، أن المراد أنهم ما داموا كذلك متلبسين بالكفر فإن أبوا أن يرجعوا إلىٰ الحق وأعرضوا عنه ﴿فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٥٧﴾، فإن زال المانع يهتدوا. ولكن الوجه الأول هو الأظهر، والله أعلم، ويكون هذا من العام المخصوص؛ ﴿فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٥٧﴾، عام لقوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ﴾، فيكون قد خُص بمن سبق في علم الله -عَزَّوَجَلَّ- أنهم أشقياء لن يؤمنوا. ولذلك لما نزلت علىٰ الرسول -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- سورة المسد ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١﴾ [المسد: ١]، وقال الله -عَزَّوَجَلَّ-:﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ٣﴾، [المسد: ٣]

انتهىٰ النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وكفَّ عن دعوة أبيٰ لهب؛ لأن الله -عَزَّوَجَلَّ- أخبره بأنه لن يسلم وأنه ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ ﴾.

وقوله: ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ۝٥٧ ﴾، فيه تسلية للنبي، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أي أنك قد بلّغْت ما أُنزل إليك من ربك، لكن هؤلاء بسبب إعراضهم عن الحق ونسيانهم أعمالهم السيئة دون أن يتفكروا فيها، كانوا علىٰ باطل. فاعلم أنك قد أديت الرسالة؛ لكن هؤلاء لم يرِد الله أن يشرح صدورهم للإسلام.

في قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٨٦ ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ۝٥٨ ﴾

في قوله: ﴿ وَرَبُّكَ ﴾، لماذا قال وربك ولم يقل والله؟ قال أهل العلم:

الجواب: هذه لمناسبة الآيات لما قبلها؛ أن الله -عَزَّوَجَلَّ- لما ساق لهم التهديد والوعيد في الآيات التي قبل؛ أردفه -جَلَّ وَعَلَا- بالتذكير بالمغفرة وأن الله -عَزَّوَجَلَّ- من رحمته بهم أنه يؤخر عنهم العذاب لعلهم يؤوبون إليه ويرجعون. وهذا من طريقة القرآن ما يسمىٰ «بالمثاني»؛ إذا ذكر الترهيب يذكر بعده الترغيب والعكس.

في قوله: ﴿ وَرَبُّكَ ﴾ الخطاب للنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وجاء بلفظ الربوبية في قوله: ﴿ وَرَبُّكَ ﴾؛ لأن الله -عَزَّوَجَلَّ- رب كل شيء، وهذه الربوبية العامة، وأن كل شيء في ملكه وتحت قهره -جل وعلا-، وفيه تلطُّف مع النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-

وتكريم له؛ لأن الله -عَزَّوَجَلَّ- قال قبلها: ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ۝٥٧﴾، فقد يظن ظانٌّ أن هذا تقصير؛ ولكن الله قال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾، أو هو كما أنه سبق في علمه -عَزَّوَجَلَّ- أن أولئك لا يهتدون إلا أنه لا يزال يفتح لهم باب التوبة.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ﴾ وكلمة الغفور صيغة مبالغة «غفور- فعول». وهذا فيه دليل علىٰ فتح باب التوبة لهم، وتعريض وترغيب لهم بالاستغفار، وجيء بصيغة المبالغة للتنبيه علىٰ كثرة الذنوب، فقال: الغفور. لماذا قدم المغفرة علىٰ الرحمة ولم يقل وربك ذو الرحمة الغفور؟

قال أهل العلم: هو من باب «التخلية قبل التحلية». أي أولًا ينقوا من الذنوب ثم بعد ذلك تشملهم الرحمة. قال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾، لماذا عدل عن صيغة رحيم وجاء بقوله: ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾؟

لأن الرحمة واسعة؛ فالله -عَزَّوَجَلَّ- يرحم عباده كلهم، مؤمنهم وكافرهم، لكن رحيم، علىٰ قول أهل العلم، يتعلق بالمؤمنين ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وقوله: ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾، الرحمة العامة التي وسعت كل شيء، حتىٰ الكافر تدركه الرحمة العامة في الدنيا بأن الله -عَزَّوَجَلَّ- يغْدِق عليه، وينعم عليه في العيش، ويطعمه ويسقيه ويشفيه، ويوسّع عليه في رزقه.

ما مناسبة قوله: ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾؟ قلنا مناسبة الغفور الترغيب في الاستغفار. لماذا قال: ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾؟

لأن الرحمة سبقت الغضب؛ لأن الله -عَزَّوَجَلَّ- قال بعدها: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا

كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ﴾، فمن رحمته -عَزَّوَجَلَّ- بهم أن يمهلهم ولا يعاجلهم بالعقوبة، بل يفتح لهم باب الاستغفار والعودة لعلهم يؤوبون وينيبون ويرجعون.

قال: ﴿لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ﴾، في قوله: ﴿لَوۡ يُؤَاخِذُهُم﴾، علىٰ من يعود الضمير؟ **قولان** للمفسرين:

القول الأول: يعود علىٰ الكفار، لو يؤاخذ الكفار بما كسبوا لعجّل لهم العذاب.

القول الثاني: يعود علىٰ الناس جميعًا، لو يؤاخذ الناس بما كسبوا لعجّل لهم العذاب، كما قال الله -عَزَّوَجَلَّ- في سورة فاطر: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ﴾ [فاطر: ٤٥]، فهنا في الآية **قولان** للمفسرين، وهما قولان صحيحان:

القول الأول: بأنهم الكفار، بالنظر لسياق الآيات.

القول الثاني: بأنهم الناس، بالنظر للعموم.

في قوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ﴾، **فوائد:**

الفائدة الأولى: أن من سنة الله -عَزَّوَجَلَّ- وعادته أنه لا يؤاخذ ولا يعجل العقوبة للعبد، إلا إذا أصرَّ علىٰ الفعل وتكرَّر منه.

الفائدة الثانية: أن الله -عَزَّوَجَلَّ- لا يكشف ستره عن عبده إلا إذا أصرَّ وكرَّر، فلذلك الله -سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ- يمهل ولا يهمل. قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: في سورة الطارق ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧﴾ [الطارق:١٧].

قال: ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ﴾، لكنه يمهلهم، فإذا هؤلاء الذين أصروا كأنهم

استبطؤوا العذاب؛ يخبر الله -عَزَّوَجَلَّ- عنهم: إن تأخر عنهم العذاب لأجل الإمهال، فإنه سيأتيهم.

قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ﴾، بل للإضراب، اختلف العلماء -رحمهم الله- في هذا الموعد، متىٰ سيكون؟

القول الأول: الموعد يوم القيامة.

القول الثاني: الموعد يشمل ما يكون عليهم في الدنيا من القتل والتعذيب والجوائح والمصائب ونحو ذلك، عذاب دنيوي ويشمل عذاب يوم القيامة، وهذا هو الصحيح.

قال: ﴿لَّن يَجِدُواْ﴾ أكد هنا «بلن النافية» ردًا علىٰ إنكارهم؛ لأنهم إذا استبطؤوا العذاب قالوا: لن يأتينا العذاب، خصوصًا إذا طال الإمهال. قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ٥٨﴾ موئلًا أي: ملجأً يؤولون إليه ويعودون إليه. ومرَّ معنا إشارة إلىٰ هذا الملحظ، عدم النصرة وتخلي الأصنام والمعبودات عنهم.

وهذا فيه **فائدة:** أن الإنسان إذا اعتصم بالله -عَزَّوَجَلَّ- فهو ناصره؛ وهذا مناسب لمقصد السورة، الفتن، وإذا تخلىٰ عنه الله -عَزَّوَجَلَّ- فإنه لن يجيره من الله أحد. وقد مرَّ معنا قوله: ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ٤٣﴾... إلخ.

﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ٥٩﴾

مناسبة هذه الآية لما قبلها: لما قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ٥٨﴾ كأنّ الله -عَزَّوَجَلَّ- يقول: «انظروا إلىٰ الأمم السابقة الذين صنعوا مثل صنيعكم، أمهلتهم وفتحت لهم باب التوبة ورغبتهم فيها، وأخرت عنهم العذاب؛ لما أصروا

علىٰ ما هم عليه أهلكناهم؛ فأنتم مثلهم إن وقع منكم ما وقع منهم».

ولذلك كان الأنبياء -عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- يقولون مثل هذا؛ قال شعيب -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾﴾ [هود: ٨٩].

قال: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾، المقصود بالقرىٰ هنا الأمم السابقة، قرىٰ قوم هود ونوح وصالح ولوط، وغيرهم من الأمم.

قال: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾، الضمير يعود علىٰ الجمع، والقرىٰ جماد؛ فكان المناسب أن يقول: «وتلك القرىٰ أهلكناها»، لكن لما كان المقصود بقوله: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ أي أهل القرىٰ، عاد الضمير عليهم يعني: انظـــــروا إلىٰ أهل القرىٰ الذين كانوا قبلكم أهلكناهم.

قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾، فيها أمران:

الأمر الأول: فائدة حذف مفعول ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ للتعميم، أيَّ ظلمٍ ارتكبوه، وخصوصًا فيما بينهم وبين الله -عَزَّوَجَلَّ-، وهو يدل علىٰ تعميم الظلم.

الأمر الثاني: قال بعض أهل العلم: بل المراد تنزيل الفعل منزلة اللازم، فيكون تقدير الكلام: «لما فعلوا الظلم أهلكناهم».

وهذا فيه تحذير من الظلم، وأن الظلم نتيجته الهلاك، ولذلك جاء في الحديث القدسي عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فِيمَا رَوَىٰ عَنِ اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-، أَنَّهُ قَالَ: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا**»[1]. فالظلم

(١) أخرجه مسلم في كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، بَابُ تَحْرِيمِ الظُّلْمِ، (٢٥٧٧).

عقوبته وعاقبته وخيمة في الدنيا والآخرة، قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾، أي وقت إهلاكهم معلوم وموعدٌ مقدَّرٌ، لا يتقدم عنهم ولا يتأخر. قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: ٣٤].

* * *



الدرس الخامس عشر
(٦٠-٦٤)

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ ﴾.

في الآيات **مسائل**:

المسألة الأولى: مناسبة الآية لِما قبلها.

ذكر أهل العلم في ذلك مناسبتين:

المناسبة الأولى: قيل إنها تتناسب مع ما ذُكر في قصة الشّيطان؛ كأنّ هذه القصة معطوفة علىٰ ما ذُكر في قصة الشيطان، لقوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾، يكون التقدير: «واذكر يا محمد إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم»، وهنا «واذكر يا محمد إذ قال موسىٰ لفتاه». فالمناسبة ظاهرة لكون إبليس استكبر واستنكر، وفي كون -موسىٰ، عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، في قمة التواضع، وهو كليم الله -عَزَّوَجَلَّ-.

المناسبة الثانية: مع آية قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم

﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، فأولئك الأغنياء والكبراء الذين استنكفوا عن مجالسة الضعفاء والمساكين، وطلبوا مِن النّبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن يطردهم من مجلسهِ، وأن يخصص لهم مجلسًا يتحدث فيه معهم.

فجاءت هذه القصة لتبين أَنّ موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- كان يصحب فتاه «خادمه» ويأكل معه، وهو -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- متواضع في ذلك. هذا ملخص ما يمكن أن يقال في مناسبة هذه الآية لما قبلها.

المسألة الثانية: ما يتعلق بقصة موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- مع فتاه.

جاء في الصحيحين مِن حديث أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، سَمِعْتُ النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَذْكُرُ شَأْنَهُ، يَقُولُ: «بَيْنَمَا مُوسَىٰ فِي مَلَإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: أَتَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكَ؟ قَالَ مُوسَىٰ: لَا، فَأَوْحَىٰ اللهُ -عَزَّوَجَلَّ- إِلَىٰ مُوسَىٰ: بَلَىٰ، عَبْدُنَا خَضِرٌ، فَسَأَلَ السَّبِيلَ إِلَىٰ لُقِيِّهِ، فَجَعَلَ اللهُ لَهُ الحُوتَ آيَةً، وَقِيلَ لَهُ: إِذَا فَقَدْتَ الحُوتَ فَارْجِعْ، فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهُ، فَكَانَ مُوسَىٰ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَتَّبِعُ أَثَرَ الحُوتِ فِي البَحْرِ. فَقَالَ فَتَىٰ مُوسَىٰ لِمُوسَىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾، قَالَ مُوسَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾، فَوَجَدَا خَضِرًا، فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا مَا قَصَّ اللهُ فِي كِتَابِهِ»(١).

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ
مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَإِذْ﴾، أي واذكر يا محمّد ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾،

(١) أخرجه البخاري في كِتَابِ العِلْمِ، بَابُ الخُرُوجِ فِي طَلَبِ العِلْمِ، (٧٨).

الصحيح أنه موسىٰ بن عمران -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- كليم الله -عَزَّوَجَلَّ- النبي المرسل إلىٰ فرعون، وهذا باتفاق المفسرين، خلافًا لما ذهب إليه نوفا البكالي، فقد كذبه ابن عباس -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا- في هذه المسألة[(١)].

قال: ﴿لِفَتَـٰهُ﴾، المراد بالفتىٰ هو يوشع بن نون، من غير خلاف عند المفسرين، وهو خادم موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-.

ولكن يبقىٰ السؤال: لماذا سُمي بالفتىٰ هنا؟ لماذا لم يقل: «وإذ قال موسىٰ لخادمه» وقال: ﴿لِفَتَـٰهُ﴾؟

قال أهل العلم:

سمي فتًىٰ لأن أكثر الخدم يكونون فتيانًا؛ لأن الفتىٰ يكون فيه من القوة والجَلَد أكثر من الشيخ أو الكهل، فلذلك يطلق علىٰ الخدم أكثرهم، حتىٰ وإن كانوا كبارًا في السن.

قيلَ له فتىٰ هنا علىٰ جهة حسن الأدب، وَقَد ندبت الشريعة إلىٰ تسمية الخدم بالفتيان.

جاء في الحديث: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَأَمَتِي كُلُّكُمْ عَبِيدُ اللهِ، وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ اللهِ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ غُلَامِي وَجَارِيَتِي وَفَتَايَ وَفَتَاتِي»[(٢)].

قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَـٰهُ﴾، فيه **فوائد**:

الفائدة الأولى: أنّه يجوز للعالم أن يستعين في رحلته للعلم ونحوِ ذلك

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، (٧/ ٢٣٧٠)، ط كتبة نزار مصطفىٰ الباز-السعودية ١٤١٩هـ.
(٢) أخرجه مسلم في كتاب الْأَلْفَاظِ مِنَ الْأَدَبِ وَغَيْرِهَا، بَابُ حُكْمِ إِطْلَاقِ لَفْظَةِ الْعَبْدِ، وَالْأَمَةِ، وَالْمَوْلَىٰ، وَالسَّيِّدِ، (٢٢٤٩).

بالخدم والأصحاب، وأن هذا لا يعد من عدم التوكل، بل هو من التوكل وستأتي الإشارة إليه.

الفائدة الثانية: يجوز للإنسان أن يخالط غيره وأن يستفيد منه. سيأتي التنبيه علىٰ تواضع موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-.

قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾، أي لا أزال أسير، ﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ﴾، أصِل إلىٰ ﴿مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾، أي اجتماع البحرين والتقاؤهما.

وقد جعل الله -عَزَّوَجَلَّ- له آية وعلامة؛ فأوحىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ- إلىٰ موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-، أنه إذا وصل مجمع البحرين، فإنه سيلقىٰ ذاك العبد الصالح عند هذا المكان.

قوله: ﴿مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾، اختلف المفسّرون -رحمهم الله- في المراد بالبحرين علىٰ **أقوال كثيرة:**

قيل بحر الروم وبحر فارس، وقيل غير ذلك.

والصحيح أنّه لا دليل علىٰ تحديد البحرين، لا من الكتاب أو من السنة، وليس في معرفته فائدة.

فالبحث عنه تعب لا طائل تحته. المهم أن الله -عَزَّوَجَلَّ- جعل لموسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- آية في التقاء ذلك العبد الصالح، سيأتي شأنه والحديث عنه لاحقًا.

قوله: ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبًا ٦٠﴾، أي: أسير زمنًا طويلًا حتىٰ أجد هذا الرجل الصالح؛ لأتعلم منه ما لا أعلم، فإن لم أظفر به في مجمع البحرين الذي أعرفه، فإني سأمضي زمنًا طويلًا حتىٰ أجده.

وهذا فيه **فوائد:**

الفائدة الأولى: فيه دليل علىٰ فضيلة العلم؛ لأن موسىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- وهو كليم الله -عَزَّوَجَلَّ- ونبيه، وهو من أولي العزم من الرسل، يطلب العلم ويسير ويهاجر ويسافر في طلبه، وأنه من أفضل الأعمال الصالحة، وأن الإنسان لا يستنكف عن طلبه، فالعلم بعيد مقصده ولا يستطيع الإنسان أن يجمعه كله.

ولـيس كـلُّ العلـمِ مـا حويتَـه ... أجـلْ ولا العُشـر ولـو أحصـيتَه
ومـا بقـي عليـك منـه أكثـر ... ممّـا علمتَ والجـواد يـعثـر

فلا يستطيع أحد أن يحيط بالعلم ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: ٨٥].

الفائدة الثانية: الحث علىٰ الرحلة في طلب العلم؛ فلو علم الإنسان أن هناك عالمًا أو طالبَ علمٍ لديه علم ليس عنده، فيجوز له أن يشد رحْله ويذهب إليه ليطلب العلم.

ضرب لنا مثلًا جابرٌ بنُ عبد الله -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- حين رحل إلىٰ الشام في طلب حديث واحد، وهكذا الصحابة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- والسلف، سطروا رحلات في طلب العلم، ولذلك بين الله -عَزَّوَجَلَّ- في هذه الآية فضيلة طلب العلم.

الفائدة الثالثة: اغتنام لقاء الفضلاء والعلماء وإن بعدت أقطارهم، فلقياك أهل العلم والفضل وإن حالت بينك وبينهم البحار أو القِفار، هذا من أفضل الأعمال، فيلتقي الإنسان أهلَ العلم ويتدارس معهم العلم وينال من علمهم.

الفائدة الرابعة: أن من سافر لطلب العلم له أن يخبر بمطلبه؛ حتىٰ يعد العدة في سفره إذا اقتضت المصلحة، ولذلك أخبر موسىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- فتاه أنه سيسير

لطلب العلم والبحث عن هذا الرجل حتىٰ ولو كان ذلك لأزمان طويلة؛ حتىٰ يعلم الخادم وجهة موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- وغرضه في هذه الرحلة، ويزوده بما يستطيع. ولذلك تزوَّد موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- وفتاه يوشع، بما سيعينهم في البحث عن هذا الرجل الصالح.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾، أي لمــّا بلغ موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- وفتاه يوشع بن نون مجمع البحرين ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾، وكان من الآية والعلامة أنه إذا بلغ مجمع البحرين سينسىٰ الحوت، هناك سيلتقي الرجل الصالح.

فقوله: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾، هل النسيان حصل من يوشع بن نون؟ أو حصل من موسىٰ وحده؟ أو منهما؟ خلاف بين أهل العلم، علىٰ قولين:

القول الأوّل: قالوا النسيان حصل من الفتىٰ يوشع بن نون، ولكنه أضيف إليهما في قوله: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾؛ لأنهما جميعًا تزودا الحوت لسفرهما، فنسب النسيان إليهما. وقيل لأن هذا أصلًا أسلوبٌ عربي في محادثة العرب وكلامهم، أنهم يطلقون المجموع ويريدون البعض، فالمراد به يوشع بن نون.

القول الثاني: إن النسيان وقع منهما جميعًا، من موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- ومن يوشع بن نون، وأن النسيان واقع عليهما حقيقة.

فموسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- وقع النسيان منه في طلب الحوت والتّعرُّف علىٰ حاله؛ لأنه كان آية وعلامة، فإذا فقده سيجد الرجل الصالح، ويوشع نسي أن يذكر لموسىٰ ما رآه من وقوع الحوت في البحر وقصته.

وإذا قلنا إنّ النسيان وقع منهما حقيقة، فإنه يجوز علىٰ النبي النسيان فهو بشر كغيره، وقد قال النبي -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، أَنْسَىٰ كَمَا تَنْسَوْنَ، فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي»(١). والنسيان لا يقدح في نبوته، ولا في التبليغ، فإنه إذا نسي فإنه يُذكّر.

فكانت العلامة أنّهما إذا بلغا مجمع البحرين سيفقدان الحوت، وكان الحوت معهم في مِكْتَلٍ، مثل ما يقال في «الزنبيل»، وكان الحوت «السّمك» ميتًا أخذوه ليتزودوا ويأكلوا منه في السفر، فإذا فقدوا الحوت في ذلك المِكْتَلِ، فإنهم سيجدون هذا الرجل الصالح.

قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾، أي أمر الحوت - فسبحان الله- لما وصلوا إلىٰ ذلك المكان رجعت الحياة إلىٰ الحوت، فخرج من المكتل، فنزل وشق سبيله إلىٰ البحر، وكانت آثار سيره إلىٰ البحر بادية لم يأتِ عليه الماء، كما سنبين الآن.

قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾، قيل في الآية تقديم وتأخير؛ لأن اتخاذ الحوت في البحر قبل النّسيان أصلًا، فيكون تقدير الكلام: «فلما بلغا مجمع بينهما اتّخذ الحوت سبيله في البحر سربًا ونسي يوشع أن يذكر ذلك لموسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-، ونسي موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- أن يتفقد الحوت». قوله: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ﴾، أي فشق الحوت طريقه الذي سلكه في البحر. ﴿سَرَبًا﴾، نفقًا ظاهرًا في الماء لا يلتئم بعده فَيُرىٰ أثر سير الحوت، وهذه من المعجزات، سبحان الله، أن يقف الماء فلا يأتي علىٰ أثر الحوت، وهذه هي العلامة

---

(١) أخرجه البخاري في كِتَابِ الصَّلاَةِ، بَابُ التَّوَجُّهِ نَحْوَ القِبْلَةِ حَيْثُ كَانَ، (٤٠١).

التي سيلتقي فيها موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- الرجلَ الصالحَ.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾

قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾، أي تجاوز موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- ويوشع بن نون مجمع البحرين هذا. قال: ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾، قد يقول القائل: أليس موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- كان يعلم أن هنا مجمع البحرين، فلماذا يتجاوزا؟

قال أهل العلم: قيل كأن مجمع البحرين كان ممتدًا؛ فظن موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- أن المطلوب أمامه أو أن المراد مجمعٌ آخر، فسار موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- لِطلبه.

قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾، سفر موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- مع فتاه إلىٰ بلوغ مجمع البحرين لم يحصل لهما منه التعب، فلمّا تجاوزا مكان لقيا هذا الرجل الصالح حصل لهما التعب، كأنه تنبيهٌ لهما بأنّهما قد تجاوزا مكان وجود العبد الصّالح.

قال: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾، أي جاوز موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- ويوشع بن نون هذا المكان ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾، أي أحضر طعامنا لِنأكل فنتقوّىٰ به. وهذا فيه **فوائد:**

الفائدة الأولى: فيه استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله، إنّ موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- لم يُخصص لنفسه طعامًا معينًا وللخادم طعامًا آخر، بل كان يُطْعِم خادمه من طعامه نفسه.

ولذلك قال النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ**

تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ»(١).

الفائدة الثانية: هنا، أطعم موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- خادمه من طعامه نفسه، وهذا فائدة التّواضع في ورود قصة موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- وعدم حصول الكِبْر منه -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-.

الفائدة الثالثة: أنهم أكلا جميعًا من هذا الطعام في قوله: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾.

الفائدة الرابعة: ذكرها ابن القَيِّم وهي فائدة مهمة وجميلة جدًّا، لها مغزىٰ بمقصد السورة الذي هو الفرار من الفتن؛ وهي أنّ المعونة تنزل علىٰ العبد علىٰ حسب قيامه بالمأمور به؛ فإنّ موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- لم يشعر بالتعب ولا بالنَّصَب في سفره الأول، وأنّ الله -عَزَّوَجَلَّ- يعينه وينزل عليه من الصبر والتحمّل للشدائد ما يستطيع أن يتجاوز به ذلك.

الفائدة الخامسة: أن موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- لما سافر ليلتقي العبد الصالح وجد التعب والنصب، أما لمّا ذهب للمواعدة في قوله: ﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [الأعراف: ١٤٢] فإنّه لم يجد في ذلك السفر تعب ولا نصب. وفيه أنّ العبد لا يجد في سفره إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ- من التعب والنصب ما يجده في الذهاب للمخلوق. وهكذا القلب؛ فسفر القلب إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ- ليس كسفره إلىٰ المخلوقين.

الفائدة السادسة: وهي مهمة، وهي أنّ الإنسان إذا فوض أمره إلىٰ الله

---

(١) أخرجه البخاري في كِتَابِ الإِيمَانِ، بَابُ المَعَاصِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ، وَلاَ يُكَفَّرُ صَاحِبُهَا بِارْتِكَابِهَا إِلَّا بِالشِّرْكِ، (٣٠).

-عَزَّوَجَلَّ- والتجأ إليه أعانه، ولن يحصل له من التعب شيء وإن كان في ظاهر أمره أنّه تعب، لكن القلب مطمئنٌ راضٍ. هكذا يجب علىٰ الإنسان أن يفرَّ من الفتن، وأن يستعين بالله فإنّه هو المعين وهو المـنُجِّي.

وإذا كان العبد سيقصد الله -عَزَّوَجَلَّ- في جميع أموره، ويلاحظ مقصده في الاستعانة بالله -عَزَّوَجَلَّ- وامتثاله لأمر الله -عَزَّوَجَلَّ- والفرار من الفتن، فإن الله -عَزَّوَجَلَّ- يصرف عنه من السوء والبلاء ما لا يخطر له علىٰ بال.

ولذلك -سبحان الله- تجد الصائم إذا كان صومه لله -عَزَّوَجَلَّ- يتلذذ بصومه ويحتسب الأجر عند الله -عَزَّوَجَلَّ-. قال النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ، إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا»[(١)]، بخلاف الإنسان الذي يمسك عن الأكل للحميّة فإنّه يتملْمَل وربما تراوده نفسه في الأكل ونحو ذلك. فما كان لله -عَزَّوَجَلَّ- يبقىٰ، وما كان لغيره يزول، وهذا من باب الإشارة والتّنبيه.

الفائدة السابعة: أن اتخاذ الزاد في السفر لا ينافي التوكل، فموسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- من أئمة المتوكلين، وهو نبي الله -عَزَّوَجَلَّ- تزوّد في سفره وأخذ ما يعينه علىٰ ذلك.

وهذا فيه رد علىٰ الصوفية، الذين يزعمون أنهم يتوكلون ولا يأخذون معهم شيئًا. ولذلك لَمّا كان أهل اليمن يُقدمون علىٰ الحجّ فيقولون نحن المتوكلون، وما يأخذون معهم شيئًا، وإذا نزلوا مكة سألوا النّاس، فأنزل الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٧﴾ [البقرة: ١٩٧]، أي إنّ أخذكم للزاد لا ينافي التوكل.

---

(١) أخرجه البخاري في كِتَابِ الإِيمَانِ، بَابُ صَوْمُ رَمَضَانَ احْتِسَابًا مِنَ الإِيمَانِ، (٣٨).

الفائدة الثامنة: جواز إخبار الإنسان عمّا يحصل له من مقتضيات الطبيعة البشرية من نَصَب أو جوع أو عطش أو وجع أو نحو ذلك، ما لم يكن علىٰ وجه التسخُّط؛ فقد قال موسىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾، فيجوز للإنسان أن يقول إنّي جائع أو أجد تعبًا في مسألةٍ فلانية، أو مثلًا اشتكيت رأسي.

كما في الحديث، قالت عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-: وَا رَأْسَاه، ... فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «بَلْ أَنَا وَا رَأْسَاهْ»[١]. اشتكىٰ النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من الوجع الذي في رأسه، وكذلك اشتكت عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-.

فهذا إذا كان لمجرد مقتضىٰ البشر، وأنه ليس علىٰ وجه التسخُّط؛ إنما هو علىٰ وجه الإخبار، فهذا جائز.

يجوز أن تقول: والله كان اليوم الدرس متعبًا، أو كان السفر طويلًا أو نحو ذلك. قال الله -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾، يقصد أنّه بعدما جاوزا مجمع البحرين وجدا النّصب وهو التّعب، فدل ذلك علىٰ أنهما قد تجاوزا المكان. وجاء في حديث أُبَيّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- في الصّحيح، وفيه: «وَلَمْ يَجِدْ مُوسَىٰ النَّصَبَ حَتَّىٰ جَاوَزَ المَكَانَ الَّذِي أَمَرَ اللهُ بِهِ»[٢].

الحكمة في حصول التّعب لموسىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، أن يطلب الغداء فيذكر الحوت فيرجع، لأن الحوت في المِكْتَل، فإذا طلب الغداء فإنّه لا شك أنه سيأخذ الحوت، فلما لَمْ يجدا الحوت، يعرف أنّه قد تجاوز المكان.

(١) أخرجه البخاري في كِتَابِ المَرْضَىٰ، بَابُ قَوْلِ المَرِيضِ: «إِنِّي وَجِعٌ، أَوْ وَا رَأْسَاهْ، أَوِ اشْتَدَّ بِي الوَجَعُ»، (٥٦٦٦).

(٢) أخرجه البخاري في كِتَابِ بَدْءِ الخَلْقِ، بَابُ صِفَةِ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ، (٣٢٧٨).

فقال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا﴾، رجع موسي -عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ-، وعرف أنه قد تجاوز المكان.

﴿قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ﴿٦٣﴾﴾

قوله: ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ﴾، هذا كلام الفتىٰ لِموسىٰ -عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ-.

في قوله: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ﴾ يُحتمل أمران:

الأمر الأول: أنه نسي حمل الحوت، أي نسيت أن آخذ الحوت.

الأمر الثاني: نسيت أن أخبرك بأمر الحوت؛ لأن يوشع بن نون رأىٰ ذلك الأمر، وشاهد نزول الحوت من المِكْتلِ وخروجه إلىٰ البحر، ونسي أن يخبر موسىٰ -عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ- بما حصل.

جملة قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ﴾ هذه تُسمىٰ «جملة اعتراضيّة»، يعني تقدير الكلام: «فإني نسيت الحوت واتخذ سبيله في البحر عجبًا، نسيت أن أقول لك إن الحوت كان أمره عجيبًا».

ولكن هذه الجملة قُدّمَت للاعتناء بالاعتذار، حتىٰ يعتذر يوشع؛ فهذا هو المقصد من السفر؛ فكيف تذهل عن هذا المقصد! وذكر أنّ ذلك حصل من الشيطان. ومر معنا آية تدل علىٰ النسيان، هي مهمة جدًّا في قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، إذ قلنا سابقًا إنّ النسيان من الشيطان.

وهذا فيه فائدة مهمة جدًّا؛ قال أهل العلم: إن الشيطان في الأعمال الصالحة

المقرِّبة إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ- يحاول أن يشغل الإنسان عن مقصده، فيوسوس له وينسيه. ولذلك يقال: إنّ يوشع بن نون الذي أنساه أن يذكر لموسىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، هو الأمر العجيب الذي جلس يتفكر فيه، كيف خرج الحوت، وكيف مشىٰ، جلس يشغل باله ويحدث نفسه في هذا الموضوع حتىٰ نسي أن يذكر ذلك لموسىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-.

وهذه **فائدة** مهمة: أن الإنسان دائمًا يستعين بالله من الشيطان الرجيم، فقوله أعوذ بالله، يعني ألتجيء وأعتصم بالله مِن الشيطان الرّجيم.

وهكذا تجد الإنسان أحيانًا يلجأ إلىٰ الصلاة، فلا يأتيه الشيطان إلا وهو في صلاته، ولا يُذكّره بمشاريعه وأعماله ومفقوداته... إلخ إلا في صلاته؛ لأنّه يريد أن يصرفه عن هذه الطاعة ويلهيه. فدائمًا يكون الإنسان علىٰ حذر، ويستعيذ بالله مِن الشّيطان الرّجيم.

قال: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ۝٦٣﴾، في قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ﴾، علىٰ من يعود الضمير؟ **قولان** لأهلِ العلمِ:

القول الأوّل: الضمير يعود علىٰ الحوت، أي اتخذ الحوت سبيله في البحر، وهنا تم الكلام. ﴿عَجَبٗا﴾، هذه لها معنًىٰ آخر سيأتي، ويكون هذا الكلام من تتمة كلام الفتىٰ، فإن الفتىٰ قال: ﴿أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾، يريد أن يبين لموسىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- أنّ الحوت قد سلك طريق البحر.

القول الثاني: قيل الضمير يعود علىٰ موسىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- ويكون كلام الفتىٰ

قد انتهىٰ عند ﴿نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾، ويأتي الإخبار: «واتخذ موسىٰ سبيل الحوت في البحر، رجع موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- يذهب إلىٰ طريق الحوت يرىٰ أين مكان الحوت، يتبع أثر الحوت حتىٰ يجد هذا الرجل الصالح».

والأقرب -والله أعلم- أنّه من كلام يوشع بن نون، كما سيأتي.

قوله: ﴿عَجَبًا﴾، فيها **قولان**:

القول الأول: قوله: ﴿عَجَبًا﴾ إذا كان مِن كلام يوشع فيقول: «اتخذ سبيله في البحر اتحاذًا عجبًا، يريد أن يخبره أنّ أمر الحوت كان عجيبًا، أو أتعجب منه عجبًا»، ووجه العجب انقلاب الحوت من المِكْتَلِ وصيرورته حيًا، «صار حيًا»، وإلقاء نفسه في البحر علىٰ غفلة من موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- ومِن الفتىٰ.

وقيل تم الكلام عند قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ﴾، ثم قال: ﴿عَجَبًا﴾، أي أنه يعجب من رؤية تلك الحادثة العجيبة، ومن نسيانه أن يذكر ذلك لموسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-.

القول الثاني: قيل: ﴿عَجَبًا﴾ مِن كلام موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-.

يصير كلام الفتىٰ عِند قوله: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ﴾، فقال له موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-: ﴿عَجَبًا﴾، كيف حصل هذا؟!

كلا المعنيين صحيح، يُحتمل أن يكون من كلامِ يوشع، أو يُحتمل أن يكون من كلام موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ۝٦٤﴾.

قوله: ﴿نَبْغِۚ﴾، أصلها نبغي، لكن حذفت الياء للتخفيف، وجيء بالكسرة لدلالة علىٰ الياء.

قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ﴾، أي هذا الأمر الذي كنّا نريده ونبغيه، وهو أن نلتقي هذا العبد الصالح، وهذه هي العلامة المطلوبة.

قال: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ۝٦٤﴾، أي رجع موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- والفتىٰ من الطريق الذي أتيا منه، يتتبعان آثار سيرهما؛ لأنهما تجاوزا المكان، فيريدان أن يصلا إلىٰ الصخرة التي فقدا الحوت عندها.

فلما رجع موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- وفتاه إلىٰ المكان الذي فقدا فيها الحوت ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥﴾.

* * *



الدرس السادس عشر
(٦٥-٧٠)

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾

هذه تكملة للقصة التي بدأت مع موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- وفتاه، ذلك أنهما ذهبا ليلتقيا ذلك الرجل الصالح الذي أخبر الله -عَزَّ وَجَلَّ- موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- عنه، فحصل ما حصل من قصتهما في فقْد الحوت، وأُخْبِر مكان وجود هذا العبد، فبعد أن حصل لهم ما حصل.

يقول الله -جل ذكره وتبارك اسمه وتعالىٰ جدُّه-:

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

حصل بين موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- وهذا العبد محاورة، ستسمعون هذه المحاورة عبر هذه الآيات الكريمة. وهذه المحاورة فيها من الفوائد الشيء الكثير، وهو متعلق بمقصد السورة، وأرجو أن تكونوا علىٰ تركيز تام في ربط هذه الآيات بمقصد

السورة، خصوصًا ما يتعلق بلفظ «الصبر»، وما يتعلق بلفظ «إن شاء الله»، كما سنبينه في الآيات.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا﴾، جاء في الحديث الصحيح: «رَجَعَا يَقُصَّانِ آثَارَهُمَا، حَتَّىٰ انْتَهَيَا إِلَىٰ الصَّخْرَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجًّىٰ بِثَوْبٍ، فَسَلَّمَ مُوسَىٰ فَرَدَّ عَلَيْهِ»[1]، وإنما سُمي خَضِرًا كما جاء في الحديث: «إِنَّمَا سُمِّيَ الخَضِرَ أَنَّهُ جَلَسَ عَلَىٰ فَرْوَةٍ بَيْضَاءَ، فَإِذَا هِيَ تَهْتَزُّ مِنْ خَلْفِهِ خَضْرَاءَ»[2].

قوله: ﴿فَوَجَدَا﴾، أي موسىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- ويوشع بن نون، الفتىٰ المرافق لموسىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-.

﴿عَبْدًا﴾، جاءت نكرة، ما السبب في تنكيرها ثم نونت "عبدًا"؟ قال أهل العلم:

جاء التنكير هنا «للتفخيم». تأملوا كلمة عبد، فقد مرَّت معنا في أول السورة، قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾، فمقام العبودية من أشرف المقامات وأفضلها وأعظمها، ولذلك يمتن الله -عَزَّوَجَلَّ- علىٰ من اصطفاه من عباده بلفظ العبودية. فمثلًا قال في سورة ص: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص: ٤٥]. قال في سورة الصافات: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الصافات: ٨١]. فلفظ العبودية لفظ جليل جدًّا، وأشرف مقام مقام العبودية، ودائمًا يمتن الله -عَزَّوَجَلَّ- علىٰ عباده المؤمنين بلفظ العبودية في مقامات التشريف؛ فهذا الرجل قال عنه: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾، فبهذا المقام -مقام العبودية- وصل إلىٰ هذه المرتبة.

---

(١) أخرجه البخاري في كِتَابِ أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ، بَابُ حَدِيثِ الخَضِرِ مَعَ مُوسَىٰ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ، (٣٤٠١).
(٢) المصدر السابق، (٣٤٠٢).

وهكذا، كلما انطرح الإنسان علىٰ عتبة العبودية لله -عَزَّوَجَلَّ- وحقق لفظ العبودية لله، فتح الله -عَزَّوَجَلَّ- عليه من الخيرات والبركات ما لم يكن يخطر له علىٰ بال.

قوله: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾، جيء بالإضافة هنا للتشريف والاختصاص، أي هذا الرجل له مكانةٌ وله حظٌ عظيمٌ من العبوديةِ والتشريف والاختصاصِ.

فقال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾، وهذا العبد هو الخَضِر بالإجماع، وجاء التنصيص علىٰ لسان رسول الله -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-، كما في حديث أُبيّ السابق.

سيأتي توجيه الفوائد بعد ذلك. فموسىٰ -عَلَيْهِٱلسَّلَامُ- من أولي العزم من الرسل وهو كليم الله -عَزَّوَجَلَّ-، وهو أفضل من الخَضِر بالإجماع. واختلفوا في الخضر، هذا الرجل العبد الصالح، هل هو نبي أو لا؟ علىٰ قولين:

القول الأول: الخضر نبي من الأنبياء، واستدلوا بما سيأتي من الآيات في نهاية قصته مع موسىٰ -عَلَيْهِٱلسَّلَامُ-.

قال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ﴾، فليس هذا من تلقاء نفسي، قالوا إذا لا يكون إلا عن طريق الوحي، فقالوا إذًا الخضر نبيٌّ.

القول الثاني: الخضر وليٌّ وعبدٌ صالح من عباد الله الصالحين. وقوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ﴾، هذا يكون من باب الإلهام والكرامات تحصل للأولياء، فالصحيح -والله أعلم- أن الخضر عبد صالح وليس نبيًّا من الأنبياء.

ثم اختلفوا بعد ذلك في مسألة: هل هو حيٌّ الآن أو ليس حيًّا؟

القول الأول: إنه حيٌّ.

القول الثاني: إنه قد مات وليس بحيٍّ، قال ابن تيمية -رحمه الله-: وهذا الذي عليه سائر العلماء المحققين، أي أنه قد مات.

في قوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾، هو عطاء من الله -عَزَّوَجَلَّ-. هنا **فائدة** مهمة جدًّا، وهي أن العلم، وخصوصًا العلم النافع، فضل من الله -عَزَّوَجَلَّ- وكرامة لعباده الصالحين، فالتوفيق للعلم والعمل الصالح كرامة من الله -عَزَّوَجَلَّ- لعباده. ولذلك قال الله -عَزَّوَجَلَّ- في قصة سليمان -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾، ماذا قالا؟ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل:١٥]، ثم جاء في سياق الآيات ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]. وقال في سورة يوسف -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [يوسف:٤٠]، فهذا فضل من الله -عَزَّوَجَلَّ-. ولذلك يسأل العبدُ اللهَ ربَّه أن يهبه علمًا نافعًا وعملًا متقبلًا، وقد قال الله -عَزَّوَجَلَّ- لنبيه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٤].

قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾، يعني خصَّناه بعلمٍ نافعٍ يهبه ويعلِّمه الناس.

ما العلم الذي كان عند الخضر مع أن موسىٰ أفضل منه؟

سبق أن ذكرنا في الحديث عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، قال: «**إِنَّ مُوسَىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- قَامَ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا، فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ، إِذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: بَلَىٰ، لِي عَبْدٌ بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ**»(١).

قال بعض أهل العلم: هو علمٌ خاصٌّ، وهو من علم السياسة؛ وإلا

---

(١) المصدر السابق، (٣٤٠١).

موسىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- عنده من علم الوحي ما ليس عند هذا الرجل، وهو أعلم منه في هذا الجانب باتفاق. ولذلك قال الله -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾، أي علمناه من عندنا علمًا نافعًا خصّناه به، ومن ذلك ما أطلعه الله -عَزَّ وَجَلَّ- عليه من علم الغيب.

وقد جاء في حديث أُبَيٍّ السابق، أنه قال له الخضر: «يَا مُوسَىٰ: إِنِّي عَلَىٰ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ اللهُ لاَ تَعْلَمُهُ، وَأَنْتَ عَلَىٰ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَكَهُ اللهُ لاَ أَعْلَمُهُ»، ثم ساق الحديث، ثم قال: «جَاءَ عُصْفُورٌ، فَوَقَعَ عَلَىٰ حَرْفِ السَّفِينَةِ فَنَقَرَ فِي البَحْرِ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ، قَالَ لَهُ الخَضِرُ يَا مُوسَىٰ مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا العُصْفُورُ بِمِنْقَارِهِ مِنَ البَحْرِ». والله -عَزَّ وَجَلَّ- قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥]. وقال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: ٧٦].

فالنبي موسىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- وهذا العبد الصالح، يعرفان مقدار ما أوتيا من العلم، فهذا يهبهما التواضع، وكلما ازداد الإنسان علمًا، ازداد تواضعًا وخشيةً لله -عَزَّ وَجَلَّ-، قال الله -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾

بدأت الآن المحاورة بين موسىٰ،عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا العبد الصالح؛ قال له موسىٰ، عَلَيْهِ السَّلَامُ،: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾.

وهذا فيه **فوائد:**

الفائدة الأولى: تواضع العالِم، فموسىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- استجهل نفسه هنا، واستأذن أن يكون تابعًا للخضر، وسأل الخضر أن يرشده إلىٰ ما عنده من العلم. فقال

له موسىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾، فيه دليل كذلك علىٰ الاستزادة من العلم. قال أهل العلم: وهذا يُروىٰ عن قتادة -رَحِمَهُ اللَّهُ- قال: لو أحد اكتفىٰ من العلم بشيءٍ لاكتفىٰ موسىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- لكنه رحل للقيا هذا الرجل.

الفائدة الثانية: تعلُّم العالم الفاضل للعلم الذي لم يَمْتَهِر فيه ممن مَهَرَ فيه وإن كان دونه من العلم؛ فقد يكون هناك رجل عالم، لكنه في علمٍ ما يحتاج إلىٰ زيادة، فيذهب إلىٰ من هو أدنىٰ منه في العلم لكنه ماهرٌ في ذلك العلم، فيستفيد منه.

الفائدة الثالثة: علىٰ الإنسان ألا يستنكف عن طلب العلم ولو كان ممن هو دونه. ولذلك قال أهل العلم: لا ينال العلمَ متكبرٌ أو مستحٍ. الذي يرىٰ أنه فوق الناس، وأنه أعلم منهم وأفضل منهم ولا يريد أن يتعلم العلم، لا ينال العلم، فلذلك ينبغي للإنسان أن يخضع نفسه ويُذِلها لأجل طلب العلم، فهو بالعلم يَشْرُف، وقيمة المرء ما يحسنه، أكثر الإنسان منه أو أقل.

هذا نبي الله موسىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- وكليمه، وهو من أولي العزم من الرسل يقول لهذا العبد الصالح: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾، تأمل الأدب العظيم الذي تأدب به موسىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- في طلبه للعلم! عرض علىٰ صيغة الاستفهام، وهذه من باب الاسترشاد واسترفاق العالم، وفيه تواضع موسىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، بأن يعلمه مما علمه الله -عَزَّوَجَلَّ-.

لماذا قال: ﴿عُلِّمْتَ﴾ ولم يقل عَلِمْتَ؟ هذا من أدب الأنبياء وعلمهم بالله -عَزَّوَجَلَّ-، أنه أضاف العلم إليه -سبحانه-، أي علَّمك الله -عَزَّوَجَلَّ- العلم وغيره من الفضائل، وأن هذا العلم إنما هو هبة من الله -عَزَّوَجَلَّ-، وهبها لهذا الرجل. فهذا من باب الإقرار لتلك النعم وشكر الله -عَزَّوَجَلَّ- عليها، ونسبة العلم إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ-، وهذا يناسب قوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا﴾.

﴿رُشْدًا﴾، لماذا قال رُشْدًا مع أنه معلوم أنه رُزِقَ من الله -عَزَّوَجَلَّ- علمًا؟

لأن هناك علمًا نافعًا، وهناك علم غير نافع، فهنا يريد موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- أن يتعلم العلم النافع الذي هو مرشِد إلىٰ الخير والحق، وهكذا ينبغي للإنسان ألا يضيع عمره في تعلّمِ علومٍ لا تعود عليه بالرشد، ولا تعود عليه بالنفع، فيُشغل وقته ويُذهب زهرة عمره في أشياء لا تقوده إلىٰ الرُّشد ولا تنفعه، فيتعلم من العلوم ما لا فائدة فيه، يتعلم، فضلًا عن العلوم المحرمة، أشياءَ لا تقربه إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ- ولا تنفعه في دنياه. وهذا حال كثير من الناس، يشغل نفسه بأشياء لو صرف وقته في طاعة الله -عَزَّوَجَلَّ- وفي تعلُّم العلم النافع لحَصَّل خيرًا كثيرًا. وهذا فيه **فائدة:** أن العلم النافع يقود الإنسان إلىٰ الرشد وأن يكون راشدًا.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧﴾.

لماذا قال له الخضر هذه الجملة ﴿إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧﴾؟ أي لن تطيق الصبر علىٰ اتباعي لما ستراه من أفعال، في ظاهرها أنها منكر وباطنها بخلاف ما ترىٰ.

هذا يسميه أهل التربية والتعليم أصلًا من أصول التعليم، وهو توطين المتعلم وتنبيهه علىٰ أن بعض العلوم تحتاج إلىٰ جهد ومشقة، فأنت تقول مثلًا لشخص: «هذا العلم متين وأبوابه تحتاج إلىٰ فهم وجهد ومشقة، أنا ما أظنك أنك تستطيع أن تواصل». فأنت تعطيه توطئة لدخوله لهذا العلم، لكنك تقول: لا، أنا متفائل بأنك ستبدع في هذا العلم، وأنك إن صبرت ستوفَّق فيه. وهكذا تحفِّزه وتبين له العلم حتىٰ لا يضيع وقته فيدخل في شيءٍ ثم يستحسر وينقطع منه.

وهذا الرجل الخضر يعلم أن موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- رجلٌ يغار علىٰ محارم

الله -عَزَّوَجَلَّ-، ويغضب إذا أُنتهكت حدوده؛ ولذلك يعلم أنه سيعمل أعمالًا في ظاهرها أنها من المنكرات، وأن موسىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- لن يصبر ولن يسكت علىٰ مثل هذه المنكرات. فكأنه يقول: هناك أمور لا تعلمها هي مما علمنيها الله -عَزَّوَجَلَّ- فانتظر يا موسىٰ واصبر، ووطِّن نفسك علىٰ أن تصبر حتىٰ أكشف لك عن خبايا تلك الأمور.

وفيه **فائدة**، وهي كلمة «الصبر»، فالصبرُ مفتاح كل خير، ومن رُزق الصبر فقد أوتي خيرًا كثيرًا، وهذه الحياة تحتاج إلىٰ صبر، والذي لا يصبر لا يُحصّل شيئًا.

لا تحسبنَّ المجدَ تمرًا أنت آكلُه لن تبلغَ المجدَ حتىٰ تلعقَ الصَّبْرا

والذي يظن أن الحياة سهلة ولا يتزوَّد من الصبر، هذا يحتاج إلىٰ أن نُبين له أن هذا الفهم خاطئ.

إذا أنتَ لم تشربْ مرارًا علىٰ القذىٰ ظمئت وأيُّ الناس تصفو مشاربه

الحياة عمومًا تحتاج إلىٰ صبر ومصابرة، وخصوصًا في مقامات الرفعة والخير، ولا تُنال الإمامة في الدين إلا بالصبر واليقين. قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

والصبر نصف الإيمان، وقد ذُكر الصبر في القرآن كثيرًا وأُمر به الأنبياء، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤٤].

فلا بد للإنسان أن يتعلم الصبر، لا بد أن يوطِّن نفسه علىٰ أشياء مهمة، وإنما النصر كما قيل صبر ساعة؛ فيصبر الإنسان ويستحضر عاقبة ما تؤول إليه الأمور،

﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [النحل: ١٢٧].

سُئل كثير من الأئمة: بما حزتم ما حزتم عليه؟ قالوا بالصبر. روي عن عُمَرُ -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ- قال: «وَجَدْنَا خَيْرَ عَيْشِنَا بِالصَّبْرِ»(١). وهذا المقصد مهم، خصوصًا في زمن الفتن، لذا ركزت عليه وأطلت فيه؛ لأن الإنسان قد يستطيل البلاء، وقد تُعرض له الفتن، فنحن نقول إنما النصر صبر ساعةٍ. ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾ [الزمر: ١٠]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾ [آل عمران:٢٠٠]، ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾ [العصر:٣]. فاصبروا على ما أنتم عليه من الخير والحق والصلاح والقرآن والعلم والهدى والنور، فسرعان ما تنكشف تلك الفتن، «سحابة صيفٍ عما قريبٍ تقشّعُ».

لذلك سيرد موسىٰ -عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ- الآن برد جميل جدًّا على الخضر، خصوصًا في موضع الصبر، سنبين هذا بعد قليل.

تعالوا ننظر كيف جرت المحاورة بعد ذلك:

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي الخضر لموسىٰ -عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ- ﴿إِنَّكَ﴾ جاء بالتوكيد، لم يقل «قال لن تستطيع معي صبرًا»؛ لأن الأمر سيكون صعبًا، ستكون الأمور التي سيشاهدها موسىٰ -عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ- أمورًا فيها إتلاف لأموال الناس، فيها قتل، فيها أمور منكرة، ستأتي بعد ذلك.

في قوله: ﴿لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧﴾، لم يقل لن تستطيع صبرًا لأنك سترى أمورًا سأُحْدِثُها أنا لا طاقة لك بها يا موسىٰ.

---

(١) أخرجه البخاري في كِتَاب الرِّقَاقِ، بَابُ الصَّبْرِ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ، (٦٤٧٠).

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ٦٨﴾

قال الله -عَزَّوَجَلَّ- بعد ذلك: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ﴾، وهنا سببان للخضر ليرد حين يقول موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- لماذا لا أستطيع معك صبراً، هما: كيف تصبر علىٰ شيء أنت لم تعلم عاقبته، وكيف تصبر علىٰ شيءٍ أنت تظنه منكرًا وأنت لا تعلم وجه صوابه، ولا الحكمة من فعلي له، ولا المصلحة الباطنة التي اطلعتُ عليها دونك. ولذلك جاء في حديث أُبيّ عند مسلم قال: «شَيْءٌ أُمِرْتُ بِهِ أَنْ أَفْعَلَهُ إِذَا رَأَيْتَهُ لَمْ تَصْبِرْ»(١).

ولذلك نحن نقول اصبروا فأنتم لا تدرون عواقب الأمور، وما ترون أنه من تقدير الله -عَزَّوَجَلَّ- في ظاهره شر أو أنه صولة للباطل علىٰ الحق، فأنتم لا تدرون عواقب الأمور. ولذلك جاء في الصحيح عن خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: شَكَوْنَا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ فَقُلْنَا: أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلاَ تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ: «قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَىٰ رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ، مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، -تخيل النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يخاطب خَبَّابِ بْن الأَرتِّ -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- والناس مستضعفون ويعده بوعد جميل- وَاللهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ، حَتَّىٰ يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَىٰ حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلَّا اللهَ، وَالذِّئْبَ عَلَىٰ غَنَمِهِ، -ختم الحديث بكلام جميل- وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»(٢). قال -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «فَإِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الْفَضَائِل، بَابُ مِنْ فَضَائِلِ الْخَضِرِ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-، (٢٣٨٠).

(٢) أخرجه البخاري في كِتَابِ الإِكْرَاهِ، بَابُ مَنِ اخْتَارَ الضَّرْبَ وَالقَتْلَ وَالهَوَانَ عَلَىٰ الكُفْرِ، (٦٩٤٣).

تَلْقَوْنِي عَلَىٰ الحَوْضِ»[١].

لا بد أن يربي الإنسان نفسه وأن يُعد نفسه لأمور عظيمة، ويصبر ويترقب الفرج، فقد قال النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-: «وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»[٢].

﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا ۝٦٩﴾

﴿قَالَ﴾، أي موسىٰ -عَلَيْهِٱلسَّلَامُ- ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، لماذا علق موسىٰ -عَلَيْهِٱلسَّلَامُ- هنا الصبر بالمشيئة؟ هذا متعلق بقوله: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣﴾ في بداية السورة.

توجيه أهل العلم في تعليق موسىٰ -عَلَيْهِٱلسَّلَامُ- هنا الأمر بالمشيئة ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾:

القول الأول: إنما استثنىٰ موسىٰ -عَلَيْهِٱلسَّلَامُ- هنا لأنه لم يثق من نفسه بالصبر. لما قال له الخضر: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ۝٦٧ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ۝٦٨﴾، قال موسىٰ -عَلَيْهِٱلسَّلَامُ- الأمر عظيم ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا﴾.

القول الثاني: إنه حين رأىٰ موسىٰ -عَلَيْهِٱلسَّلَامُ- أن الخضر قد نفىٰ عنه وصف الاستطاعة، ﴿لَن تَسۡتَطِيعَ﴾، فقال موسىٰ -عَلَيْهِٱلسَّلَامُ-: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا﴾ وصاره.

---

(١) أخرجه البخاري في كِتَابِ الجِزْيَةِ، بَابُ مَا أَقْطَعَ النَّبِيُّ -ﷺ- مِنَ البَحْرَيْنِ، وَمَا وَعَدَ مِنْ مَالِ البَحْرَيْنِ وَالجِزْيَةِ، وَلِمَنْ يُقْسَمُ الفَيْءُ وَالجِزْيَةُ، (٣١٦٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، (٢٨٠٣). قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

القول الثالث: لئلا يكون ذلك اعتزازًا من موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- بنفسه واغترارًا وإعجابًا بها؛ لأن الخضر قال: ﴿لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٦٧﴾، فكان من الممكن أن يرد موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- فيقول: «ستجدني صابرًا»، لكنه قال: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ حتىٰ يُذهب الإعجاب والاغترار عن نفسه. ويوكل الأمر إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ- ويفوضه إليه. وهذا يقودنا إلىٰ مسألة تكلمنا عنها في قوله: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، وهي أنه لا أحد يوفِّق العبدَ إلىٰ أي عملٍ صالحٍ إلا اللهُ -عَزَّوَجَلَّ-، هو الذي يُدعىٰ ويُستنصر، وهو الذي يوفِّق عباده، وفيه اللَّجَأ إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ- والاعتماد عليه والتفويض إليه، ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [هود: ٨٨].

قال: ﴿صَابِرًا﴾، اسم فاعل. وهنا مسألة، لماذا قال موسىٰ: ﴿صَابِرًا﴾؟ هذا يعني أن موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- سيتحلىٰ بالصبر، ويحاول أن يجاهد نفسه في أن يكون من الصابرين، ويستمر علىٰ الصبر.

﴿وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۝٦٩﴾، يعني لا أخالفك بشيء تأمرني به. لكن لماذا جاء بقوله: ﴿وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۝٦٩﴾؟ لتأكيد الصبر؛ لأن الخضر قال له: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝٦٨﴾ في أمور منكرة، فقال: حتىٰ لو كانت هناك أمور منكرة في ظاهرها، سأصبر ولا أعصي لك أمرًا حتىٰ لو فعلت ما فعلت.

﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝٧٠﴾

قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿قَالَ﴾، أي الخضر، ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ﴾، أي لا تسألني أبدًا، إلىٰ أن أخبرك عن سبب فعلي الذي تستنكره، وأبين لك حقيقة هذا الأمر ووجه الصواب فيه.

وفيه **فائدة**، وهي الأمر بالتأنِّي والتثبُّت وعدم المبادرة إلىٰ الحكم علىٰ أي شيءٍ حتىٰ يعرف الإنسان كُنْهَ هذا الشيء، وما يراده، وما هو المقصود، وعدم الحكم علىٰ ظواهر الأمور.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء: ٩٤]، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات:٦]. فيها **قراءتان**: ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾، ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾.

يتثبت الإنسان ويتأنىٰ، فقد يرىٰ أمورًا في ظاهرها شيء فيستعجل فيها؛ فيعلم أن العجلة قد أفسدت عليه هذا الأمر. فالخضر قال له: ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾، حتىٰ أذكر لك هذا الشيء.

وهذه **الفائدة** مهمة جدًّا، خصوصًا في زمن الفتن، فينبغي للإنسان أن يصبر وأن يتأنىٰ ويتثبت حتىٰ لا ينساق إلىٰ مواطن الفتن؛ لأنه في زمن الفتن تختلط الأمور مع بعضها بعضًا، حتىٰ يصبح الحليم فيها حيران، وحتىٰ لا تقع قدمه في وحْل الفتن، وأن يسأل الله -عَزَّوَجَلَّ- العون والتوفيق.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: بعد ذلك «فانطلقا»، بدأت الرحلة بين موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- وهذا الرجل الصالح، وستجري الأحداث بين هذين الرجلين، ومحاورة في أمور سنتكلم عنها إن شاء الله -عَزَّوَجَلَّ- في الدرس القادم.

* * *



الدرس السابع عشر
(٧١-٧٨)

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِيۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾

هذه الآيات هي انطلاقُ رحلةِ موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- مع الخَضِر، وما حصل بينهما بعد أن اتفقا وتشارطا علىٰ أن يمضي موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- مع الخضر في هذه الرحلة التي سافر من أجلها موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا

لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾

جاء في حديث أُبي في الصحيح قوله -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**فَانْطَلَقَ الْخَضِرُ وَمُوسَىٰ يَمْشِيَانِ عَلَىٰ سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمَاهُمْ أَن يَحْمِلُوهُمَا،**

فَعَرَفُوا الْخَضِرَ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، - بغير أجر - فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَىٰ لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ»[(١)]، وفي روايةٍ: «فَخَرَقَهَا وَوَتَدَ فِيهَا وَتِدًا»[(٢)].

قوله: ﴿ فَٱنطَلَقَا ﴾، الضمير يعود علىٰ الخضر وموسىٰ -عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ-، فأين يوشع بن نون فتىٰ موسىٰ -عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ-؟ لم يُذكر. لَمَ لم يقل «فانطلقوا ومعهم يوشع ابن نون» الذي كان رفيقًا لموسىٰ -عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ-؟ أقوال لأهل العلم:

القول الأول: السياق هنا يدل علىٰ أنَّ القصة ستكون بين الخضر وموسىٰ -عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ- وهي المقصد، وليس ليوشع بن نون أثر في هذه المحاورة وهذه القصة، فلم يُذكر.

القول الثاني: إن فتىٰ موسىٰ -عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ- يُحتمل أنَّه تأخر عنهما.

القول الثالث: إن موسىٰ -عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ- صرفه وردّه إلىٰ بني إسرائيل.

وأيّا ما كان، فالمقصد الأساسي من القصة هو ما يدور بين موسىٰ -عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ- والخَضِر. ويوشع بن نون تابع ويذكر ضمن المتبوع (موسىٰ) -عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ-.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ﴾، استدل بعض أهل العلم علىٰ جواز ركوب البحر في غير الحالة التي يُخاف منها؛ لأن البحر آية من آيات الله -عَزَّوَجَلَّ-. وقد ذكر ابن العربي كلامًا نفيسًا في أنَّ من أراد أن يرىٰ عظمة الله -عَزَّوَجَلَّ-، فليركب البحر؛ فإن فيه أمواجًا كالجبال. وركوب البحر أمر مخيف جدًّا، ولذلك قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا

---

(١) أخرجه مسلم في كتابِ الْفَضَائِلِ، بَابُ مِنْ فَضَائِلِ الْخَضِرِ، عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، (٢٣٨٠).

(٢) أخرجه البخاري في كِتَابِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ﴿٦١﴾ ﴾، (٤٧٢٦).

هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٦٥﴾ [العنكبوت:٦٥].

وكان عمر -رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ- ينهىٰ عن ركوب البحر، ولم يعرف المسلمون ركوب البحر من خلال غزوات ونحو ذلك، إلا في عهد عثمان -رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ-، وكان ذلك بإشارة معاوية -رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ-.

المهم أن ركوب البحر آية من آيات الله -سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ-، وهذه السفن التي تجري في البحر -سبحان الله- كيف تثبُت في تلك الأمواج العاتية والمتلاطمة؟! وهذا من رحمة الله -عَزَّوَجَلَّ- بخلقه!

قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿خَرَقَهَاۖ﴾، أي الخضر. ﴿قَالَ﴾، أي موسىٰ -عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ- له ﴿أَخَرَقۡتَهَا﴾. وجاء في حديث أُبي بن كعب -رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ- في الصحيح، لما خرق الخَضِر السفينة قَالَ لَهُ مُوسَىٰ: «قَوْمٌ قَدْ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ -يعني بغير أجرٍ- عَمَدْتَ إِلَىٰ سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا»[1].

قوله: ﴿أَخَرَقۡتَهَا﴾، الاستفهام هنا غرضه الإنكار، يُنكر عليه موسىٰ -عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ- ويقول كيف تصنع ذلك؟!

قوله: ﴿لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا﴾، «اللام» هنا يسميها العلماء «لام العاقبة» وليست لام التعليل؛ لأنَّ موسىٰ -عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ- لا يسأله أخرقتها كي تغرق أهلها؟ لا، يسأله لماذا تصنع هذا؟ فإن هذا سبيل الغرق. ﴿لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا﴾، أي أنَّك خرقتها فإن خَرْقها يغرق أهلها.

وهذا فيه فائدة، أنَّ الأمور تجري علىٰ ظاهرها، وتتعلق الأحكام الدنيوية بها؛

---

(١) المصدر السابق.

فإن موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- ما كان عنده علم بما هُدي إليه الخضر بخرق السفينة، فتجري الأمور علىٰ ظاهرها.

«ونحن نعامل الناس بالظاهر، والله يتولىٰ السرائر، ولا نستطيع أن نتكلم فيما في قلوب الناس، أو نُفتّش عما في قلوبهم. ودائمًا يعامل الإنسان الناس علىٰ ظواهرهم، ويسلم له دينه، يعني يجعل قلبه سليمًا من الأضغان والأحقاد. وهكذا أخبر النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في تعامله مع المنافقين، إنَّما له الظاهر ويَكِل سرائرهم إلىٰ الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

قوله: ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾، فيه فائدة مهمة جدًّا، وهي حرص الأنبياء علىٰ الناس، موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- يعلم أنَّ السفينة لو غرقت سيكون هو من أول الغارقين؛ لكنَّه لم يهتم لأمر نفسه ولم يقل أخرقتها لتغرقنا، مع أنَّه -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- من بين الراكبين، لكن حمله الإنكار علىٰ الحمية للحق وحرصه علىٰ الخلق وشفقته -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- بهم، حتىٰ نسي نفسه -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-. وهكذا هم الأنبياء، وهكذا هم الموفَّقون الذين يحرصون علىٰ الناس، وما شُرع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا لأجل هذا الحرص علىٰ الناس والشفقة عليهم، وما شرعت النصيحة في الدين إلا لأجل هذا؛ فهذا مثال سابق لحرص الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- علىٰ دعوة الناس، وأنهم وهم يجاهدون الناس إنما يفعلون ذلك رحمة بهم، وشُرع الجهاد في الأصل رحمةً للناس، قال الله -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج:٤٠].

قال -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾، أي لقد أتيت شيئًا عظيمًا وفعلت

فعلًا منكرًا؛ أناس حملوك علىٰ سفينتهم بغير أجر، وتفضلوا عليك ونقلوك من الضفة الأولىٰ إلىٰ الضفة الثانية بدون أجر؛ فتفعل بهم هذا الفعل! وهذا فيه دليل علىٰ أنَّه ينبغي للإنسان ألا يكون لئيمًا، وفيه إشارة مهمة جدًّا ستأتينا عند قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ﴾، لها مناسبة في هذه الآية، وهذه آية للمتدبرين.

﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ۝٧٢﴾

قوله: ﴿قَالَ﴾، القائل هنا: الخضر. ﴿أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ﴾، أي ألم أخبرك بأنك لن تطيق الصبر علىٰ اتباعي؛ فإنك سترىٰ من أفعالي التي ظاهرها أنها منكر؟ والاستفهام في قوله: ﴿أَلَمۡ﴾ استفهام تقريري. وأيضًا في قوله: ﴿۞ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ۝٧٥﴾ وقلت لي ستجدني إن شاء الله صابرًا، فلمَ تُنكر الآن؟!

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ۝٧٣﴾

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي موسىٰ ﴿لَا تُؤَاخِذۡنِي﴾، المؤاخذة هنا مفاعلة، يعني من طرفين؛ لكن لماذا عبَّر بها موسىٰ -عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ-؟ الجواب: مبالغة في شدة الاعتذار. وهذا من أدب موسىٰ -عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ-.

لما نسي الشرط وأخذته الحميّة في الإنكار، قال: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ﴾. جاء في حديث أُبَي في الصحيحين، قال رسول الله -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ-: «كَانَتِ الْأُولَىٰ مِنْ مُوسَىٰ نِسْيَانًا»[1]، لما رأىٰ هذا الأمر المنكر نسي ذاك الشرط، فقال: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ﴾.

(١) أخرجه البخاري في كِتَابِ الأَيْمَانِ وَالنُّذُورِ، بَابُ إِذَا حَنِثَ نَاسِيًا فِي الأَيْمَانِ، (٦٦٧٢).

وفيه أيضًا دليلٌ علىٰ أنَّ الناسي غير مؤاخذٍ بنسيانه، لا في حق الله -عَزَّوَجَلَّ- ولا في حق العباد.

قال النبي -صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»[1].

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾، أي لا تُضيّق عليّ أمري معك، وتشدّد عليّ في صحبتي لك. وهذا فيه أنه ينبغي للمعلم أن يترفق بمن يعلِّمه، وألّا يكلفه ما لا يطيق أو يشق عليه، بل يعامله باللين ويأخذه بالتي هي أحسن. ولذلك جاء في وصف أولئك العلماء الذين يأخذون الناس بالرفق والهون قوله -تعالىٰ-: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران:٧٩].

قال أهل العلم: في بعض تفسير الربانيين أنهم الذين يربون الناس بصغار العلم قبل كباره، فيرفقون بالمتعلم، ويأخذون علىٰ يده ولا يكلفونه ما لا يطيق، فإنهم إن فعلوا ذلك نفروا منهم وأعرضوا عن العلم.

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾

قال: ﴿ فَٱنطَلَقَا﴾، أي موسىٰ -عَلَيْهِٱلسَّلَامُ- والخضر بعد أن نزلا من السفينة. جاء في حديث أُبي في الصحيح، قال: «فَلَمَّا خَرَجَا مِنَ الْبَحْرِ مَرُّوا بِغُلَامٍ يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ»[2]. جمهور أهل العلم: أن الغلام الصغير لم يبلُغ بعدُ، وفي روايةٍ «فَأَخَذَ

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرىٰ في كِتَاب الْخُلْعِ وَالطَّلَاقِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي طَلَاقِ الْمُكْرَهِ، (١٥٠٩٤). قال الألباني صحيح في المشكاة، (٦٢٩٣).

(٢) أخرجه البخاري في كِتَابِ أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ، بَابُ حَدِيثِ الخَضِرِ مَعَ مُوسَىٰ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ، (٣٤٠١).

الخَضِرُ بِرَأْسِهِ فَقَلَعَهُ بِيَدِهِ»[(١)]، وفي روايةٍ «وَجَدَ غِلْمَانًا يَلْعَبُونَ فَأَخَذَ غُلامًا كَافِرًا ظَرِيفًا فَأَضْجَعَهُ ثُمَّ ذَبَحَهُ بِالسِّكِّينِ»[(٢)]. فكيف نوفِّق بين الروايتين؟

قال ابن حجر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- في فتح الباري: «وَيُجْمَعُ بَيْنَهُمَا بِأَنَّهُ ذَبَحَهُ ثُمَّ اقْتَلَعَ رَأْسَهُ»[(٣)]. وموسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- ينظر إلىٰ هذا المشهد العظيم، غلام صغير ليس بمكلَّفٍ، ويفعل به الخضر هذا الفعل؛ ولذلك كان فعل الخضر بهذا الغلام سريعًا. أين الدليل علىٰ أنَّ الفعل كان سريعًا؟ لم يكن مثلما كان في السفينة، لما ركبوا السفينة ما خلع اللوح مباشرة. والدليل علىٰ أنَّ الفعل كانَ سريعًا هو الفاء. قال: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ المبادرة سريعًا مباشرة. لم يَظْهر لموسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- ماذا فعل هذا الغلام في الأصل؛ ولذلك استغرب موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- وغضب غضبًا شديدًا. وهذا كان الفيصل بين موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- والخضر في أن يضع حدًا للمشارطة. قال: ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةَۢ﴾، رد موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- ردًا مباشرًا. وفي قراءة: ﴿قَالَ أَقَتَلتَ نَفسًا زَاكِيَّةً﴾، بدا الإنكار عليه.

ومعنىٰ ﴿زَكِيَّةَۢ﴾، أي طاهرة من الذنوب، لم تعمل هذه النفس إثمًا ولا معصية ولم يُكلَّف، صغيرٌ لم يبلُغ، كما ذهب لذلك جماهير أهل العلم. وفي قوله: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ فيه **فائدة**، وهي أنَّ هذا فعلُ قتلٍ شنيع. والمفهوم من هذه الآية أنَّ القتل بالقصاص ليس منكرًا، ولذلك قال له موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةَۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾، وأنَّ القصاص كان في شرْعِ من قبلنا معروفًا.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر، (٨/ ٤١٩)، ط دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩.

وهنا سؤال مهم جدًّا، لماذا لم يذكر موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- من موجبات القتل؛ إلا قتل النفس بغير حق؟

لماذا لم يقل أقتلت نفسًا بغير نفسٍ أو ترك دينه أو كذا، مع أن الطفل صغير لم يبلغ الحلم؟

قيل هذا من باب المناسبة، يعني مناسبة وجود هذا الطفل، فكيف تعتدي أنت علىٰ شخص لم يرتكب شيئًا، ولم تتحدث معه، ولم تَرَ سلوكه ولم تفعل.

قال: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾، أي لقد جئت شيئًا ظاهر النكارة، وهذا أمر لا يُسكت عليه. وهذا فيه دليل علىٰ أنَّ القتل من أكبر الكبائر، وأنه من الموبقات. كما ذكر النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ، مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا»[1]. والله -عَزَّوَجَلَّ- جعل الوعيد الشديد لمن قتل مؤمنًا بغير حق. قال: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء:٩٣].

لماذا جاء في خرق السفينة بقوله: ﴿إِمْرًا﴾ وفي قتل الصبي بقوله ﴿نُّكْرًا﴾؟ قال أهل العلم:

النُّكر أشد من الإمر، مع أنّ معنىٰ ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾ يعني منكرًا عظيمًا، لكن نكرًا أشد؛ قالوا لأن الخرق ذريعة للغرق، احتمال أن يغرقوا أو لا، فهو ذريعة للفساد؛ لذلك أنكر عليه بقوله ﴿إِمْرًا﴾، لكن لما كان القتل فسادًا ظاهرًا أنكر عليه إنكار شديد، قال: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾. وهذا فيه فائدة، هي: أنَّ الذي حمل

---

(١) أخرجه البخاري في كِتَاب الدِّيَاتِ، بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾، (٦٨٦٢).

موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- إلىٰ ذلك، هو انتهاك الحدود؛ فهو لم يرضَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-- أن يُعصىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ-، وأن يُعتدىٰ علىٰ الناس، وأن يُخالَف أمر الله -عَزَّوَجَلَّ-؛ فلذلك مباشرة أنكر إنكارًا شديدًا. وهذا الإنكار الثاني لم يكن من موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- علىٰ سبيل النسيان؛ بل هو من باب عدم الصبر، كما ذكر أهل العلم.

﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾

لماذا زيد لفظ ﴿لَّكَ﴾ في هذه الآية؟ قال أهل العلم:

لم يذكرها في الأولىٰ؛ لأن الخضر هنا قصد زيادة المواجهة بالعتاب، يعني: «ألم يكن بيني وبينك المرة الأولىٰ وذكرت لك ألا تسأل، ثم كررت ﴿لَّكَ﴾ هذا الأمر، والآن تترك الوصية مرة ثانية، فاللوم هنا أشد». وقيل غير ذلك.

وهذه المرة الثانية التي وقعت من موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-، كما ذكرنا لم تكن نسيانًا؛ بل من عدم صبر موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-.

سبق أن أشرنا إلىٰ كلمة ﴿مَعِيَ﴾، يعني: لماذا لم يقل ألم أقل لك إنك لن تستطيع صبرًا وقال معي؟ لأن هذه الأمور التي ستحدث هي أمور منكرة في ظاهرها.

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾

ثم رد موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- بقوله: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾، أي بعد هذه المرة إذا فعلتَ شيئًا منكرًا في ظاهره وسألتك، فإنك تفارقني وتترك صحبتي، فحينئذٍ ستتوقف الرحلة وينتهي الأمر الذي بيني وبينك.

قال: ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾، أي قد وصلت إلىٰ حالٍ تُعذر

فيها في مفارقتي وترك صُحبتي.

وفي حديث أُبي، وقد ثبَت في الصحيح، أنَّ النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ مُوسَىٰ، لَوْلَا أَنَّهُ عَجَّلَ لَرَأَىٰ الْعَجَبَ، وَلَكِنَّهُ أَخَذَتْهُ مِنْ صَاحِبِهِ ذَمَامَةٌ»(١). «ذَمَامَة»، أي حياء وإشفاق من الذم واللوم.

فيه دليل علىٰ أنه ينبغي للصاحب ألا يفارق صاحبه في حال من الأحوال حتىٰ يعتذر منه، ولا يترك صحبته بل ينبهه، أمَّا يتركه -وهذا ما يفعله بعض الناس- فهذا ليس من المروءة في شيءٍ؛ ولذلك قال موسىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾

قال الله -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿فَانطَلَقَا﴾، أي الخضر وموسىٰ -عَلَيْهِمَا السَّلَامُ-، انطلقا يسيران بعد قتل الغلام إلىٰ أن بلغا قرية؛ فطلبا من أهلها إطعامهما، فامتنع أهل القرية علىٰ أن ينزلوهما ويطعموهما؛ وذلك لؤمٌ من أهل هذه القرية.

قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾، لماذا قال: ﴿أَتَيَا﴾ ولم يقل وصلا؟

الجواب: أنهما قصدا هذه القرية قصدًا، ولم تكن قريةً علىٰ طريقهما ومرَّا بها.
ما هي القرية التي وصل إليها موسىٰ والخضر -عَلَيْهِمَا السَّلَامُ-؟ اختلف العلماء فيها:

فقال بعضهم: هي أنطاكية، وقال بعضهم: هي برقة، وقال بعضهم: هي جزيرة

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الْفَضَائِلِ، بَابُ مِنْ فَضَائِلِ الْخَضِرِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، (٢٣٨٠).

في الأندلس إلىٰ آخره من أقوال كثيرة.

لكنَّ الله -عَزَّوَجَلَّ- لم يُعَيّن لنا هذه القرية، وهذا يسمىٰ في علوم القرآن من «الـمُبْهَمات» فلا يُبحث عنها، ولو كان في معرفة هذه القرية فائدة لذكرها الله -عَزَّوَجَلَّ- لنا. لكن المهم أن موسىٰ والخضر -عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ- انطلقا يسيران حتىٰ وصلا إلىٰ أهل قريةٍ.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾، في قوله: ﴿ٱسْتَطْعَمَآ﴾ فوائد:

الفائدة الأولى: فيه دليلٌ علىٰ إباحة طلب الطعام لعابر السبيل، فالمسافر يُباح له أن يطلب الطعام.

الفائدة الثانية: مشروعية ضيافة عابر السبيل.

الفائدة الثالثة: ذكر بعض أهل العلم أنه يجب علىٰ من استضافه ضيف أن يُضَيِّفَه وأن يكرمه، فحق الضيافة واجب. ولذلك سيقول له موسىٰ -عَلَيْهِٱلسَّلَامُ- بعد ذلك: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾.

الفائدة الرابعة: ذكر بعض أهل العلم، أنه من حق الضيف لو امتنع المضيف عن ضيافته، أن يأخذ حقه منه بالقوة.

الفائدة الخامسة: فيه دليل أنه إذا نزل بأحدٍ من أهل القرية أو أي أناس ضيف أن يكرموه. وهذا مما حث عليه الإسلام.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾، وهنا فائدة: لماذا كرر لفظ أهل مع أنَّ تقدير الكلام يكون: «فانطلقا حتىٰ إذا أتيا أهل قريةٍ استطعموهم»؟ الجواب: للتوكيد؛ وأنَّ موسىٰ والخضر -عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ-، استطعما

جميع أهل القرية. لو لم يذكر ﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾، لظن الناس أنهما ذهبا إلىٰ اثنين أو أربعة بيوت أو خمسة بيوت، لكن -موسىٰ والخضر-عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ- استطعما أهل القرية جميعًا، تَتَبَّعوهما واحدًا واحدًا بالاستطعام، لكن أولئك القوم كان فيهم لؤم وبخل؛ وإلا فمن نزل بساحته ضيف كموسىٰ كليم الله والخضر -عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ-، كيف يُرَد أولئك؟! لكن هذا من باب اللؤم.

ولذلك غضب موسىٰ -عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ-، وهذا الذي كنت أريد أن أذكركم به. لماذا غضب موسىٰ هنا؟ وما مناسبته بقوله في السفينة: ﴿قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا﴾؟ **المناسبة:** أنَّ موسىٰ -عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ- أنكر علىٰ الخضر كيف تصنع خرق السفينة، هذا من اللؤم، وقد أكرمك الناس وحملوك في السفينة بلا أجر، فالمفترض أنك تُكافئهم، لكن العكس في القرية الذين هم أهل لؤم وفعلوا بنا ما فعلوا، فكيف تُكرمهم وتصنع لهم معروفًا وتُقيم الجدار؟! هذا من مكارم الأخلاق.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَأَبَوۡاْ﴾، ما **الفائدة** من الإتيان بفعل أبىٰ هنا؟ لماذا لم يقل مثلًا فامتنعوا أو فرفضوا؟

الجواب: لأن الإباء أشد الامتناع، وهذا -والعياذ بالله- من سوء حال أهل القرية، فهم لم يرفضوا فقط، بل امتنعوا أشد الامتناع عن إكرام الضيف. قاتل الله البخل الذي يصنع بأصحابه مثل ذاك!

ولذلك كان النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ- يتعوذ بالله من البخل، ويقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ، وَالعَجْزِ وَالكَسَلِ، وَالجُبْنِ وَالبُخْلِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في كِتَابِ الدَّعَوَاتِ، بَابُ الِاسْتِعَاذَةِ مِنَ الجُبْنِ، (٦٣٦٩).

والبخل صفة ذميمة جدًّا وتدل علىٰ دناءة، فكيف يمسك الإنسان شيئًا عنده ليس له؛ فالمال الذي عندك أنت مستخلَف فيه؛ قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾ [الحديد:٧]. فكيف تشحّ بشيءٍ ليس لك؟! المال مال الله، قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩﴾ [الحشر:٩]. قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾، أي الخضر وموسىٰ -عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ- ﴿فَوَجَدَا فِيهَا﴾، أي في القرية ﴿جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾، المعنىٰ يريد أن يسقط، ويتهدم فأصلحه الخضر، يعني كافأ أهل القرية بأن يصلح هذا الجدار علىٰ ما قابلوهم من اللؤم. وهنا **مسألة**، هل الجدار له إرادة حقيقية فعلًا أم علىٰ سبيل المجاز؟ **قولان** لأهل العلم:

القول الأول: قالوا هذا علىٰ سبيل المجاز، يعني كناية عن أنَّ الجدار علىٰ وشك السقوط؛ فلذلك قال: يريد أن ينقض.

القول الثاني: قالوا هو حقيقة، أي الإرادة فيه حقيقة، الجدار يريد، وهذا هو الصحيح، فالجدار فعلًا يريد. قد يقول قائل: كيف يريد وهو جماد؟! الجواب: كونك لا تدرك الشيء لا يعني ذلك أن تنفي؛ وإلا لو سألناك الآن وقلنا: هل الحجر يُسَبّح؟ لقلت نعم؛ ولكن كيف يُسبِّح، أنت لا تدركه! فالذي جعله يُسبِّح، يجعله يُريد. قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤﴾ [الإسراء: ٤٤]، كونك لا تفقه إرادة الجدار؛ لا يعني ذلك عدم الإرادة. قال النبيّ -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ-: «**أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**»[1]. فالجمادات لها إرادة لكن نحنُ لا ندركها.

فقوله -جَلَّوَعَلَا-: ﴿فَأَقَامَهُۥۖ﴾، أي رده الخضر حال الاستقامة وأصلح أمره.

---

(١) أخرجه البخاري في كِتَابِ الزَّكَاةِ، بَابُ خَرْصِ التَّمْرِ، (١٤٨١).

وقد جاء في الحديث أنَّ الخضر رده بيديه ودفعه حتىٰ رد ميله، يعني لم يحتج إلىٰ إعادة البناء، وهذا أمر من الأمور الخارقة للعادة. قال بعض المفسرين أنه أعاد بناءه؛ لكن الصحيح الذي جاء في الحديث أن الخضر -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- ردَّه بيده وأصلحه بيده، وهذا من باب الكرامات. وموسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- ينظر إلىٰ هذا المشهد؛ فلذلك أنكر عليه مباشرةً؛ قومٌ فيهم لؤمٌ، منعونا حقنا من الضيافة، فكيف تكافئهم بأن تصلح لهم الجدار؟! قال: ﴿لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧﴾.

جاء في حديث أُبَيّ في الصحيح، فقال له موسىٰ: «قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُضَيِّفُونَا وَلَمْ يُطْعِمُونَا ﴿لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧﴾»[(١)]، وهذا فيه **فوائد**، وهي:

الفائدة الأولى: إباحة المكاسب، وأنَّ أفضل المكاسب ما يأكله الإنسان من يده.

الفائدة الثانية: جواز أخذ الأجرة علىٰ العمل.

الفائدة الثالثة: أنَّ نفقة الأتباع، نفقة موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- وغيره، علىٰ المتبوع، الخضر، فلذلك قال ﴿لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧﴾. وفي قوله: ﴿أَجۡرٗا﴾، أي لاتخذت عليه أكلًا تأكله، وهذا يناسب ﴿فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾، أي إطعام الطعام.

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ
بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ٧٨﴾

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ﴾، هذا من كلام الخضر، أي

---

(١) سبق تخريجه.

سؤالك لي واعتراضك علىٰ فعلي للمرة الثالثة، هذا هو سبب حصول الفراق بيني وبينك، وقد انتهىٰ الأمر الذي بيننا؛ فلن تصحبني بعد ذلك. لماذا قال: ﴿بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ ولم يقل هذا فراق بيننا؟

قيل: للتأكيد، أن الأمر انتهىٰ يا موسىٰ، ليس لك بعد ذلك أن تصحبني.

قال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾، أي سأُخبرك قبل أن أفارقك تفسير أفعالي التي أنكرتَها عليَّ، ولم تستطع أن تصبر عن سؤالي عنها حتىٰ أخبرك بحقيقتها. فما الذي حمل الخضر علىٰ خرق السفينة وعلىٰ قتل نفس وعلىٰ إقامة الجدار؟ هذا ما سنبينه -إن شاء الله- في الدرس القادم.

❊ ❊ ❊

الدرس الثامن عشر
(٧٩-٨٢)



﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ﴿٨٢﴾ ﴾

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ﴿٧٩﴾ ﴾

قوله: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ ﴾، أي لمساكين يطلبون فيها الرزق في البحر، وهذا فيه جواز العمل في البحر، وفيه دليل علىٰ أن المسكين قد يكون عنده مال لكن هذا المال لا يكفيه، فلا يخرجه ذلك عن دائرة المساكين. والمسكين عمومًا هو أحسن حالًا من الفقير، وهو مما تجب له الصدقة والزكاة.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا ﴾، هنا تقديم وتأخير، فيكون تقدير الكلام: «أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في

البحرِ وكان وراءهم ملكٌ يأخذُ كل سفينة غصبًا، فأردت أن أعيبها». يبين له ما السبب الذي جعله يعيب السفينة؛ وهو أن هذه السفينة كانت لمساكين يقتاتون منها، وأيضًا هذا الملك الجبار يأخذ كل سفينةٍ صالحة غصبًا. فأراد أن يبين الخضر سبب خرقه السفينة.

قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، هنا ذكر أهل العلم أن الخضر -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- خرق السفينة فجعلها معيبة. وجاء في حديث أُبَيّ -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- قال: «**فَأَرَدْتُ إِذَا هِيَ مَرَّتْ بِهِ أَن يَدَعهَا لِعَيْبِهَا، فَإِذَا جَاوَزُوا - تجاوزَ المرور من عند هذا الملك -أَصْلَحُوهَا فَانْتَفَعُوا بِهَا**»[١].

نسب إرادة العيب لنفسه، وهذا من أدبه مع الله -عَزَّوَجَلَّ-، بينما في الأمور الأخرىٰ سينسب ذلك إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ-.

قال: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾، كلمة «وراء» يذكر بعض أهل العلم أنها من الأضداد؛ يعني تطلق علىٰ الشيء وضده في لغة العرب، والذي يحدد المعنىٰ هو السياق. فوراء تُطلَق ويُراد بها أمام، وتُطلَق ويُراد بها الخلف، وتُطلَق علىٰ هذا وتُطلَق علىٰ هذا، والذي يحدد أيَّ المعنيين هو سياق الآيات.

أي المعنيين المراد به في قوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم﴾؟ قولان للمفسرين:

القول الأول: المراد بقوله: ﴿وَرَآءَهُم﴾ هنا أمامهم. يعني هم مُبْحِرون الآن من هذه الضفة إلىٰ تلك الضفة، سيلتقون في ذهابهم إلىٰ تلك الضفة بملك يأخذ كل

---

(١) أخرجه البخاري في كِتَابِ تَفْسِيرِ القُرْآنِ، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾، (٤٧٢٦).

سفينة غصبًا، فخرقها الخضر لأجل هذا السبب.

القول الثاني: قيل بل المراد بقوله: ﴿وَرَآءَهُم﴾ هنا الخلف، يعني خلفهم ملك يأخذ كل سفينة غصبًا.

وهذا هو الصحيح الذي يظهر -والله أعلم-؛ والسبب، قال أهل العلم:

لأن كلمة وراء إذا أُريد بها الأمام لا تكون إلا في الأوقات، ولا تكون في الأعيان. يعني مثلًا: قول الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون:١٠٠]، هذا وقت؛ يعني أمامهم. لكن لا تقل لشخص: وراءك رجل، تقصد به: أمامك رجل.

قال: ابن القيم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- فإن صحت قراءة: «وكان أمامهم ملكٌ يأخذُ كل سفينةٍ غصبًا»، وهي «قراءة شاذة»، يعني في حال رجوعهم من طريقهم يصبح أمامهم الملك. فإن هذه في حال ذهابهم ورجوعهم مرة أخرىٰ يصبح أمامهم هذا الملك الذي يأخذ كل سفينة غصبًا. «والأمر في ذلك سهل ويسير».

قوله: ﴿مَّلِكٌ﴾ هذا الملك يبدو أنه ظالم؛ لقوله: ﴿يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبًا ﴿٧٩﴾﴾.

في قوله: ﴿سَفِينَةٍ غَصۡبًا ﴿٧٩﴾﴾ هنا كلام محذوف يسمونه إيجاز حذف، تقديره: «أخذ كل سفينة صالحة غصبًا». لماذا قدرنا الحذف هنا بقوله صالحة؟ ما السبب؟ سياق الآية يدل علىٰ ذلك في قوله: ﴿خَرَقَهَا﴾، وفي قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾.

قوله: ﴿أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ دل ذلك علىٰ أنه كل سفينة غير معيبة يأخذها الملك. إذًا ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ يعني ظالمٌ، متسلطٌ، جبارٌ يأخذ كل سفينةٍ صالحةٍ غصبًا. وهذا فيه دليل علىٰ أنه لا يجوز أخذ أموال الناس بغير حق، وبغير طيب نفس منهم. قال

النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ إِلَّا بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ»(١)، ونهىٰ النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عن الاعتداء علىٰ أموال الناس، قال: «إِنَّ دمائكم وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ»(٢). ونهىٰ النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عن الظلم وأخذ أموال الناس، قال: «مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»(٣)، ولو كان المأخوذ قضيب أراك. يقول أهل العلم: حقوق العباد مبنية علىٰ المـُشاحّة، لا يجوز للإنسان أن يأخذ أموال الناس، ولا حقوقهم ولا يعتدي عليها؛ فإن هذا من الظلم. لكن الجبارين والمتسلطين يصنعون هذا.

فقوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾، أي كل سفينة صالحةٍ غصبًا.

لماذا قال الخضر -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾؟ لماذا لم يقل: «أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فعبتها»؟ ما فائدة هذا التعبير؟ الجواب: أنّ عيبَ السفينةِ كان عن قصد، وتأمُّل وتفكُّر من الخضر، وليس من باب الخطأ، بل كان يعرف ذلك وتقَصَّدَ خرق السفينة. وفيها **فوائد**:

الفائدة الأولى: أنه يجوز ارتكاب أخف الضررين؛ لأجل دفع أعلىٰ الضررين، يُدفع الشر الكبير بالشر الصغير. الضرر الكبير والصغير مفسدة، فعيب السفينة مفسدة، وأخذ الملك الظالم لهذه السفينة مفسدة، أيهما أكبر؟ مصادرة السفينة مفسدة كبرىٰ. ارتكب الخضر المفسدة الأقل من أجل ألا تقع المفسدة الكبرىٰ. وهذا من باب الفقه، أحيانًا قد يرتكب الإنسان مفسدة صغرىٰ من أجل أن يدفع بها

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، (٢٠٦٩٥)، ط الرسالة هـ.

(٢) أخرجه ابن حبان في كتاب الصلاة، بَابُ الْوَعِيدِ عَلَىٰ تَرْكِ الصَّلَاةِ، (١٤٥٥). قال الألباني في التعليقات الحسان علىٰ صحيح ابن حبان، حديث صحيح.

(٣) أخرجه البخاري في كِتَاب المَظَالِمِ وَالغَصْبِ، بَابُ إِثْمِ مَنْ ظَلَمَ شَيْئًا مِنَ الأَرْضِ، (٢٤٥٣).

المفسدة الكبرىٰ. وهذه قاعدة مقررة في الشريعة عندنا: «أن ارتكاب أخف الضررين مقدم علىٰ ارتكاب أعلاهما».

الفائدة الثانية: أنه يجوز للإنسان أن يتصرف في مال غيره بدون إذنه، إذا كان لأجل مصلحة أو دفع مفسدة. تصرَّف الخضر في مال أولئك المساكين وهي السفينة وبغير إذنهم، لكن كان تصرُّفه لأجل دفع مفسدة كبرىٰ؛ وهذا يرجع إلىٰ تقدير الإنسان وعلمه.

﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ ﴾

قوله: ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ ﴾، الغلام هنا سبق أن ذكرنا لكم أنه دون البلوغ.

قال: ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾، في الكلام محذوف تقديره: «أما الغلام فكان كافرًا وكان وأبواه مؤمنيْن». كيف عرفنا أنه كافر؟ سياق الآية يحدد ذلك في قوله: ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ هو الذي يحدد أن الكلام المحذوف: كافر. جاء في حديث أُبَيّ -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- أن النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- قال: «وَأَمَّا الْغُلَامُ فَطُبِعَ يَوْمَ طُبِعَ كَافِرًا، وَكَانَ أَبَوَاهُ قَدْ عَطَفَا عَلَيْهِ، فَلَوْ أَنَّهُ أَدْرَكَ أَرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا»[(١)]، أي كتب الله -عَزَّوَجَلَّ- عليه الشقاء. فَأطْلع الله -عَزَّوَجَلَّ- الخضر علىٰ أن هذا الولد قد طُبع علىٰ أنه كافر، وأنه لو كبر سيكون كافرًا وسيفعل بأبويه ما دفعه عنهما الخضر، دفع ذلك عنهما بالقتل. في قوله: ﴿مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ فيه فائدة، أن الله -عَزَّوَجَلَّ- يحفظ المؤمن فيدفع عنه الشرور، حتىٰ ولو عن طريق غيره. وهذه لها علاقة بالفتن، وهي أن المؤمن إذا ثبت علىٰ إيمانه، فإن الله -عَزَّوَجَلَّ- يصرف عنه السوء، سواء علم ذلك أو لم يعلم.

---

(١) سبق تخريجه.

قال: ﴿فَخَشِينَآ﴾، هذه الكلمة، هل هي من كلام الله -عَزَّوَجَلَّ- أو تابعة لكلام الخضر؟ قولان لأهل العلم:

القول الأول: هي من كلام الله -عَزَّوَجَلَّ-.

إذا قلنا إنها من كلام الله -عَزَّوَجَلَّ-، فكيف يكون معنىٰ فخشينا؟ هل الخشية المراد بها التي هي أخص من الخوف؟

الجواب: لا؛ والمراد بها سيكون:

إما أن تكون بمعنىٰ العلم، فيصبح الكلام: «وأما الغلام فكان أبواه مؤمنيْن فعَلِمْنا».

وإما أن تكون بمعنىٰ الكراهة، هذا إذا كان الكلام هو من كلام الله -عَزَّوَجَلَّ-.

القول الثاني: إنها من كلام الخضر، فإن الخشية تكون بمعنىٰ الخوف للأمر المتوهَّم.

وهذا هو الذي يظهر -والعلم عند الله عَزَّوَجَلَّ-، ويدل عليه السياق. أين الدليل علىٰ أن هذا الكلام من كلام الخضر؟ في قوله: «فَأَرَدْنَا» والمعنىٰ: «خشينا إن بقي الغلام حيًا أن يغشىٰ أبويه بالعقوق ويحملهما علىٰ الكفر بالله -عَزَّوَجَلَّ-».

وقد جاء في حديث أُبَيّ - رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ-: «**أَنْ يَحْمِلَهُمَا حُبُّهُ عَلَىٰ أَن يُتَابِعَاهُ عَلَىٰ دِينِهِ**»[1]. فكان الضرر اللاحق بالأبوين بالتأسُّف علىٰ قتل هذا الغلام أدنىٰ من الضرر اللاحق لهما عند كبرهما.

---

(١) سبق تخريجه.

وهذه فائدة نفيسة ينبغي أن يتنبه لها الإنسان، وهي: أن كل ما قدره الله -عَزَّوَجَلَّ- علىٰ العبد وكتبه عليه هو خير له، وإن كان في ظاهره أنه شر.

وقد ذكر الإمام القرطبي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- أنّ في هذه الآية تسلية للوالدين الذين يفقدان أبناءهما. تجدون أحيانًا بعض الناس -والعياذ بالله- إذا فقد ابنه ينهار، وتتغير حياته، ويرىٰ أنه فقد شيئًا كبيرًا، وهو لا يعلم أن هذا خير له. لا بد أن تضع في حسبانك وفي سويداء قلبك أن كل ما كتبه الله -عَزَّوَجَلَّ- لك هو خير لك، وإذا كان في ظاهره شرًّا. فأنت أيها المؤمن تترقب خيرًا من الله -عَزَّوَجَلَّ-، سواء علمت الخير وأدركته أو لا، ولو كشف الله -عَزَّوَجَلَّ- لك القدر، ما اخترت إلاّ ما كتبه الله -عَزَّوَجَلَّ- عليك، فالله -عَزَّوَجَلَّ- أرحم بك من نفسك، وأرحم بك من أمك وأبيك. فحينئذٍ يجب علىٰ المؤمن أن يسلّم بقضاء الله وقدره. ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾ [التغابن:١١]، وفي قراءة شاذة «ومن يؤمن بالله يَهدأْ قلبُهُ».

فدائمًا تفاءلوا، واعلموا أن الأشياء التي ترون أن فيها شرًّا، أو فيها أمورًا تكرهونها؛ فاعلموا أن الخير في دابرها، فالله -عَزَّوَجَلَّ- الخيرُ كلُّه في يديه والشر ليس إليه، لكن الإنسان بسبب ضعف عقله وتقصيره وظلمه وجهله، يتسخط ويرىٰ أن الأمور لو سارت علىٰ هذا النحو الذي يريد هو لكان خيرًا، بينما الخير كله فيما قدره الله -عَزَّوَجَلَّ- وقضاه. فأمّلوا واستبشروا خيرًا، واعلموا أن الله -عَزَّوَجَلَّ- من أسمائه «الحكيم»، وأنه إذا قدّر شيئًا فهو لحكمة.

لِحِكْمَــــــةٍ بَالِغَــــــةٍ قَضَــــــاهَا يَسْــتَوْجِبُ الْحَمْــدَ عَلَــىٰ اقْتِضَــاهَا (١)

دعوني أطيل في هذا الأمر؛ لأن كثيرًا من الناس يتسخط ويقول لماذا، لو أني

---

(١) انظر: معارج القبول للشيخ حافظ الحكمي، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، (١/ ٣٠) ط دار ابن القيم – الدمام، ١٤١٠هـ.

فعلت كذا وكذا لكان كذا وكذا، وأنا كنت أنتظر هذا المولود بعد السنين... إلخ، وهو لا يعلم أنه قد يكون هلاكه بسبب هذا الصبي. فترقبوا، ودائمًا الخير فيما قدره الله -عَزَّوَجَلَّ- لكم وتلذذوا بترقُّب الفرج. ولذلك قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ۝١٥٧﴾ [البقرة:١٥٦-١٥٧].

فانتظار الفرج من ألذِّ الأشياء، والله -عَزَّوَجَلَّ- يبدل عبده خيرًا. ولو علم أهل العافية يوم القيامة ما أعده الله -عَزَّوَجَلَّ- لأهل البلاء من الأجر، لتمنَّوا أن قُرِّضَتْ جلودهم بالمقاريض في الدنيا؛ لما يرون من كثرة الأجر. فما يدري الإنسان ماذا أعد الله -عَزَّوَجَلَّ- له من الخيرات والبركات.

فهؤلاء في قوله: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ﴾ كانوا ينتظرون أن يقطفوا زهرة وثمرة نفع هذا الصبي الذي قتله الخضر، لكن قدر الله -عَزَّوَجَلَّ- أن يقتل الخضر هذا الغلام؛ ثم جاءهم الفرج بعد ذلك في قوله: ﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ۝٨١﴾.

ولذلك قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ [التغابن:١٤]. فقد يحمل الأبناءُ الآباءَ على الظلمِ وعلىٰ البخلِ، وعلىٰ التقاعس وعلىٰ ترك الخيرات وعلىٰ فعل المنكرات، وهذا مشاهد. فلذلك الأنبياء كلهم، بلا استثناء، حينما يسألون الله الذرية لا يقولون ربنا هب لنا من لدنك ذرية، بل يشترطون ذرية طيبة. ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران:٣٨]، ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠٠﴾ [الصافات:١٠٠]، وهكذا.

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾

قوله: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا﴾، جاء في حديث أُبَيٍّ قال: «وَوَقَعَ أَبُوهُ عَلَىٰ أُمِّهِ، فَعَلِقَتْ -حملت المرأة-، فَوَلَدَتْ مِنْهُ خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا»[(١)].

وقوله: ﴿رَبُّهُمَا﴾ أسند الفعل (يبدلهما) إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ-؛ لأن الذي يأتي بالولدِ هو الله -عَزَّوَجَلَّ- وحده. وأضاف نسبة الولد الصالح إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ- من باب إضافة الخير؛ لأن الخير بيد الله -عَزَّوَجَلَّ-، بخلاف قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، عيب السفينة في ظاهره أنه شر فنسبه الخضر إلىٰ نفسه، بينما هنا قال: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾، وهذا من استعمال الأدب مع الله -عَزَّوَجَلَّ-.

وهكذا صنعت الجن لما قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، بنو الفعل للمفعول؛ من باب الأدب في عدم نسبة الشر إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ-. بينما الخير قالوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن:١٠].

قال: ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾، كلمة ﴿زَكَوٰةً﴾ هنا لها مناسبة مع آية أخرىٰ، في قوله: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾، فجاء هنا بلفظ ﴿زَكَوٰةً﴾؛ لأن موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- قال: كيف تقتل نفسًا زكية طاهرة من الذنوب، ولم تبلغ الحلم، يعني لم يُكتب عليه الإثم والمعصية؟ هنا رد عليه الخضر، قال: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾. جاء في حديث أُبَيٍّ -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- قال: «هُمَا بِهِ أَرْحَمُ مِنْهُمَا بِالأَوَّلِ، الَّذِي قَتَلَ خَضِرٌ»[(٢)]. وذكر بعض المفسرين فائدة، قالوا أُبدلا جارية، ليس بغلام.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، (٢١١١٨) وقال: شعيب الأرنؤوط، إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين.

(٢) سبق تخريجه.

قالوا هذا دليل علىٰ فضل البنات، وفيه أنهن خير، إلىٰ آخر ما قالوا. لكن عمومًا ظاهر الآية يدل علىٰ أنه غلام. ولا شك أن من يرزق البنات فقد أوتي خيرًا عظيمًا؛ لأنهن سيكُنّ حجابًا له من النار، ولذلك كان الأنبياء أكثر ذرياتهم بنات.

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾، لماذا جاء بلفظ المدينة مع أنه قال في الآيات التي قبلُ: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ وهنا قال: ﴿لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾؟ القرية هي المدينة نفسها، لكن لماذا قال هناك قرية وهنا مدينة؟

من الأقوال التي ممكن أن توجه في قول المدينة، قالوا: هذا من باب الاعتناء وإظهار نوع من الفضل، فهناك اجتمعوا علىٰ البخل، بينما هنا في هذه القرية كان يعيش رجلُ صالحُ له أبناء، ولذلك جاء هنا نوع من المدح. وهذا فيه **فائدة** مهمة نفيسة، هي أن للصلاح أثرًا حتىٰ في البقاع والأماكن، ولذلك لمّا ذكر الله -عَزَّوَجَلَّ- عن قوم فرعون قال: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان:٣٩]. فلصلاح العبد أثر حتىٰ فيمن حوله من الأشجارِ والأحجارِ والبقاعِ.

ولذلك يزداد العبد الصالح من الحسنات؛ لأنها ستشهد عليه تلك البقاع، ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾ [الزلزلة:٤]. وإذا مات الرجل الصالح فقده مسجَدهُ «المكان الذي يسجد عليه». ولذلك جاء هنا في قوله في المدينة.

قال: ﴿وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا﴾، قال أهل العلم:

مالٌ عظيم مدفون. واستدل به بعض أهل العلم علىٰ جواز دفن المال، وجواز ادخار المالِ للصغار حتىٰ يكبروا. قال: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا﴾، قيل هو الجد السابع. لكن ظاهر اللفظ -والله أعلم- يدل علىٰ أن أباهما هنا هو الأب المباشر، الأب الأول. هنا فائدة مهمة، وهي أثر الصلاح؛ فبصلاح الأب حفظ الله -عَزَّوَجَلَّ- لهذين اليتيمين مالهما. بل ليس الأمر كذلك وُرِيَ العجب، أرسل الله -عَزَّوَجَلَّ- الخضر، العبد الصالح أو علىٰ القول الآخر بأنه نبي، ومعه موسىٰ -عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ- كليم الله ليحفظ لهذين اليتيمين كنزهما! ليس فقط مجرد الكنز لا، بل انظروا كيف أثرُ الصلاح. ولذلك يقال إن سعيد بن المسيب لما رُزق ولدًا أصبح يتنفل كثيرًا، قالوا لمَه؟ قال: ألم تقرأ قوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا﴾، فهذا أثر الصلاح علىٰ الذرية. ولذلك تريد أن يصلح أبناؤك استقم أنت في نفسك، فسيحفظ الله -عَزَّوَجَلَّ- لك ذريتك ومالك، هذا أثر الصلاح.

فإذا كان هذا أثر الصلاح فيمن جاء بعد هذا الرجل الصالح، فكيف في الصالح نفسه؟! نسأل الله -عَزَّوَجَلَّ- أن يجعلنا وإياكم من عباده الصالحين. فالرجل الصالح رجلٌ مبارك، وقِس علىٰ ذلك. إذا قلنا رجل يدخل فيه الرجل والمرأة.

فالعبد الصالح رجلٌ مبارك وهذه من أعظم الفوائد. يرسل الله -عَزَّوَجَلَّ- الكليم موسىٰ -عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ- ومعه الخضر ليحفظ لهذين اليتيمين كنزهما؛ بسبب ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا﴾. وفيه فائدة وهي: أن خدمة الصالحين من الأمور المستحبة، فخدم الخضر هنا هذا الأب الصالح الذي مات وترك هذين الغلامين.

وأيضًا فيه دليل علىٰ أن نفع العبد الصالح ليس مختصًا بالآخرة، بل يدخل في

الدنيا؛ فإذا كان الله -عَزَّوَجَلَّ- قد حفظ لهذين اليتيمين مالهما **بسبب** صلاح أبيهما، فحينئذٍ سيكون نفعه لهما في الآخرة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ﴾ [الطور:٢١] هذا نفع للصلاح، وفيه **دليل** علىٰ أن الإنسان قد ينتفع بعمل غيره.

قال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾، أي يا موسىٰ، لماذا جاء بلفظ ﴿رَبُّكَ﴾؟ نسب الضمير إلىٰ موسىٰ -عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ-، ولم يقل مثلًا فأراد «ربنا أو ربهُما»؛ لأنه يريد أن يبين له ويوطئ له أن هذا الأمر من الله -عَزَّوَجَلَّ-، ليس من عندنا، ليس من عملي، وسيأتي ختام ذلك في الآية، وهذا يقطع بالتسليم أن موسىٰ لن يعترض بعد ذلك.

قال: ﴿أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾، أن يكبر اليتيمان حتىٰ يصلا إلىٰ سن الرشد وتمام القوة؛ فيستخرجا هذا الكنز.

﴿وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾، أي ما فعلته. قوله: ﴿رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ﴾ علىٰ **قولين**:

القول الأول: قيل في حالة هذين اليتيمين من إقامة جدار.

القول الثاني: إنه يعود علىٰ الأعمال الثلاثة وهي ما يتعلق بالسفينة، وما يتعلق بالغلام، وما يتعلق بالجدار.

وفيه **دليل** للعباد علىٰ ألطاف الله -عَزَّوَجَلَّ- في أقضيته، وأن الأمور قد تكون في ظاهرها شرًّا وفي باطنها خير، ولو تأملت هذه الأحداث لرأيت كيف أن في ظاهرها شرًّا ولكن باطنها خير.

قال: ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ﴾، أي ما فعلتُ ما فعلت من تلقاء نفسي، لم أقم

بخرق السفينة، ولم أقم بقتل الغلام، ولم أقم بإقامة الجدار، من عند نفسي، إنما هو مما أمرني الله -عَزَّوَجَلَّ- به.

هذه الآية في قوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ﴾ من الأدلة التي استدل بها القائلون بنبوة الخضر. أما الذين يقولون إنّه ليس بنبي، وأنه عبد صالح يقولون هذا من باب الإلهام.

قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾، يعود إلىٰ هذا الذي بينته لك؛ حقيقة ما استنكرته عليّ.

قوله: ﴿تَأْوِيلُ﴾، قال بعض أهل العلم: يعني هذا تفسير الأشياء التي فعلتها.

لكن الذي يظهر -والله أعلم- أنه ليس المراد به التفسير؛ إنما التأويل المراد به العاقبة، يعني هذه حقيقة الأمور التي كنت تنكرها عليّ.

قال: ﴿مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٨٢﴾، لماذا قال هنا: ﴿تَسْطِع﴾ وفي الآيات التي قبلها قال ﴿تَسْتَطِيعَ﴾؟ أيهما أطول في بِنْيَةِ الكلمة تستطيع أو تسطع؟ تستطيع أكثر حروفًا من كلمة تَسْطِع.

ذكر أهل العلم عدة **مناسبات:** من أجود تلك المناسبات ما ذكره ابن كثير -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- في تفسيره، قال: لَمّا كان الإشكال قويًا ثقيلًا، قابل الأثقل بالأثقل، والأخف بالأخف.

فموسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- من قبل أن تظهر له الحكمة، قال له الخضر تستطيع، جاء له بالكلمة التي حروفها أكثر فقابل الأثقل بالأثقل، بينما هنا لَمّا فَهِم موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- مقصد الخضر وزال عنه الإشكال، قابل الأخف بالأخف، فحذف التاء. هذا من الأقوال

التي قيلت في توجيه المتشابه اللفظي في قوله: «تستطيع وتسطع».

باقي لنا **مسألة** أخيرة نختم بها، وهي ما مناسبة ذكر قصة الخضر مع موسىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- وعلاقتها بالآيات التي قبلها وبعدها؟ وما علاقة الصبر في طلب العلم مع النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؟

قال -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ﴾ ما هي الآيات التي قبل هذه الآية؟ قال الله -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ ﴾.

وكأن هنا تسلية للنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن اصبر، وإن لم يستجيبوا لك، ولا تستعجل كما استعجل موسىٰ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- ولم يصبر في قصة الخضر، فهذه إشارة للنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بأنه يصبر ولا يستعجل.

لذلك فعل النبي -عَلَيْهِ السَّلَامُ-؛ لما جاءه ملك الجبال فقال: وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ، إِن شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ"، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»[(١)].

وفعلًا وقع، فخرج من صلب أبي جهل عكرمة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، ومن صلب الوليد بن المغيرة خالد بن الوليد -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-.

---

(١) أخرجه مسلم في كِتَاب الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابُ مَا لَقِيَ النَّبِيُّ -ﷺ- مِنْ أَذَى الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، (١٧٩٥).

وهذا هو سبب الصبر وعدم الاستعجال. وهذه فيها **فائدة:** نقول للدعاة: اصبروا ولا تستعجلوا قطفَ الثمار. اصبر؛ فأنت ليس عليك إلا البلاغ، فلا تظن أن دعوتك إذا كانت خالصة لوجه الله -عَزَّوَجَلَّ- أنها ستموت، لا، فلما مات الرجل الصالح وترك الكنز المدفون، بعث الله -عَزَّوَجَلَّ- له مَن يخرج هذا الكنز لليتامىٰ. فكذلك أنتَ أيها الداعية، وأنتِ أيتها الداعية؛ إذا بذرتم الخير وكان خالصًا لوجه الله -عَزَّوَجَلَّ-؛ فأبشروا! سيبعث الله -عَزَّوَجَلَّ- من ينشر لكم هذا الخير ولو رحلتم إلىٰ الدار الآخرة، وهذه سنة الله -عَزَّوَجَلَّ- في خلقه.

في زمن شيخ الإسلام ابن تيمية، كان أي شخص يجدون عنده شيئًا من كلام شيخ الإسلام يُسجن ويُعذب ويُحرم؛ حتىٰ أُتلفت جميع كتبه، فكان تلميذه ابن مِرِّيّ الحنبلي يقول: والله لينْشُرَنّ الله -عَزَّوَجَلَّ- علم هذا الرجل، وسيأتي أقوام هم الآن في أصلاب آبائهم ينشرون علم هذا الرجل. انظروا الآن، تُوفي شيخ الإسلام تقريبًا عام ٧٢٨، وبثَّ الله -عَزَّوَجَلَّ- علم هذا الرجل وانتشرت كتبه في الآفاق. فاصبروا أيها الدعاة، اصبروا وتفاءلوا واستبشروا، وأملوا خيرًا واصنعوا الخير، ولا تنتظر قطف الثمرة. لا تنتظر، فقد لا تقطفها أنت في حياتك، وقد لا يقطفها أبناؤك في حياتك، وتقطف الأجيال التي بعدُ هذه الثمرة.

❋ ❋ ❋

الدرس التاسع عشر
(٨٣-٨٩)



﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾

في هذه الآيات **مسائل:**

المسألة الأولى: متعلقة بمناسبة هذه الآيات لما قبلها، فما مناسبة هذه الآيات لما قبلها؟

ذكر بعض أهل العلم:

أن الله -عَزَّوَجَلَّ- لما قصَّ علينا طواف موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- بالأرض لطلب العلم، أعقبها بقصة مَن طاف بالأرض لطلب الجهاد، وقدم قصة طلب العلم علىٰ الجهاد لعلو درجته، فالعلم أعلىٰ مراتب الجهاد، ولذلك جاء الحديث قبل في قصة موسىٰ -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- في طلب العلم.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾، من هم السائلون؟ قال أهل العلم:

السائلون هم كفار قريش، تقدم أن أشرنا إلىٰ أن كفار قريش ذهبوا يسألون اليهود عن أمر النبي -صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فقال اليهود: سلوه عن ثلاثة أشياء، ومن تلك الأشياء عن رجل طاف الأرض، يقصدون ذا القرنين.

فقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾، أي يسأل كفار قريش عن رجل، يدعىٰ بذي القرنين. وجاء الفعل المضارع في قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ إشارة إلىٰ أن السؤال متجدد عندهم؛ فما زالوا يسألون النبي -صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ويكررون عليه السؤال، حتىٰ أجابهم عن ذلك.

هل كان السؤال عن شخصية ذاك الرجل بأن يذكر اسمه ولقبه ومولده وقومه وحاله مثلًا؟

الجواب: لا، في الكلام محذوف، يسمىٰ عند البيانيين إيجاز بالحذف وتقديره: «ويسألونك عن خبر ذي القرنين» وليس السؤال عن شخصه. وذو القرنين هو الإسكندر المعروف.

لكن هنا سؤال مهم جدًّا، لماذا لم يذكر الله -عَزَّوَجَلَّ- اسمه ولقبه وحاله وقومه؟

لأن ذلك ليس فيه فائدة، والبحث في مثل هذه الأشياء مضيعة للجهد، بل الأولىٰ أن يتعظ الإنسان ويعتبر بما في القصة. وقد اختلف العلماء -رحمهم الله- في سبب تلقيبه بذي القرنين بعد أن اتفقوا علىٰ اسمه الإسكندر، ولكن لماذا سمي بذي القرنين؟ **أقوال** كثيرة منها:

القول الأول: لأنه لما بلغ قرني الشمس يعني غروب الشمس ومشرقها سُمي بذي القرنين.

القول الثاني: لأنه كان له ضفيرتان من شعر فلقِّب بذي القرنين.

القول الثالث: قيل إن لتاجه قرنين، فسمي بذي القرنين. وقيل غير ذلك.

ثم اختُلِف في نبوته، هل هو نبي أو ليس بنبي؟ **قولان** لأهل العلم:

والصحيح أن ذا القرنين ليس نبيًا، بل هو رجل، ملك، صالح، عادل وليس بنبي.

في قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿قُلْ﴾، أي أجبهم يا محمد، ﴿سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ سأتلو، أي سأقص عليكم من خبر هذا الرجل الذي سألتم عنه. علىٰ من يعود الضمير في منه؟ **قولان** لأهل العلم:

القول الأول: يعود علىٰ ذي القرنين، يعني سأتلو عليكم من ذكر ذلك الرجل.

القول الثاني: إنه يعود علىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ-.

فسنفصل الآن هذين **القولين:**

تفصيل القول الأول: أما من قال إن الضمير يعود علىٰ ذي القرنين أي: قل سأتلو عليكم من خبره، فتصبح «من» تبعيضية. ما معنىٰ تبعيضية؟ أي بعض أخباره؛ بمعنىٰ أنّ هذا الرجل له أخبار كثيرة، وإنما سأقص عليكم بعضها. وكلمة ﴿ذِكْرًا﴾ يصبح معناها ما فيه عظة وتذكير وعبرة. ولذلك لما جاء الحديث عن أخبار ذي القرنين قال: ﴿سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ﴾، أي بعض أخباره. بينما لما جاء الحديث عن أصحاب أهل الكهف قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾. نقص

عليك ماذا؟ الجواب: ﴿نَبَأَهُم﴾.

لم يقل نحن سنقص عليك من أنبائهم؛ لأن قصة أصحاب الكهف محصورة؛ فلذلك قال: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم﴾.

بينما هنا، هذا الرجل أخباره كثيرة وأحواله مختلفة، فلذلك جاء بقوله: ﴿سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ﴾، أي بعض أخباره وقصصه ما فيه عظة وعبرة وتذكير لكم. هذا إذا أعدنا الضمير في قوله ﴿مِّنۡهُ﴾ علىٰ ذي القرنين.

تفصيل القول الثاني: ﴿سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ﴾ أي: سأتلو عليكم من جهة الله -عَزَّوَجَلَّ- ﴿ذِكۡرًا﴾، أي قرآنًا.

أي: ما سأذكره لكم، أيها الناس، أيها السائلون، لست من معاصريه إنما هو مما أخبرني الله -عَزَّوَجَلَّ- به، وها هو قرآن يُتلىٰ عليكم وستسمعون هذا الخبر.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ٨٤﴾

قال: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي مهدنا، ووطّئْنَا وأعطينا ما في الأرض لذي القرنين من المُلْك، وما قدرناه له من الجند ونحو ذلك. تأمل في قوله: «مَكَّنَّا، ءَاتَيۡنَٰهُ» ما مناسبتها؟ الجواب: أن هذا الرجل سيكون له شأن في الملك والنفوذ، والسلطة فلا يظن ظانٌّ أنها من تلقاء نفسه؛ بل هي مما أعطاه الله -عَزَّوَجَلَّ- من فضله، فليست بقوته وإنما هذا الذي أعطاه الله -عَزَّوَجَلَّ-. وهناك آية تدل علىٰ ذلك في سورة آل عمران، قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ ....﴾ وهنا ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ﴾.

قال: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ٨٤﴾، السبب في لغة العرب يراد به ما يُتَوصّل به

إلىٰ شيءٍ، أيُّ شيءٍ يكون وسيلة إلىٰ شيءٍ يسمىٰ سببًا. معناها: أي آتينا هذا الرجل من كل شيء يحتاج إليه من علم أو قدرة وآلة...إلخ، مما يعطيه التمكن في الأرض، فأعطاه الله -عَزَّوَجَلَّ- من كل شيء يُمَكِّنَهُ في الأرض سببًا يتوصل به إلىٰ أن يملك الأرض.

ولذلك يقال في التاريخ إن الذين ملكوا الأرض كلها أربعة أشخاص، اثنان من المسلمين، واثنان من الكافرين. وهذا الرجل، أعني ذا القرنين، أحد هؤلاء الأربعة. فلذلك أعطاه الله -عَزَّوَجَلَّ- كل ما يحتاج إليه في الملك، من المال، والآلات، والمصالح، والجند وكل ما يتعلق بهم.

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾

قال أهل العلم في معناها: أي فسار ذو القرنين في طريقه آخذًا بالأسباب والوسائل التي توصله إلىٰ مقصوده، سلك طريقًا وأخذ الأسباب والوسائل التي توصله إلىٰ مقصودة؛ فهو رجلٌ قد طاف الأرض بالجهاد في سبيل الله -عَزَّوَجَلَّ-. لكن الله -عَزَّوَجَلَّ- لم يخبرنا ما هي هذه الأسباب، ولم يأتِ علىٰ لسان رسوله -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ذكر هذه الأسباب التي اتخذها ذو القرنين. لكن معلوم أنها أسباب كثيرة متنوعة تعينه علىٰ الجهاد في سبيل الله والطواف في الأرض، وعلىٰ نيل مقصوده.

وهذا فيه **فائدة**، هي الحث علىٰ الأخذ بالأسباب وعدم الخمول، واتباع السنن الكونية. فالإنسان علىٰ قدر بذل الجهد يكون فوزه وظفره، بقدر ما تعطي بقدر ما تُوَفق في جميع شؤون حياتك.

اطلـــبَ العلـــمِ ولا تكســـل فمَـــا أبعـدَ الخيـرَ علىٰ أهـل الكسـل

ولذلك، من العقل والحكمة أن يتوكل الإنسان علىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ-. والتوكل علىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ- يكون بالاعتماد عليه والثقة به، وتفويض الأمور إليه، مع الأخذ بالأسباب، «اعقلها وتوكل».

فالإنسان يأخذ بأسباب ما يريد أن يصل إليه، إن كان يريد العلم أخذ بأسباب العلم وطرقه، وإن كان يريد نفع الناس يأخذ بالأسباب التي تعينه علىٰ ذلك، وهكذا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ٨٦﴾

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ﴾، أي وصل إلىٰ جهة الغرب، منتهىٰ الأرض من جهة الغرب، من حين جهة غروب الشمس.

قال: ﴿وَجَدَهَا﴾، أي وجد الشمس تغرب في عين حمئة.

قال: ﴿تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾، في قوله: ﴿حَمِئَةٖ﴾ قراءتان:

القراءة الأولى: ﴿حَمِئَةٖ﴾ التي نقرأ بها ومعناها ذات حَمَئَةٍ، والحَمَأ هو الطين الأسود المـُنتن، أي وجدها تغرب في عين ذات طين أسودٍ مُنتنٍ.

القراءة الثانية: وجدها تغرب في عين حامِئَةٍ، وحامئة معناها عينٌ حارَّة. ولا منافاة بين القراءتين.

فالقراءتان صحيحتان ومعناهما متفق ويمكن الجمع بينهما، أي وجد الشمس تغرب في عين حمئة وحارَّة، أي وجدها تغرب في عين ذات حماٍٍ، يعني في طين أسود

منتن وهي مع ذلك حارَّة.

سؤال، هل فعلًا تخرج الشمس من فلكها وتغرب في هذه العين ذات الطين الأسود المنتن والحارَّة؟

الجواب: لا. إذًا كيف يكون المعنىٰ؟ قال أهل العلم:

هذا في مرأىٰ عين الإنسان، وفي نظر الإنسان أن هذه الشمس تغرب في هذه العين؛ لأنها تختفي خلف هذا البحر المحيط. والعين في لغة العرب تُطلق علىٰ الينبوع الماء الكثير، ويصح في لغة العرب إطلاق العين علىٰ البحر، فهذا البحر حارٌّ بسبب قربه من الشمس وشعاعها ونحو ذلك، وفيه طين أسود، فلذلك إذا رأىٰ الإنسان غروب الشمس تغرب وكأنها تغرب في هذا البحر، وهي تختفي خلفه فهي لا تنفك عن فلكها ولا تنزل من السماء إلىٰ الأرض، وإنما هذا بسبب اعتبار نظر الناظر إلىٰ هذا الشيء.

قال -جل ذكره-: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾، أي وجد عند تلك العين علىٰ الساحل الذي تختفي وتغيب الشمس خلفه بالنسبة إلىٰ الناظر إليها البحرَ أمةً من الأمم. ولذلك جاء بالتنكير في قوله: ﴿قَوْمًا﴾، أي هؤلاء القوم غير معروفين.

قال بعض أهل العلم: من قال بأن ذا القرنين نبيٌّ، استدل علىٰ هذا بقوله: ﴿قُلْنَا﴾، عن طريق الوحي فهو نبي.

ومن قال: بأن ذا القرنين رجل صالح قال: فيكون ﴿قُلْنَا﴾ وصل إليه إما عن طريق نبي في وقته أبلغه بذلك، وإما عن طريق إلهام وصل إليه. قوله: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾، هؤلاء القوم كانوا كفارًا فُسّاقًا فخيَّره الله -عَزَّوَجَلَّ- بين أن يعذبهم أو يدعوهم إلىٰ الإيمان.

ما المراد بالتعذيب هنا؟ ذكر المفسرون عدة **أقوال:**

القول الأول: المراد به القتل.

القول الثاني: المراد به القتل والسَّبي.

القول الثالث: المراد به الضرب ونحو ذلك.

وهذا كله داخلٌ في معنىٰ التعذيب وذلك أنهم كفار.

وقال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ٨٦﴾، اتخاذ الحسنىٰ فيهم قيل: يعلمهم الدين والهدىٰ، والإسلام والشرائع ونحو ذلك، ويحسن إليهم ويعفو عنهم ويصفح، ولا يعاجلهم بالعقوبة.

لكن لماذا قال: ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ٨٦﴾ ولم يقل: «وإما أن تحسن إليهم»، فتقدير الكلام: «إما أن تعذب وإما أن تحسن»؟

قوله: ﴿حُسۡنٗا﴾، هذا مصدر، وجيء به مبالغة في الإحسان؛ حتىٰ كأنه اتخذ فيهم نفس الحسن، وهذا من باب الترغيب في دخول الناس في الدين والإرشاد والتعليم، فمهمة المجاهد في سبيل الله ليس القتل فقط، وإنما كما أنه يسعىٰ في فتح الأرض يسعىٰ كذلك في فتح القلوب بالهدىٰ والشرائع، وهذا هو ديننا. وهذا فيه أكبر دليل في الرد علىٰ من يزعم أن الإسلام دين قتل وسفك ونحو ذلك؛ بل الإسلام دين رحمة، ولذلك قال النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- لعليٍّ -رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ-: «**انْفُذْ عَلَىٰ رِسْلِكَ** -علىٰ مهلك لا تقاتل- **حَتَّىٰ تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ الإِسْلاَمِ**»[1]. هذه أول قضية قبل القتال، ولذلك ديننا دين رحمةٍ ودين حق، وهدفه ليس قتل الناس؛ بل

---

(١) أخرجه البخاري في كِتَابِ الجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابُ فَضْلِ مَنْ أَسْلَمَ عَلَىٰ يَدَيْهِ رَجُلٌ، (٣٠٠٩).

هدفه إخراج الناس من الظلمات إلىٰ النور.

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي ذو القرنين. الكلام الذي صدر من ذي القرنين كان موجهًا لمن؟ علىٰ أقوال أهل العلم:

القول الأول: إنه موجه لمن عنده، وهم خواصه وأهل مشورته.

القول الثاني: موجه للنبي الذي بلغه.

القول الثالث: موجه لأهل مشورته وخاصته ومستشاريه.

قال: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾، الظلم هنا المراد به الكُفر، أي من كفر فسوف نعذبه.

هنا **فائدة** مهمة جدًّا، لماذا جاء بحرف الاستقبال «السين» والتنفيس «سوف»؟ لماذا لم يقل «أما من ظلم فنعذبه»؟

جيء بحرف الاستقبال والتنفيس، إشارة إلىٰ أنه أولًا لا بد أن يدعوهم إلىٰ الإيمان، ثم لا يعاجلهم إلىٰ القتل، حتىٰ يبين لهم ويُعذر منهم وتقوم عليهم الحجة، يعني يتريث ولا يباشرهم بالقتل. وهذا كما ذكرت لكم قبل، أن دين الإسلام دين رحمة وشفقة وحرص علىٰ هداية الناس، وهكذا ينبغي أن يكون الداعية حريصًا علىٰ هداية الناس بقدر ما يستطيع، ليس المهم أن تحاسب الناس أو تعذبهم أو نحو ذلك، حتىٰ مع المخالفين، تصبر عليهم، وتطمع في هدايتهم، ولا تحكم عليهم ولا تعاجلهم سريعًا، بل تحاول أن تتلطف بهم؛ لعل الله -عَزَّوَجَلَّ- أن يهديهم. فلذلك قال: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾، أي سنتأخر وسنقدم لهم الدعوة إلىٰ هذا الدين، سننتظر منهم هل يستجيبون أو لا.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾

أي: من استجاب لدعوتنا ودخل في هذا الدين فحكمه سيأتي.

لكن هنا **مسألة** مهمة جدًّا وهي من باب اللطائف، أن الإسكندر، ذا القرنين، لم تأخذه سكرة الملك والانتصار والعلو علىٰ البطش، فلم يُفنِ أولئك القوم ولم يعاجلهم بالعقوبة، بل كان الرجل في غاية العدل والإنصاف؛ لأنه غالبًا إذا دخل الملوك قرية ماذا يصنعون؟ كما قالت بلقيس: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [النمل:٣٤].

هذا من باب الإقرار، أي هذا صنيعهم وفعلهم. لكن ذا القرنين من عدله وإنصافه، أن من أساء عاقبه ومن أحسن أكرمه. وهذا فيه **فائدة**، أن الإنسان أحيانًا - بغير ملك أو سلطان- قد يعلو علىٰ أقرانه؛ يُعطىٰ منصبًا، يقدَّم في مكان من الأمكنة، يظهر علىٰ بعض زملائه وأهل حيه، ونحو ذلك، فتأخذه نشوة هذا المنصب وسكرة هذا العمل، فيسيئ ويظلم ويتجرأ ونحو ذلك.

فالفتنة عند هذا الرجل أشد، وهي أنه قد أُعطي ملكَ الأرض، ويطوف في الأرض ما يشاء، مكنا له في الأرض ما يشاء، وله جنود وآلات وأشياء، ومع ذلك كان حكمًا عدلًا منصفًا. ويا ليت كثير من الناس يتحلىٰ بالإنصاف ويعدل! قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة:٨].

قوله: ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾، كلمة ﴿جَزَآءً﴾ مصدر، وهو مقدم وتقدير الكلام: «فأما من آمن وعمل صالحا فله الحسنىٰ جزاء». لكن لماذا قُدمت؟ قال أهل العلم:

قُدِّم للاعتناء بهذا الجزاء، وهذا الجزاء الذي سيكون هو الحسنىٰ.

اختلف العلماء في المراد بالحسنىٰ علىٰ قولين:

القول الأول: المراد بالحسنىٰ الخصال الحسنة، وأنه يجازيهم بالإحسان والثناء ونحو ذلك.

القول الثاني: إنّ المراد بالحسنىٰ هي الجنة.

لكن ذا القرنين ليس له حق في أن يُدخل أناسًا الجنة أو يخرجهم منها، قيل ذلك أمر من الله -جَلَّجَلَالُهُ- أخبر به ذا القرنين. وهي تشمل الجميع.

مسألة: عند الكلام عن القوم الكافرين قدم عذاب الدنيا، ثم ذكر عذاب الآخرة، قال: ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ هذا عذاب الدنيا بالقتل، ثم قال: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾ هذا عذاب الآخرة، ولما تكلم عن المؤمنين قدم جزاء الآخرة، ثم ذكر جزاء الدنيا، قال: ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ هذا جزاء الآخرة، ثم قال: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ هذا جزاء الدنيا، فلماذا صنع هذا؟

قال أهل العلم: لأن المؤمن مقصوده الأعظم الجنة، فلذلك قدم جزاء الآخرة، بخلاف الكافر فإنه لا يؤمن بالآخرة في الأصل، ويتكلم عن منكري البعث. والقصة مرت معنا في الرد علىٰ أولئك الذين أنكروا البعث، وهذا من مقاصد السورة كذلك.

قال الله -جَلَّجَلَالُهُ-: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾، أي سنتلطف معه وسُنُلين له القول في الدنيا، ونعلمه ما تيسر من الخير، ونعامله باليسر ونحسن إليه. وهذا هو المفترض أن يكون من الداعية، أنه يعامل الناس بالحسنىٰ برفق ولين.

وهكذا كان رسول الله -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-، كما في الحديث، جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَامَ يَبُولُ فِي

الْمَسْجِدِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: مَهْ مَهْ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَا تُزْرِمُوهُ دَعُوهُ فَتَرَكُوهُ حَتَّىٰ بَالَ»[1]. فقال هذا الرجل: والله لم أجد خير معلم للناس من محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. وفي بعض الروايات قال: «اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا، وَلَا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا»[2]؛ لِمَا رأىٰ من تعليم النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وتلطُّفه له في الخير. وكان النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يصنع هذا مع كل أصحابه، حتىٰ قال جرير -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: وَلَا رَآنِي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- «إِلَّا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِي»[3]. بل كان بعضهم يظن أنه من كثرة تبسُّم النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وتلطفه له أنه هو أحب الناس إليه.

فهذا الذي يجب علىٰ الداعية، أن يتلطف مع الناس، ويصبر عليهم، ويرفق بهم لعل الله -عَزَّوَجَلَّ- أن يخرج من أصلابهم مَن يقول لا إله إلا الله. وهذي القصة فيها تسلية للنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وأن من نكص عن الحق فالله -عَزَّوَجَلَّ- سيعذبه، وأما من آمن فله الإكرام في الدنيا والآخرة. قوله: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾، أي ثم سار ذو القرنين في طريق آخر بعدما انتهىٰ من مغرب الشمس، آخذًا بالأسباب والوسائل كي يصل إلىٰ جهة المشرق؛ لأنه بدأ بجهة المغرب ثم سيسير في رحلة إلىٰ جهة المشرق. ماذا حصل له في جهة المشرق؟ وكيف التقىٰ أولئك القوم؟ وتفاصيل ذلك كلها -إن شاء الله- في الدرس القادم.

❋ ❋ ❋

---

(١) أخرجه مسلم في كِتَابِ الطَّهَارَةِ، بُابُ وُجُوبِ غُسْلِ الْبَوْلِ وَغَيْرِهِ مِنَ النَّجَاسَاتِ، (٢٨٥).
(٢) أخرجه البخاري في كِتَابِ الأَدَبِ، بَابُ رَحْمَةِ النَّاسِ وَالبَهَائِمِ، (٦٠١٠).
(٣) أخرجه مسلم في كتاب فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ-، بَابُ مِنْ فَضَائِلِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ-، (٢٤٧٥).



الدرس العشرون
(٩٠-٩٧)

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ
عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾

سبق أن أشرنا إلىٰ أن ذا القرنين انطلق في رحلته، في طوافه للجهاد في سبيل الله، إلىٰ مغرب الشمس، وذكرنا المسائل المتعلقة بالآيات، ثم الآن سيتجه ذو القرنين إلىٰ مطلع الشمس. قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾، أي سار ذو القرنين حتىٰ بلغ أقصىٰ موضع يمكن سلوكه من الجهة الشرقية للأرض، حيث تطلع الشمس. قال: ﴿وَجَدَهَا﴾، أي وجد الشمس. قال: ﴿تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾، أي ليس لهم سترٌ من الشمس، فلا بناءَ عندهم، ولا أشجار غليلة، ولا

دور، ولا قصور. وزاد بعضهم وليس عليهم ثيابٌ. قالوا سبب ذلك هو وحشيتهم ونفرتهم من الناس، وعدم التمدُّن والهمجية التي يعيشون فيها. فبلغ ذو القرنين ذلك الموضع.

﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، اختلف العلماء -رحمهم الله- في اسم الإشارة كذَٰلِكَ علىٰ أقوال:

القول الأول: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فيه تشبيه. قالوا ما المراد به؟ قيل كذلك وقد علمنا بما لدىٰ ذي القرنين من الجند والأموال والآلات وأسباب الملك، فلم يخفَ علينا شيءٌ من ذلك.

القول الثاني: وقيل: بل المراد بالتشبيه ﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي كما بلغ مغرب الشمس، كذلك بلغ مطلِعها أو مطلَعها، كلاهما صحيح.

القول الثالث: وقيل: بل المراد بقوله ﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي كما حكم ذو القرنين في القوم الذين عند مغرب الشمس، حكم في الذين هم عند مطلع الشمس، وحكمه سبق في الآيات: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾ الآية. وقيل غير ذلك علىٰ أقوال كثيرة اقتصرنا علىٰ أشهرها.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾، أي أحطنا بما لديه من الجنود والآلات والعددِ والأسباب، علمًا تعلق بظواهر وخفايا ما عند ذي القرنين. وذلك أنه بلغت عنده من الأسباب من الجنود والآلات والعدد ونحو ذلك مبلغًا لا يحيط به إلا اللطيف الخبير. وقال بعض أهل العلم: بل المقصود به أحطنا بما عند

مطلع الشمس علمًا، لا يخفىٰ علينا ما هنالك من الأموال والأسباب ونحو ذلك.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾﴾

أي: ثم سار ذو القرنين في طريقٍ ثالثٍ آخذًا بالأسباب والوسائل التي تمكنه من سيره إلىٰ تلك الجهة. إذا كان ذو القرنين قد ذهب أولًا إلىٰ المغرب، ثم ذهب إلىٰ المشرق، فأين ستكون جهته الثالثة؟ قال بعض أهل العلم: إما سيتجه إلىٰ الشمال أو يتجه إلىٰ الجنوب. فالله أعلم إلىٰ أي الجهتين ذهب بعد ذلك.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾، المقصود بقوله ﴿ٱلسَّدَّيْنِ﴾ الجبلان، أي سار سيرًا حتىٰ بلغ موضعًا بين جبلين. قال: ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾، أي وجد من دون الجبلين ﴿قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾.

قوله: ﴿يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾، فيها قراءتان:

القراءة الأولى: ﴿يَفْقَهُونَ﴾ بفتح الياء والقاف التي نحن نقرأ بها. ويكون معناها، هؤلاء لا يكادون يفهمون ما يُقال لهم.

القراءة الثانية: ﴿يُفْقِهُونَ﴾ بضم الياء وكسر القاف. ويكون معناها، لا يكادون يُفهِمون أحدًا إذا نطقوا.

والمعنيان والقراءتان صحيحتان، والمعنيان متلازمان، أي هم لا يستطيعون أن يَفْهَمُوا ولا أن يُفْهِمُوا غيرهم؛ إما بسبب ألسنتهم أو قلة ذكائهم أو نحو ذلك. لكنهم لا يستطيعون أن يفهموا الآخرين ولا أن يُفهموهم ما يريدون.

﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿قَالُواْ﴾ أولئك القوم ﴿يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾.

مسألة، وهي أنهم طلبوا طلبًا من ذي القرنين، أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدًّا. فكيف فهموا قول ذي القرنين وكيف فهمهم، مع أن القراءة تقول: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾، ﴿لَا يَكَادُونَ يُفْقِهُونَ﴾؟ علىٰ أقوال لأهل العلم:

القول الأول: في كلمة يَكَادُونَ «كاد»، قيل: تدل علىٰ أنهم لا يفهمون مباشرةً، لكن قد يفهمون بمشقة وصعوبة.

القول الثاني: قال: بل لا يفهمون إلا بطريقٍ صعب؛ لأن «كاد» من أفعال المقاربة، فهم فهموا من ذي القرنين، وفهم منهم ذو القرنين لكن بصعوبة ومشقة.

القول الثالث: قال: لا، بل تكلم مترجم بينهم وبين ذي القرنين، فإن الله -عَزَّوَجَلَّ- أعطىٰ ذا القرنين ملكًا عظيمًا وهيأ له من الأسباب كما قال ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾، فكان عنده مترجم يترجم له، فيقول كلام أولئك لذي القرنين، وينقل كلام ذي القرنين لهم. وهذا قول جيد في التوجيه.

القول الرابع: قيل: إن الله -عَزَّوَجَلَّ- أعطىٰ ذا القرنين من الأسباب ما فِقه ألسنة أولئك القوم، فسخر الله -عَزَّوَجَلَّ- لذي القرنين ما فهم به وخاطب أولئك القوم وفهموا منه، فحينئذٍ زال الإشكال الذي يوجد في القراءة.

قوله: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾، هما قبيلتان من بني آدم. وتجدون أحيانًا في بعض

القصص والأخبار الإسرائيلية التي ليس لها دليل من الصحة في وصف أولئك القوم، بأنهم صغار الحجم جدًّا، وآذانهم كبيرة يفترشونها ويلتحفونها، ونحو ذلك من الأشياء والأخبار التي لا تثبت. إنما هما قبيلتان من بني آدم لهما صفات معينة، جاءت في بعض الآثار، مثل أن وجوههم كالمَجَانِّ المُطْرَقة، فُطْسُ الأنوف ونحو ذلك. هذا طبيعي يحصل بتفاوت بيئات الناس وهو موجود بين الناس، فالناس الذين يعيشون من أصول نشأوا في أوروبا غير الناس الذين نشأت أصولهم في إفريقيا، غير الناس الذين نشأوا في آسيا، يختلفون. لكنهم كغيرهم من البشر، لا يوجد شيء مفزع أو أشياء مختلفة تمامًا جذريًا في خلقتهم، لكنهم قومٌ كثير، يتناسلون كثيرًا. ولذلك صح عن النبي -صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنه قال: «يَقُولُ اللهُ -تَعَالَىٰ-: «يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟، قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَىٰ النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ» «قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَأَيُّنَا ذَلِكَ الوَاحِدُ؟» قال: أَبْشِرُوا، فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلًا وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا»(١). وذكر النبي -صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في أوصافهم «فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَىٰ بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ»(٢)، ففتنتهم عظيمة.

ما الفائدة من ذكر قصة ذي القرنين من يأجوج ومأجوج ومناسبتها لمقصد السورة؟ المناسبة هي الفتن.

ما علاقتها بالدجال؟ تذكرون في بداية السورة، ذكرنا أنه من فضل السورة

---

(١) أخرجه البخاري في كِتَاب أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ، بَابُ قِصَّةِ يَأْجُوجَ، وَمَأْجُوجَ، (٣٣٤٨).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، بَابُ ذِكْرِ الدَّجَّالِ وَصِفَتِهِ وَمَا مَعَهُ، (٢٩٣٧).

حفظ عشر آيات منها، والسبب فتنة الدجال.

فهؤلاء يأجوج ومأجوج يخرجون عقب الدجال إذا خرج وطاف في الأرض، انظر ما ذكر لنا الله -عَزَّوَجَلَّ- وحذرنا مثلًا من فتنة يأجوج ومأجوج؛ لأن السورة تتكلم عن الفتن، وأن فتنهم عظيمة، ولذلك قال بعدها ﴿مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، هذا هو المهم.

ولذلك مناسبة هذه الآيات مع مقصد السورة الذي ذكرنا هي الفرار من الفتن. وهؤلاء طلبوا من ذي القرنين طلبًا سيأتي الآن، قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ﴾. قال الله -عَزَّوَجَلَّ- في سورة الأنبياء: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧﴾ [الأنبياء ٩٦-٩٧]. هذا من علامات القيامة. لكن ذكر النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ-، كما في الصحيح، أنه سيحج البيتُ ويعتمر بعد يأجوج ومأجوج. قصتهم مشهورة وحديثهم في صحيح مسلم طويل معروف لمن أراد أن يرجع للقصة(١).

قوله: ﴿مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، هل وقع منهم الفساد أو أنهم سيفسدون بعد ذلك؟ **قولان لأهل العلم:**

القول الأول: قالوا وقع منهم الفساد، فكانوا ينهبون ويقتلون ويسرقون... إلخ.

القول الثاني: قالوا بل الفساد لم يقع منهم، وإنما سيقع منهم مستقبلًا. هذا

---

(١) المصدر السابق.

رأي ابن جرير -عليه رحمة الله- أنهم سيفسدون في الأرض، وفسادهم في الأرض يكون في آخر الزمان.

قوله: ﴿فَهَلْ﴾، الاستفهام هنا يراد به العرض، الآن سيعرِضون علىٰ ذي القرنين عرضًا. قال: ﴿نَجْعَلُ لَكَ﴾، أي يا ذا القرنين. ﴿خَرْجًا﴾، كلمة خَرْجًا فيها قراءتان:

القراءة الأولى: ﴿خَرْجًا﴾، أي جُعلًا مقابلًا، يعني أُجرة. يعني يا ذا القرنين، هل نجعل لك أجرةً ندفعها إليك مرةً واحدةً ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾، كم يكلف بناء السد؟ نحن نعطيك المال وتصنع بيننا وبين هؤلاء سدًّا.

القراءة الثانية: بالألف ﴿خَراجًا﴾، يعني أن نجعل لك أجرة معلومة نؤديها لك كل سنة.

الفرق بين الأولىٰ والثانية، القراءة الأولىٰ أن المال دفعة واحدة، والقراءة الثانية أن المال يُدفع كل سنة.

قوله: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾، فيه جواز أخذ الخراج والأجرة علىٰ الأعمال. فيجوز لو اتفق معهم ذو القرنين علىٰ أخذ الأجرة؛ فلو قال: لا بأس تكون تكلفة السد كذا أو تدفعون كذا وكذا من المال، فلا بأس. فلو اتفق اثنان علىٰ أجرةِ عملٍ معينةٍ، فالأصل الجواز.

قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾، أي بيننا وبين يأجوج ومأجوج سدًا. لكن السؤال هنا: لماذا قالوا بيننا وبينهم ولم يقولوا بينهم وبيننا؟ قال أهل العلم:

في تقديم بيننا وبينهم، وسيأتي بينكم وبينهم بعد ذلك، إظهار اعتناء ذي القرنين

بمصالح أولئك القوم. فالمهم عنده أولئك القوم وليس يأجوج ومأجوج، المهم عنده أن يرعىٰ شؤون هؤلاء الرعية، فيصنع بينهم أولًا وبين يأجوج ومأجوج سدًا.

قوله: ﴿سَدًّا﴾، أي ردمًا وحاجزًا. وهذا فيه دليل علىٰ الملك أن يقوم بمصالح الرعية وإصلاح الثغور وحمايتهم، ولو أن يأخذ من أموالهم إذا احتاج. واستدل بعض أهل العلم من هذه الآية ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ۝٩٤﴾ علىٰ اتخاذ السجون، وحبس أهل الفساد فيها؛ لأنه جعل بينهم وبينهم سدًا حاجزًا. فقالوا: فيه اتخاذ السجون لحبس أهل الفساد فيها.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ۝٩٥﴾

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي﴾، يعني الذي مكني فيه ربي وأعطاني وبسط لي من الملك والعلم والقدرة والقوة والمال ﴿خَيۡرٞ﴾ من المال الذي تعرضونه عليّ. وفيه فائدة، أنه ينبغي للملك أن يتعفف عن أموال رعيته. وكذلك في قوله: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي﴾ جواز التحدث بنعمة الله -عَزَّوَجَلَّ- إذا اضطر الإنسان لذلك، وأنه لا ينافي الإخلاص، وأيضًا فيه كذلك إسداء النعمة إلىٰ موليها أو معطيها. ولذلك قال: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ﴾، والعادة والغالب أن الملوك يجحدون النعم ويكفرون بها، ويغرُّهم ما عندهم من الملك والقوة والسلطان ونحو ذلك، لكن هذا الرجل كان رجلًا صالحًا، فدائمًا ينسب الفضل إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ﴾، أي خيرٌ من المال الذي ستعطونني إياه، فالذي أعطانيه ربي خيرٌ من الذي ستقدمونه لي. قوله: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾، أي برجال أقوياء يحسنون العمل. عرض عليهم فقط المساعدة بالرجال والآلات التي كانت عندهم، أما المال فهو موجود عنده. وهذا فيه دليل علىٰ العمل الجماعي، وأن الإنسان يحتاج إلىٰ غيره في قيام

الأعمال، خصوصًا الأعمال المهمة، ولا يستأثر الإنسان دائمًا بكل شيء. فبعض الناس عنده فكرة وأنه هو الذي سيقوم بكل الأعمال، هو الذي سيقوم بالدعوة إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ-، هو الذي سيقوم بكل شيء. لا، العمل بروح الجماعة والفريق الواحد هو المطلوب. لذلك لا تقوم الأعمال المؤسسية الناجحة إلا علىٰ روح العمل الجماعي. قوله: ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾، أي حاجزًا منيعًا قويًا حصينًا لا يستطيع يأجوج ومأجوج الخروج منه. وسيأتي بعد ذلك في الآيات كيف سيصنع لهم هذا الحاجز.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾، قد يشْكل هنا إشكال، وهو ألم يقل لهم ﴿مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ﴾، فلماذا طلب منهم قِطَع الحديد أن يأخذها منهم مع أنه عنده مال؟ قال أهل العلم: هذا يحتمل أنه طلب منهم ثمن القطع التي سيأتي بها لهم ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾، وقيل: لا، بل هنا المناولة يعطونه زبر الحديد. هناك فرق بين المناولة وأخذ الأجرة علىٰ العمل، يعني ممكن أنت أن تأتي بهذه الأشياء ولا تدفع لي أجرة العمل الذي سأقوم به أنا. فهناك فرق بين المناولة التي هي المساعدة وأخذ الأجرة. فمثلًا يقول لهم أحضروا الحديد ولن نأخذ أجرتنا مقابل تركيب الحديد ونقل الحديد وإذابة الحديد... إلخ. فهو لم يأخذها منهم -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-. قوله: ﴿ءَاتُونِي﴾، أعطوني ﴿زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾، زبر: جمع واحده زبرة. والمقصود بها قِطَع الحديد الضخمة العظيمة. ماذا سيصنعون بها؟ سيدفعها بين الجبلين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ

﴿ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾، الصدفين قيل ناحية الجبلين، أو ما بين الناحيتين من الجبل. ووضع الحديد ﴿قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا﴾، أصبح هذا الحديد حارًا ومن شدة حرارته احمر حتىٰ كأنه نار. في قوله: ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ﴾، هنا كلام محذوف تقديره: «النحاس». القطر الذي هو بعده ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ﴾ تقدير الكلام المفترض قال: «آتوني قطرًا أفرغ عليه». لكن لما جاء بعد ذلك قطرًا حذف هذا ودل الثاني علىٰ الأول. والمقصود بالقطر هو النحاس المذاب، سمي بهذا الاسم لأنه يقطر. تأمل كيف كانت الحرفة والصناعة عند ذي القرنين. قوله: ﴿أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ﴾، يعني أصبُّ عليه ﴿قِطۡرٗا﴾ نحاسًا مذابًا، ثم صنع بعد ذلك فاكتمل السد، أي هذا الحاجز المنيع.

﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧﴾

سيأتي الفرق بين اسْطَاعُوا واسْتَطَاعُوا سنذكره بعد ذلك. قال: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ﴾ أن يعلو ويتسوروا هذا السد، ما استطاعوا؛ لأنه أملس، وكذلك قال: ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧﴾، النَّقْب هو الثقب والخرق، أي لم يقدروا علىٰ خرق الردم من أسفله. لا يستطيعون أن يصعدوا ولا يستطيعون أن يخرقوه من أسفله، فهم محبوسون في هذا السد.

قد يقول قائل: أين السد هذا؟ وهل يمكن أن يصل إليه الآن، مع اكتشاف العلم الحديث والطائرات و... و...إلخ؟ نقول الله أعلم بمكانه ولا نستطيع أن نجزم. لأن بعض الناس الآن قال يأجوج ومأجوج سماهم وهم صنف من الأصناف، وأنهم كذا وكذا... إلخ. هذا كله من التخرّص، وهذا من علم الله –تعالىٰ–، وليس لوجود مكتشفات العلم الحديث الآن أن تطّلع علىٰ المكان. هذا من علم الغيب، لكن سيأتي يوم سيُفتح هذا السدّ.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ٩٨﴾، في قراءة جعله «دَكًّا» سنشير إليه بعد ذلك. سنشير إلىٰ ما يذكره بعض الناس عن هذا السد، وهل هو سور الصين و... و... إلخ في درسٍ قادم.

لكن يبقىٰ عندنا مسألة، وهي ورود إشكال هنا، قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ﴾، أي يعتلوا هذا السور ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧﴾، أي لا يستطيعون حفره. فكيف الآن نجمع بين هذه الآية وما جاء في الصحيح من أن النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ» وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامِ، وَالَّتِي تَلِيهَا.. »[1] الحديث؟

كيف قال فُتح من ردم يأجوج ومأجوج. والله -عَزَّوَجَلَّ- قال: ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧﴾ فكيف الجواب؟ وجه العلماء -رحمهم الله- هذا الحديث وجهين:

الوجه الأول: قالوا المقصود في الحديث هنا ليس الفتح الحقيقي، إنما هو من باب الإشارة إلىٰ أن أبواب الفتن والشرور قد فُتحت، وهذه استعارة، المقصود ضرب المثل بها.

الوجه الثاني: قالوا هذا أمر محسوس، يعني فعلًا فُتح من ردم يأجوج ومأجوج كما أشار النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- علىٰ الحقيقة.

طيب كيف والآية تقول: ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧﴾؟ قالوا: الآية تكون في خبر ماضٍ. يعني حال بناء السد، وقت ذي القرنين ما استطاعوا له نقبًا، لكن فيما يُستقبل لا. ولذلك جاء في حديث عند الترمذي وبعض أهل العلم يقول إنّ متنه منكر

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، بَابُ اقْتِرَابِ الْفِتَنِ وَفَتْحِ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، (٢٨٨٠).

كما قال ابن كثير -رَحِمَهُٱللَّهُ- [(١)]، أنه كل يوم يحفرون حتىٰ إذا بقي عليهم شيء يسير قالوا نكمل غدًا. فيرجعون فيرجع السد كما كان. حتىٰ في اليوم الذي يأذن الله -عَزَّوَجَلَّ- لهم بالخروج يحفرون ثم يقولون غدًا نكمل إن شاء الله، فيأتون في اليوم الذي يليه ثم يحفرون ويخرجون.

الجواب الآن في قوله: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ وقوله ﴿وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ۝٩٧﴾، ما الفرق بين اسْطَاعُوا اسْتَطَاعُوا؟ عندنا قاعدة بلاغية تقول «زيادة المبنىٰ تدل علىٰ زيادة المعنىٰ»، معنىٰ هذا كلما زادت بنية الكلمة في الحروف، زاد المعنىٰ عليها. مثال ذلك: هل كلمة اصبر ككلمة اصطبر في عدد الحروف؟ الجواب: لا، عدد حروف اصطبر أكثر من عدد حروف اصبر. فهل اصبر بمعنىٰ اصطبر؟ لا، اصطبر لها زيادة في مبنىٰ الكلمة، يعني عدد حروف أكثر، إذًا فالمعنىٰ الذي ستدل عليه كلمة اصطبر أكثر من المعنىٰ الذي تدل عليه كلمة اصبر، فهنا نفس الطريقة، اسْطَاعُوا واسْتَطَاعُوا؛ كلمة اسْتَطَاعُوا زيادة في مبنىٰ الكلمة.

إذًا فزيادة المعنىٰ في كلمة اسْتَطَاعُوا أكثر من المعنىٰ الذي في قوله اسْطَاعُوا.

حاول العلماء أن يوجهوا ذلك، بعضهم ذهب إلىٰ أن توجيهه من باب التفنن، لكن أقرب ما يمكن أن يقال في قوله: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أن أمر تسلق السد أسهل من أمر حفر النقب من تحت. فلذلك جاء بقوله: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾، يعني أن يعلو عليه ويتسلقوه، بينما الحفر من الأسفل الذي هو الثقب والخرق أصعب. فلذلك جاء بقوله وَمَا اسْتَطَاعُوا، يعني يحتاج إلىٰ جهد وعمل كبير، فلذلك عبر بقوله: ﴿وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ﴾، خصوصًا بالطريقة والهيئة التي ذكرتها الآيات، مثل زبر

---

(١) تفسير ابن كثير، (٥/ ١٩٧)، ط دار طيبة.

الحديد... إلخ. هذا من بيانات القرآن الكريم.

دائمًا حاول أن تربط هذه الآيات بمقصد السورة. ولذلك يستنبط من قوله: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ بمقصد السورة الذي هو الفرار من الفتن: أولًا في قوله: ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾ أن تجعل بينك وبين الفتن حاجزًا، هذا أول شيء، أن تجعل بينك وبين الفتن حاجزًا وحصنًا حصينًا، والتسلح بالإيمان، والفرار من الفتن، وعدم الخوض في الفتن.

دائمًا اجعل بينك وبين هذا سدًّا، وهذا السد الذي بينك وبين الفتن كيف يكون في القوة. تعهد أخذ السد، انظر كيف صنع، جاء بزبر الحديد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾، تأمل القوة التي بنىٰ بها ذو القرنين السد، فأنت تبني السد الذي بينك وبين الفتن بنفس القوة، بالإيمان والتسلح بالعلم، والفرار من الفتن، وعدم الخوض في الفتن، واللجوء إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ-، والاعتصام به، والأخذ بالأسباب... إلخ. كل ما يمكن أن يدور في ذهنك من الأسباب التي تقويك في الفرار من الفتن، افعلها، فحينئذٍ لا يستطيع أهل الفتن ولن تستطيع الفتن أن تعلوك، يعني تظهر عليك وتغلبك، ولا تستطيع أن تأتيك من جميع الجهات، لا عن يمينك ولا عن شمالك ولا من فوقك ولا من تحتك، فدائمًا اربط مثل هذه الأشياء بمقصد السورة.

❋ ❋ ❋



الدرس الحادي والعشرون
(٩٨-١٠٦)

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾

في قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾، القائل هنا هو ذو القرنين، وقيل في الكلام محذوف تقديره: «فلما أكمل بناء السد واستوىٰ واستحكم». علىٰ أن يكون اسم الإشارة يعود علىٰ الردم في قوله: ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾، فيكون ﴿قَالَ هَٰذَا﴾، أي هذا الردم ﴿رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾. وقيل إن اسم الإشارة يعود علىٰ التمكين في قوله: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾، ﴿قَالَ هَٰذَا﴾، أي هذا التمكين ﴿رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾. والذي يظهر -والعلم عند الله- أن اسم الإشارة يعود علىٰ الردم أي السد، فلما

اكتمل بناء السد قال اكتماله هذا: ﴿رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ﴾، أي رحمة من ربي بالناس حيث يسر لهم الصعب لبناء هذا السد المحكم ودفع عنهم فساد يأجوج ومأجوج.

في قوله: ﴿هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ﴾، هذا من باب شكر النعم. وهكذا دائمًا الأنبياء والصالحون يُسدون النعمة إلىٰ معطيها. الاعتراف بنعم الله -عَزَّوَجَلَّ- من شكر النعم وهو أحد أركانها. وهذه **فائدة** مهمة جدًّا، بعكس الجاحدين لهذه النعم القائلين: هذا لي، من عندي، أنا أوتيته بكسبي، ورثته كابرًا عن كابر... إلخ. فالأنبياء والصالحون في شدة التواضع، ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ﴾.

قال: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي﴾، أي الذي وَقّتَهُ لخروج يأجوج ومأجوج من وراء هذا الردم، ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ﴾، أي جعل الله -عَزَّوَجَلَّ- هذا الردم سدًّا مدكوكًا مهدومًا مستويًا ومُسوًّىٰ بالأرض.

جعل الله -عَزَّوَجَلَّ- هذا الخروج ليأجوج ومأجوج لاقتراب الساعة، فمن علاماتها الكبرىٰ خروج يأجوج ومأجوج.

وسبق أن أشرنا أن تَخَرُّصَ الناس في وجود مكان السد اليوم؛ وأنه سور الصين العظيم، وأن هذه الأمة هي الصين أنفسهم، وأنهم قد خرجوا وأفسدوا، وبعضهم تأوَّل أن يأجوج ومأجوج هم من قبيل الأمراض والأوبئة ونحو ذلك، كل هذا مخالف للأدلة الصحيحة الصريحة.

فأين مكان السد؟ العلم عند الله -عَزَّوَجَلَّ-. من هم يأجوج ومأجوج؟ من ذُكِروا في الحديث.

جاء في صفاتهم حديث، أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- قَالَ: «**قَوْمًا وُجُوهُهُمْ**

كَالْمَجَانِّ الْمُطْرَقَةِ»(١).

أما ما يقال إن في أشكالهم صغر، وأنهم يلتحفون إحدىٰ آذانهم ويفترشون الأخرىٰ، وما إلىٰ ذلك مما ليس عليه دليل، هذا يعتبر من التخرص بالغيب، وقد جعل الله -عَزَّوَجَلَّ- لنا قاعدة في بداية السورة في الحديث عن مثل هذه الأشياء. أين تجدون هذه القاعدة؟ في الآيات التي في قصة أصحاب الكهف في قوله: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾، وقوله: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وقوله: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾... إلخ.

كل ما يمكن أن يقال في القصص السابقة، يقال هنا: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى﴾.

قد يقول قائل: يمكن الآن أن يُكتَشَفوا مثلًا بالطائرات وغيرها ونحو ذلك، نقول: لا، هذا لا يمكن؛ لأن هذا من الأشياء التي أخفاها الله -عَزَّوَجَلَّ-؛ فمثلًا لما كتب الله -عَزَّوَجَلَّ- علىٰ بني إسرائيل التيه، كانوا يتيهون في الأرض وهم في نفس الأرض، أربعين سنة ما استطاعوا أن يخرجوا من تلك المساحة، فهذا من الأشياء التي أخفاها الله -عَزَّوَجَلَّ-. وقولوا مثلها فيما يتعلق بالمسيح الدجال، أين هو الآن؟ أين الجزيرة التي هو فيها... إلخ، كما يقال إن هذه من الأمور الغيبية. ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ﴾، أي مدكوكًا مستويًا بالأرض. ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾، أي كان وعد الله -عَزَّوَجَلَّ- بخروج يأجوج ومأجوج في آخر الزمان، وغير ذلك من وعوده -عَزَّوَجَلَّ- كائنًا لا محالة. ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [التوبة:١١١].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، بَابُ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ، فَيَتَمَنَّىٰ أَنْ يَكُونَ مَكَانَ الْمَيِّتِ مِنَ الْبَلَاءِ، (٢٩١٢).

﴿۞ وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا ٩٩﴾

قال الله -عَزَّوَجَلَّ- بعد ذلك: ﴿۞ وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾، علىٰ أي شيء يعود الضمير في قوله: ﴿۞ وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ﴾؟ **قولان** لأهل العلم، وعلىٰ هذين القولين يكون تغيير معنىٰ الآية:

القول الأول: هم يأجوج ومأجوج أنفسهم، فيكون تقدير الآية: «وتركنا بعض يأجوج ومأجوج يموج في بعض». وهذا يكون يوم انقضاء أمر السد، ﴿بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾، يعني يختلط بعضهم ببعض لكثرتهم هذا توجيه. وتوجيه ثانٍ: أي تركنا يوم يخرج يأجوج ومأجوج يختلطون بالناس، ويكون حينئذٍ يوم القيامة.

القول الثاني: ﴿۞ وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾ جميع الخلق بما فيهم يأجوج ومأجوج والجن والإنس ونحو ذلك، وذلك يكون يوم القيامة، يموجون حيارىٰ ويختلط بعضهم ببعض، كما قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ [الحج:١-٢]، ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ٥﴾ [التكوير:٥]، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨﴾ [الأنعام:٣٨]. فعلىٰ هذين القولين يكون معنىٰ الآية.

قوله: ﴿يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾، الموج معناه الاختلاط والاضطراب. وتأمل في مفردة يموج، والتي تدل علىٰ شدة أهوال يوم القيامة علىٰ التوجيه الثاني، وعِظَم الهول والموقف. نسأل الله -عَزَّوَجَلَّ- الأمن والسلامة.

في قوله: ﴿وَنُفِخَ﴾، قال بعض أهل العلم:

النفخة هنا هي النفخة الثانية، والنفخة الأولىٰ عند قيام الناس من قبورهم، علىٰ خلاف في عدد النفخات، والصحيح أنها ثلاث نفخات كما ذكر ذلك ابن كثير -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- في تفسيره(١).

المهم أن النفخة هنا المراد بها النفخة الثانية. قال: ﴿فِي ٱلصُّورِۚ﴾، الصور هو القرن الذي يُنفخ فيه، ينفخ فيه إسرافيل -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-، كما جاء في حديث عبد الله بن عمرو -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا- عند أحمد وأبي داود وغيرهما، جاء في الحديث أن النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، وَحَنَىٰ جَبْهَتَهُ يَنْتَظِرُ مَتَىٰ يُؤْمَرُ أَن يَنْفُخَ؟»، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَا نَقُولُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»(٢).

قال: ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ﴾، وهذا الجمع يشمل: الإنس والجن والملائكة والوحوش وجميع الدواب، كلهم يساقون إلىٰ أرض المحشر، للفصل بين الخلائق. قال: ﴿جَمْعًا﴾، سيأتي بعد ذلك لماذا قال جمعًا؟

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾

قال: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ﴾، أي أظهرنا وأبرزنا جهنم ﴿يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾. فلماذا أبرزت جهنم للكافرين في قوله: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [النازعات:٣٦].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير، (٥/ ١٩٩)، ط دار طيبة، ١٤٢٠هـ.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه في بَاب الْأَذْكَار، ذِكْرُ الْأَمْرِ لِمَنِ انْتَظَرَ النَّفْخَ فِي الصُّورِ أَن يَقُولَ: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، (٨٢٣). قال الألباني -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- صحيح «الصحيحة»، (١٠٧٩).

قال أهل العلم: هذا فيه تعجيل للعذاب لهم، وزيادة في الهمِّ والحزن- نعوذ بالله من الخذلان- فكيف وهم لم يصلوا إليها بعد ولم يدخلوها؟! قال: ﴿يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ۝١٠٠﴾، «اللام» في قوله للكافرين، قيل: بمعنىٰ «علىٰ» فيصبح تقدير الآية: «وعرضنا جهنم يومئذ علىٰ الكافرين عرضًا»، وتأكيد الفعلين (جمعناهم- عرضنا) ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ۝٩٩﴾ ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ۝١٠٠﴾ بالمصدر جمعًا وعرضًا لسبب، وهو أن هذا الجمع والعرض حقيقي ليس بمجاز، فيجمعون حقيقة ويعرض الكافرون علىٰ جهنم عرضًا حقيقيًا. لكن لماذا نكّر جمعًا وعرضًا؟ لماذا قال: ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ۝٩٩﴾، ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ۝١٠٠﴾؟ التنكير في ﴿جَمْعًا ۝٩٩﴾ و﴿عَرْضًا﴾ للتهويل. ثم لماذا جاء بالفعل الماضي مع أن الجمع والعرض سيأتي؟ لماذا قال: ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ﴾ ولم يقل فيجمعهم أو سنجمعهم؟ الجواب: أن التعبير بالفعل الماضي موضع المضارع في القرآن كله يعني أنه تنبيه علىٰ وقوع الشيء وتحقق وقوعه فعلًا، كقوله مثلًا في سورة النحل: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل:١]، ولم تأتِ القيامة بعد. لكن هذا دليل علىٰ تحقُّق الوقوع وأنه واقع لا محالة، قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ﴾، جاء بالاسم الموصول؛ ليبين ما هو الأمر الذي حداهم إلىٰ ذلك. قال أهل العلم: «في» هنا للظرفية المجازية؛ يعني أن الغطاء قد تمكن من أعينهم، بحيث كأنها محوية للغطاء ﴿عَن ذِكْرِي﴾، أي كانت أعينهم مغطاة عن النظر فيما تضمنته آيات القرآن وتوحيد الله -عَزَّوَجَلَّ-. كان سبب هذا الغطاء أولًا الخَتْم علىٰ القلب، فلما خَتَم علىٰ قلوبهم أصبحوا بعد ذلك لا يبصرون الحق، وهذا مر معنا في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، وسيمر معنا في السمع كذلك، وهنا جاء بهذه الآية تدل علىٰ ذلك في نفس السورة، قوله: ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۝١٠١﴾، هل القول لا يستطيعون السمع بسبب عجزهم أو صممهم؟

للعلماء في هذه الآية توجيهان:

التوجيه الأول: أنهم لا يستطيعون أن يسمعوا الحق سماعَ منتفعٍ، هم يسمعون لكن سماعَ الانتفاع لا يقع منهم لاشتغالهم بالكفر، وكذلك لا يبصرون الحق إبصارَ مهتدٍ.

التوجيه الثاني: قالو إن عدم الاستطاعة في قوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾ إنما هو للخَتْم الذي ختم الله -عَزَّوَجَلَّ- علىٰ قلوبهم، وعلىٰ سمعهم، وجعل علىٰ بصرهم غشاوة، كما قال في سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ﴾ [البقرة:٦-٧]. وهذا فيه دليل علىٰ أن الإنسان إذا تنكّر طريق الحق، وأعرض عن الحق، فإن جزاءه أن يختم الله -عَزَّوَجَلَّ- علىٰ قلبه، قال الله -عَزَّوَجَلَّ- في السورة هذه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

وهنا **فائدة:** وهي أن الإنسان يخضع للحق، حتىٰ وإن خالف الحق هواه وما تشتهي نفسه، فالمتكبر لا يوفَّق، قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ [الأعراف:١٤٦].

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، الاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ.

لماذا جاء بالاسم الظاهر في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ مع أن تقدير الآية: «وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا أفحسبوا أن يتخذوا عبادي»؟ قال أهل العلم:

هذا فيه زيادة في إظهار التوبيخ لهم، فهو ينكر عليهم صنيعهم في قوله: ﴿أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى﴾. والمقصود بقوله: ﴿عِبَادِى﴾ الذين عبدوهم وهم غير راضين؛ كمن عبد المسيح بن مريم، وكمن عبد الملائكة، وكمن عبد الأنبياء وغيرهم من الصالحين، الذين جعلوهم أربابًا يدعونهم من دون الله -عَزَّوَجَلَّ- ويستغيثون بهم. فإذا كان هذا في حق الأنبياء والصالحين من الملائكة وغيرهم، فكيف بغيرهم ممن اتخذ الأصنام أو اتخذ الشياطين ونحو ذلك؟!

في قوله: ﴿مِن دُونِىٓ أَوۡلِيَآءَ﴾، قيل في الكلام محذوف، اختلف العلماء في تقديره على قولين:

القول الأول: تقدير الكلام، قالوا: «أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء ولا أغضب عليهم ولا أعاقبهم في اتخاذهم لأولئك العباد أولياء من دون الله».

القول الثاني: يعني أربابًا ينصرونهم ويعينونهم، كلا ليس الأمر كذلك؛ بل سيكونون أعداءً لهم ويتبرؤون منهم. قال الله -عَزَّوَجَلَّ- في سورة مريم: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم:٨١-٨٢]، وقال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة:١٦٦]، وقال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ:٤٠-٤١]. وهكذا.

قوله: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ﴾، أي هيأنا، وفي إسناد قوله: ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾ إلىٰ ضمير الجلالة «نا»، قال أهل العلم للتهويل وإدخال الرعب في قلوب المشركين؛ فإن الله –عَزَّوَجَلَّ– القوي العزيز هو الذي أعد جهنم لهم، سيكون عذابهم عذابًا شديدًا. قال الله –عَزَّوَجَلَّ–: ﴿جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ في قوله: ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾، لماذا جاء بالاسم الظاهر مع أن تقدير الآية: «أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إنا أعتدنا جهنم لهم نزلًا»؟ قال أهل العلم: هذا من باب الذم لهم، وكذلك من باب إشعارهم بأن ذلك التجهيز والتهيئة لجهنم كان بسبب كفرهم، وأن جهنم خاصة بهم، جُهزت وهُيئت لهم –والعياذ بالله–. قوله: ﴿نُزُلًا﴾، النزل في لغة العرب هو الذي يراد به ما يعد للضيف من الكرامة ونحو ذلك. وهنا، اختلف العلماء –رحمهم الله– في قوله: ﴿نُزُلًا﴾، علىٰ قولين:

القول الأول: ﴿نُزُلًا﴾ بمعنىٰ منزلًا، أي إنا أعتدنا جهنم للكافرين منزلًا ينزلون بها.

القول الثاني: ﴿نُزُلًا﴾، أنّ النزل هنا ما يعد للضيافة، فكأن الله –عَزَّوَجَلَّ– أعد جهنم هذه ضيافة لهم، فهم يعطونها كالضيافة، وهذا من باب التهكم والتبكيت. وكلا المعنيين صحيح، أنّ جهنم منزل لهم، وأعدت لهم من باب الضيافة.

﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣﴾

قال الله –عَزَّوَجَلَّ–: ﴿قُلۡ﴾، الخطاب للنبي –صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ–، أي قل يا محمد. لمن؟ قال بعض أهل العلم:

إن الخطاب لهؤلاء المجادلين بالباطل الذين سبق ذِكْر الله –عَزَّوَجَلَّ– عنهم قال: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ﴾، فقال قل لهم: ﴿هَلۡ نُنَبِّئُكُم

بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾، ويشمل الخطاب كذلك الناس جميعًا؛ أي قل يا محمد لهؤلاء وللناس جميعًا: هل أبين لكم نبأ مَن هم الذين يعملون وأعمالهم تكون وبالًا. من هؤلاء؟ ولاحظ قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾، لماذا جمع كلمة أعمالًا؟ لماذا لم يقل: «قل هل ننبئكم بالأخسرين عملًا»؟ قال أهل العلم:

لمـّا كانت أعمال الكافرين مختلفة، منهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد النجوم، ومنهم من يعبد الجن، ومنهم من يعبد الأنبياء، ومنهم من يعبد المقبورين، ومنهم من يعبد الأصنام ونحو ذلك؛ جمع التمييز الذي هو أعمالًا، فكلمة أعمالا: تعرب تمييزًا، فجمعها فقال: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾، معنىٰ ذلك أنهم يعملون.

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾﴾

بين الله -عَزَّوَجَلَّ- صفتهم، فقال: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، يعني يسعون في الحياة الدنيا يعملون ويجتهدون في العبادات، يتقربون إلىٰ معبوداتهم، يلوذون بهم، يلجؤون إليهم، يذبحون لهم وينذرون لهم... إلخ. قال: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾، هذه الآية وإن كانت في حق الكافرين، لكن يدخل فيها كل من كان يعمل علىٰ غير هدًىٰ وعلىٰ غير بصيرة، فيدخل فيها كل من عبد الله -عَزَّوَجَلَّ- علىٰ غير الطريقة المرضية، وهو يحسب أنه يحسن صنعًا، فيدخل فيهم أهل البدع وأهل الضلال -والعياذ بالله- ولذلك قال النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»[1]، «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا

---

(١) أخرجه مسلم في كِتَابِ الْأَقْضِيَةِ، بَابُ نَقْضِ الْأَحْكَامِ الْبَاطِلَةِ، وَرَدِّ مُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، (١٧١٨).

فَهُوَ رَدٌّ»(١). يعني مردودٌ عليه، فهم يعملون. وقال -تعالىٰ-: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ① وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ② عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ③﴾ [الغاشية:١-٣]. وهذه الآية من أعظم الآيات التي يفزع منها الإنسان؛ فما بالك بإنسان يفني عمره ستين سنة أو سبعين سنة، ويظن أنه يقدم أعمالًا صالحة، ثم بعد ذلك لما يُقْدم علىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ- يجعلها الله هباءً منثورًا، ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ㉓﴾ [الفرقان:٢٣]. -فنعوذ بالله-. فهذه الآية مخيفة، قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ﴾ [فاطر:٨]، وقال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ⑭﴾ [محمد:١٤]. ولذلك قال أهل العلم:

الاقتصادُ في السنة خيرٌ من الإكثار في البدعة. يعني كونك تعمل أعمالًا يسيرة وقليلة علىٰ سنة النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- متبعًا لا مبتدعًا، خير من أن تجمع من الأعمال التي تظن أنها صالحة وهي باطلة في أساسها. احذروا أيها الإخوة وكونوا متبعين لا مبتدعين، وعليكم بالسنة، الزموها وتحرَّوا دائمًا الدليل، اسألوا هل فعله النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-؟ هل فعله أصحابه -رضوان الله عليهم-؟ وما الدليل علىٰ ذلك؟ حتىٰ تبرأ إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ-. فنسأل الله -عَزَّوَجَلَّ- أن يهدينا سواء السبيل.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ⑩⑤﴾

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾، باسم الإشارة البعيد؛ ليبين لهم أن ما ارتكبوه

(١) المصدر السابق.

شيء عظيم جدًّا. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ﴾، في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾، أي جحدوا آيات القرآن الكريم وكذلك الآيات الكونية التي تدل علىٰ وجوب الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله... إلخ، فجادلوا فيها بالباطل وأعرضوا عنها. قوله: ﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾، أي بالبعث، وهذه من أهم الإشارات التي جاءت بها السورة، ابتداءً في تقرير عقيدة البعث، فإن كفار قريش كانوا ينكرون البعث. فلاحظ أن قضية الرد علىٰ البعث مشارٌ إليها في جميع السورة، يعني خذ مثلًا قضية الاستدلال بالبعث في أمر السدين في يأجوج ومأجوج، قال: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ۝٩٨ ۞ وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾، فهذا دليل علىٰ البعث وإشارة للبعث، فكأنما يقال: الذي جمع يأجوج ومأجوج وجعلهم بين السدين قادر علىٰ أن يجمع الخلائق يوم القيامة وهكذا. وإلا لو تدبرتم السورة ستجدون أشياءَ عجيبة لكن لا نستطيع أن نمر علىٰ كل شيء في هذه المدارسة، فتحتاج منكم بعد أن تحفظوا هذه السورة أن تعيدوها، وتتدبروها، وتقفون معها.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾، أي هم فعلًا عملوا، لكن أعمالًا علىٰ غير هدًىٰ فتحْبط الأعمال، ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [الفرقان:٢٣].

في قوله: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ۝١٠٥﴾، خلاف بين المفسرين في المراد بهذه الآية، علىٰ قولين:

القول الأول: إنما يثقل الميزان بالطاعة والتي توزن الحسنات والسيئات، وهؤلاء الكفار لا طاعة لهم فحينئذ لا يقام لهم وزن. ولأن الذي يوزن هو الشيء الثقيل الثمين، فهذه الأعمال التي ظنّ أصحابها أنها صالحة ليست كذلك فليست ثمينة.

القول الثاني: لا يعتد بهم ولا نقيم لهم قدرًا ولا منزلةً، وإلا فسيوضع الميزان، ميزان حقيقي له كِفتان.

الصحيح أن الذي يوزن في الميزان ثلاثة أشياء: الحسنات والسيئات -هذه الأعمال- أصحاب الأعمال، أي توزن الناس أنفسهم.

لذلك قال النبي -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- للصحابة لما رقىٰ ابن مسعود -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- النخلة فرأوا دقة ساقيه فضحكوا: «مَا يُضْحِكُكُمْ مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ»(١). فيوزن العمل، ويوزن العبد، وتوزن صحائف الأعمال، وتوزن الكتب. قال الله -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء:٤٧]، وقال: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [المؤمنون:١٠٢-١٠٣].

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾

قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾، اختلف المفسرون في عود اسم الإشارة «ذلك» علىٰ أقوال:

القول الأول: قالوا يعود علىٰ ما تقدم من وعيدهم، الوعيد الذي ساقه الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

القول الثاني: قالوا يعود علىٰ شيء مقدر في الذهن، يدل عليه السياق والكلام الذي سيأتي، وتقديره: «أي الأمر والشأن ذلك جزاؤهم جهنم». لذلك اختلف المفسرون

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه في كِتَابِ إِخْبَارِهِ -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنْ مَنَاقِبِ الصَّحَابَةِ، ذِكْرُ تَمْثِيلِ الْمُصْطَفَىٰ -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- طَاعَاتِ ابْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، (٧٠٦٩). قال الألباني -رَحِمَهُ اللَّهُ- حسن صحيح - «الصحيحة»، (٣١٩٢).

في إعراب هذه الجملة اختلافًا كثيرًا، والذي يظهر -والله أعلم- أنّ ذلك هنا مبتدأ أول، وجزاؤهم مبتدأ ثانٍ، وجهنم خبر للمبتدأ الثاني، وجملة ﴿جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ خبر للمبتدأ الأول في ذلك. ولكن نحن لن نشير إلىٰ الإعراب، نتجاوز عن هذه المسألة.

قال: ﴿جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ١٠٦﴾، «الباء» للسببية، يعني ذلك جزاؤهم جهنم بسبب كفرهم واتخاذهم آيات الله ورسله هزوًا. ولذلك انظر إلىٰ ختام هذه الآية، فيه تنبيه وإشارات إلىٰ بدايات السورة؛ فإنهم اتخذوا الآيات هزوًا، وطلبوا آيات من النبي -صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ-، وحاولوا أن يجادلوا في هذه الآيات، وكذلك استهزؤوا بالنبي -صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ- وأرادُوا أن يعجزوه -صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ-، ويسألونه أشياء، فهذا من باب اتخاذ الرسل هزوًا.

فقد يقول قائل، فلماذا قال: ﴿وَرُسُلِي﴾ ولم يقل ورسولي، فهم اتخذوا النبي -صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ- هزوًا، والآيات تتكلم عن سياق الكافرين؟

قال أهل العلم: إن كان قيل المراد به الرسول -صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ-، فمن كفر برسول واحد فقد كفر بجميع الرسل، كما قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٠٥﴾ [الشعراء:١٠٥]. وقوم نوح كذبوا نوحًا -عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ-، لكن التكذيب برسول يشمل تكذيب جميع المرسلين. وإن كان المراد بالجمع فعلًا علىٰ حقيقته، فيكون هذا في حال كفار قريش، وفي حال من سبقهم من الأمم الكافرة قبلُ، الذين كذبوا رسلهم. وهذا مجمل ما يتعلق بهذه الآيات التي بين أيدينا.

❋ ❋ ❋

الدرس الثاني والعشرون

(١٠٧-١١٠)



﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴿١٠٩﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾

مناسبة الآية لما قبلها: لما ذكر الله -عَزَّوَجَلَّ- حال الكفار بقوله: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾... الآيات، عقَّب بذكر حال المؤمنين؛ ليظهر التباين بين الفريقين، وأيضًا لما ذكر الوعيد في قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ﴾، أتبعه بذكر الوعد في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾. وهذه من طريقة القرآن وهو ما يسمىٰ بالمثاني؛ إذا ذكر الوعد يذكر بعده الوعيد، أو إذا ذكر الوعيد يذكر بعده الوعد، وهكذا. قال -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فيه إشارة إلىٰ ما ذُكر قبلُ من قوله: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾﴾. في قوله -تعالىٰ-: ﴿يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾﴾، جاء بقوله: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لأنَّ شرط قبول العمل

الإخلاص والمتابعة.

شـــرطُ قبـــولِ الســـعي أن يجتمعـا فيــه إصــابةٌ وإخــلاصٌ معــــــا

للـــــه ربِّ الـــــعرش لا ســـــــواه موافـــق الشـــرع الـــذي ارتضـــاه

فهنا لما كان أولئك يظنون ﴿أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ١٠٤﴾، نبه علىٰ أنَّ المؤمنين هم الذين يحسنون صنعًا.

قوله: ﴿كَانَتْ﴾ كان فعلٌ ماضٍ. فلماذا قال كان ولم يقل ستكون لهم جنات الفردوس نزلًا؟

قال أهل العلم **لأمرين:**

الأمر الأول: يحتمل أن يراد به الكينونة الماضية؛ فهذا يعني أنَّ هذه الجنات أُعدت لهم، وذلك في عِلْم الله -عَزَّوَجَلَّ-؛ فعَلِم الله -عَزَّوَجَلَّ- أنَّ هؤلاء هم الذين ستكون لهم جنات الفردوس نزلًا.

الأمر الثاني: قيل هذا من باب التحقيق، تحقيق الكرم لهم، وأنَّ هذا نزلًا لهم، وسيكون منزلهم.

والأمران واقعان، أي: عَلم الله -سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ- أنَّ هؤلاء هم الذين سبق في علمه أنَّ لهم جنات الفردوس نزلًا، وأيضًا هذه الجنات أُعدت لهم.

ولذلك جاء بقوله: ﴿لَهُمْ﴾ اللام هنا للاستحقاق، أي هم المستحقون لهذه الجنات.

قال: ﴿جَنَّتٍ﴾ جمع جنة.

وقوله: ﴿جَنَّتُ ٱلْفِرْدَوْسِ﴾، في تفسير ﴿ٱلْفِرْدَوْسِ﴾ **قولان**، وعليهما يترتب المعنىٰ:

القول الأول: أن يكون المراد بـ﴿ٱلْفِرْدَوْسِ﴾ هنا في قوله: ﴿جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ﴾ ما ذكره النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- أنَّ الفردوس هو أعلىٰ الجنة وهو أوسط الجنة؛ حيث قال: «**فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ، فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَىٰ الجَنَّةِ**»(١)، فحينئذٍ تكون الإضافة هنا إضافة حقيقية، ويكون هذا الثواب ليس لكل المؤمنين؛ وإنَّما لمن كَمَّل الإيمان والعمل الصالح، وهم الأنبياء والمقربون؛ فإنَّهم هم الذين ينالون أعلىٰ الجنة.

القول الثاني: إذا قلنا بأنَّ ﴿ٱلْفِرْدَوْسِ﴾ هنا يطلق علىٰ البستان الذي يجمع الأشجار الملتفة ويجمع الكَرْم ونحو ذلك، فحينئذٍ تكون الإضافة إضافة بيانية، فيكون المراد به منازل الجنات، وهذا يشمل جميع طبقات أهل الإيمان وهذا هو الأقرب؛ لأنَّه ذكر الجنات بلفظ الجمع، ولو أراد الفردوس بخصوصها لقال «جنة الفردوس». فقال: ﴿جَنَّٰتٍ﴾ فتكون إضافة بيانية؛ وحينئذ يكون الفردوس تفسيره؛ بأنَّه البستان العظيم الملتف بالأشجار، فيه من أشجار الكَرْم ونحو ذلك. وفي كلمةٍ ﴿نُزُلًا﴾ فيها **قولان:**

القول الأول: ﴿نُزُلًا﴾ بمعنىٰ منزلًا.

القول الثاني: ﴿نُزُلًا﴾ بمعنىٰ ما يُعد لهم من الضيافة.

والأمران محتملان وصحيحان، هذه الجنة أُعدت لهم منزلًا، وأُعد لهم ما فيها من النعيم والثمار ونحو ذلك ضيافةً لهم.

---

(١) أخرجه البخاري في كِتَابِ الجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابُ دَرَجَاتِ المُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، يُقَالُ: هَذِهِ سَبِيلِي وَهَذَا سَبِيلِي، (٢٧٩٠).

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾

قال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، أي لابثين في هذه الجنات في جنات الفردوسِ أبدًا. ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾، أي لا يتطلبون عنها تحولًا إلىٰ غيرها، ولا يختارون سواها. لماذا جيء بجملة ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾، ما السبب ولو قال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ لاتضح الأمر، لكن لماذا قال: ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾؟ قال أهل العلم:

هذا فيه دفع لتوهُّم شيء مراد، وهو أنَّ الإنسان إذا رُزق بنعيمٍ في الدنيا، فإنه يشتهي نعيمًا أعظم منه، وقد يصيبه الملل من النعم التي هو فيها، فيريد أن ينتقل إلىٰ غيرها، فذكر الله -عَزَّوَجَلَّ- أنَّ هؤلاء لا يبغون عن هذه الجنة حولًا، ولا يبغون التحوُّل لشيءٍ آخر؛ فثمارها متجددة ونعيمها متجدد وهم فيها متنعمون. ولذلك في قصة أصحاب الجنتين في سورة سبأ، أغدق الله -عَزَّوَجَلَّ- عليهم؛ لكنهم سئِموا تلك النعم. قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ﴾ [سبأ:١٨].

أي ما يحتاجون إلىٰ أن يتزودوا في السير لتقارب القرىٰ؛ وما يحصل فيها من النعيم؛ لكنهم سئِموا تلك النعم؛ قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾ [سبأ:١٩].

وهذه **فائدة** مهمة جدًّا، وهي إياك أن تسأم من النعم التي أعطاك الله -عَزَّوَجَلَّ- وتتطلع عينُك إلىٰ غيرها؛ فحينئذٍ هذا يورثك -والعياذ بالله- التسخُّط علىٰ قضاء الله وقدره. ولذلك في نظرك إلىٰ الآخرة، تنظر إلىٰ من هو أعلىٰ منك، ومن سبقك إلىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ-، وفي الدنيا تنظر إلىٰ من هو أقل منك؛ حتىٰ تحمَد الله -عَزَّوَجَلَّ- علىٰ

النعم التي أنت فيها؛ لأنَّ الإنسان إذا نظر إلىٰ من هو أعلىٰ منه تشوَّقت نفسه إلىٰ هذا الشيء؛ فربما أورثه ذلك سُخطًا ونَدامةً، أو سعىٰ إلىٰ تطلب ما هو أعلىٰ منه بغير الطرق المشروعة، فإياك أن تمل نعم الله -عَزَّوَجَلَّ- عليك. وينبغي للإنسان أن يرضىٰ بما كتب الله له، ويعلم أنَّ ما أعطاه الله -عَزَّوَجَلَّ- هو خير؛ فيحمَد الله -عَزَّوَجَلَّ- فالحمد لله علىٰ كل حال.

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾

قوله: ﴿قُل﴾، أي يا محمد ﴿لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا﴾، والمقصود بالمِداد الحبر. وهنا كلام محذوف، تقديره: «لو كان البحر مدادًا لكتابة كلمات ربي»، أي حبرًا لكتابة كلمات ربي الكونية والشرعية. ﴿لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾، والمراد بالكلمات هنا الكلمات الشرعية، وهو ما أوحاه الله -عَزَّوَجَلَّ- إلىٰ رسله من الوحي، والكلمات الكونية، وهو ما قضاه الله -عَزَّوَجَلَّ- وقدره.

قال: ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾، أي لفرغ البحر قبل أن يفرغ من كتابة كلمات ربي.

قال أهل العلم: وإنَّما لم تنفد كلمات الله -عَزَّوَجَلَّ-؛ لأنَّ كلامه -جَلَّوَعَلَا- صفة من صفاته؛ فلا يتطرق إليها نفاد.

كلامُه جـلّ عـن الإحْصَـاءِ ... والحصـرِ والنفـادِ والفنـاء
لـو صـار أقلامًـا جميـعُ الشَّـجر ... والبحـرُ تلقـىٰ فيـه سـبعةُ أبحـر

والخلـــــقُ تكتبُــــــه بكـــــــــل آنِ   فنَـتْ ولـيس القـول منـه فــانِ (١)

قول الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾، يتكلم عن سعة علم الله -عَزَّوَجَلَّ-.

لماذا جاء بالاسم الظاهر في البحر وفي الكلمات؟ يعني تقدير الآية: «قل لو كان البحر مدادًا لكلمات ربي لنفد هو، أي البحر، قبل أن تنفد هي، يعني كلمات ربي».

قال أهل العلم: إنَّما جاء هنا بالبحر والكلمات مع أنَّ موضعها موضع الإضمار؛ لزيادة التقرير، وأيضًا فيه تعظيم لكلمات الله -عَزَّوَجَلَّ-.

تأمل الإضافة في قوله: ﴿رَبِّي﴾، هذا من باب التعظيم والشرف للنبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ-، وأيضًا للكلمات.

فقوله: ﴿وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ﴾، أي ولو زدنا البحر بمثل ما فيه من الماء مرةً بعد أُخرىٰ؛ لنفد ماء البحر وما زيد فيه من بحار، ولم تنفد كلمات الله -عَزَّوَجَلَّ-. فهذا مثل قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ﴾ [لقمان:٢٧]. تعاظم ربُنا وتقدس، وتعالىٰ جده، ولا إله غيره.

قال: ﴿وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩﴾، جواب «لو» محذوف، والتقدير: ولو جئنا بمثله مددًا لنفد هذا المدد، ولم تنفد كلمات الله -عَزَّوَجَلَّ-.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ﴾، ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾، فيها علاقة ببداية السورة.

---

(١) انظر: معارج القبول بشرح سلم الوصول إلىٰ علم الأصول، للشيخ حافظ الحكمي -رَحِمَهُٱللَّهُ-، (١/ ١٠)، ط دار ابن القيم – الدمام، ١٤١٠هـ.

العلاقة ببداية السورة هذا يسمونه رد العجز علىٰ الصدر، فيه تنويه بشأن القرآن؛ لأنَّه لما قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾، والقرآن كلام الله -عَزَّوَجَلَّ-، وقال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾، فذُكر القرآن في أول السورة، وذكر في آخر السورة، وذكر القرآن في وسط السورة، وهذا أشرت إليه مسبقًا.

وفيه **فائدة** وعلاقة بمقصد السورة وهو الفتن، أنّ التمسك بالقرآن من أعظم الأسباب التي تثبت الإنسان عند الفتن. قال النبي -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-: «**وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ، كِتَابُ اللهِ**»[(١)].

قوله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾، لها مناسبة لما قبلها، **المناسبة**: أن المشركين لما سألوا النبي -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- عن ذي القرنين وسألوه عن أصحاب الكهف، ظنوا أنَّهم سيعجزون النبي -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- وأنه لن يجيب؛ لكن لـمَّا كان النبي -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- مرسل وهو نبي من عند الله، إذًا فهو سيأخذ عن الله -عَزَّوَجَلَّ-، وعلم الله -عَزَّوَجَلَّ- واسعٌ لا نهاية له، ولذلك جاء بقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ الخطاب هنا للنبي -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-، قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين كانوا يحاجّونك ويجادلونك، والخطاب يعم

---

(١) أخرجه مسلم في كِتَاب الْحَجِّ، بَابُ حَجَّةِ النَّبِيِّ -ﷺ-، (١٢١٨).

غيرهم. في قوله: ﴿أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾، هنا حصر وقصر، وهو باب قصر الموصوف علىٰ الصفة.

أي ما أنا إلا بشر لا أتجاوز البشرية، فأنا لست أعلم الغيب. وهذا فيه أيضًا **مناسبة** ببداية السورة؛ لـمَّا سألوا النبي -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- عن أصحاب الكهف، وسألوه عن ذي القرنين، فالنبي -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- لم يكن عنده جواب في البداية؛ فقال لهم غدًا سأُخبركم ولم يقل إن شاء الله لأنه بشر، فالفرق بينهم وبينه أنَّه يوحىٰ إليه، وهم يشتركون بصفة البشرية، لكنْ النبي -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- يوحىٰ إليه، وهم لا يوحىٰ إليهم. فلذلك قال: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾؛ لأنَّ المشركين كانوا يجعلون مع الله -عَزَّوَجَلَّ- آلهةً أخرىٰ.

﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾، أيْ يرجو ثواب الله -عَزَّوَجَلَّ- ويرجو رؤية الله -عَزَّوَجَلَّ- في الآخرة؛ فليعمل عملًا صالحًا.

وهذا فيه **فوائد**:

الفائدة الأولى: فيه دليلٌ علىٰ رؤية الله -عَزَّوَجَلَّ- وأنَّ المؤمنين يرون ربهم -عَزَّوَجَلَّ- كما يرون القمر ليلة البدر، لا يضامون في رؤيته.

الفائدة الثانية: أنَّه ينبغي للإنسان الاستعداد للقاء الله -عَزَّوَجَلَّ- ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ﴾ [النساء:٢٢٣]. الضمير في قوله: ﴿مُّلَٰقُوهُۗ﴾ يعود علىٰ الله -عَزَّوَجَلَّ-. وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦﴾ [الانشقاق:٦]. فالإنسان يستعد للقاء الله -عَزَّوَجَلَّ- بالعمل الصالح، ويعلم أنّ هذه الدنيا دار ممر وليست مقرًّا.

وإلىٰ الـدّيَّان يـوم الحشـر نمضـي فعنـد الله تجتمـعُ الخصـومُ

فيعد الإنسان في ذلك الموقف عُدته، فنسأل الله -عَزَّوَجَلَّ- أن يتجاوز عنا ويغفر لنا ولكم.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، الذي يريد أن يستعد للقاء الله -عَزَّوَجَلَّ- فليعمل، ولم يترك العمل مطلقًا، بل قيده بأنَّه العمل الصالح ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، والعمل الصالح هو الذي يكون موافقًا لسنة النبي -صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-، يعني موافقًا لما شرعه الله -عَزَّوَجَلَّ- علىٰ لسان رسوله -صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-. فحينئذٍ هذا الشرط الأول من شروط قبول الأعمال، وهو أن يكون العمل صالحًا، أي موافقًا لسنة النبي -صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-.

وسبق الإشارة إلىٰ هذا في بداية السورة، وهو قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾، قلنا هو العمل الصالح. قال: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ۝١١٠﴾، **قولان** لأهل العلم:

القول الأول: يحتمل أن يراد بالشرك هنا الرياء وهو الشرك الأصغر؛ فيكون هنا قد اجتمع الشرطان: الإخلاص والمتابعة.

القول الثاني: ويحتمل أيضًا أن يراد به الشرك الأكبر كذلك، وهو عبادة غير الله -عَزَّوَجَلَّ-.

فيحتمل قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ﴾ الشرك الأكبر والشرك الأصغر. وإن كان ظاهر الآية يدل علىٰ أنَّه الشرك الأصغر، لكنْ يَحتَمِل اللفظ الوجهين، وهذا صحيح.

قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ۝١١٠﴾، تقدير الآية:

«ولا يشرك أحدًا بعبادة ربه»، فلماذا قدم قوله: ﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ ﴿١١٠﴾﴾؟ لأمرين:

أولًا: للتنبيه بأنَّها عبودية لله -عَزَّوَجَلَّ-.

ثانيًا: أنَّ هذا حق لله -عَزَّوَجَلَّ-، فلا يصرف لغيره.

هذا ملخص ما يتعلق بهذه السورة. وبهذا، نكون قد انتهينا من تدارس هذه السورة.

❋ ❋ ❋

الخاتمة

الحمد لله الذي هيّأ لنا من أمرنا رشدًا، والحمد لله أولًا وآخرًا، والصلاة والسلام علىٰ خير الورىٰ، وآله وصحبه أولي الفضائل والنُّهىٰ.

أما بعد: فقد عشنا مع تفسير سورة الكهف أيامًا، وفي ختام هذا الكتاب، فإن خير العمل ما حسُن آخره، وإننا نشكر الله -تعالىٰ- علىٰ نعمة العلم، وما يسره الله لنا من السبل كافة لكتابة هذا المحتوىٰ. وقد حث الشريعة المطهرة علىٰ تبليغ ما جاء به الرسول -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، كلٌّ بحسب استطاعته وعلمه، فقال النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «بلِّغُوا عَنِّي ولَوْ آيَةً». فنسأل الله العظيم أن نكون قد وفِّقْنا في تفريغ حلقات تدارس سورة الكهف، فما كان فيها من الصواب، فمن الله وحده، وما كان فيها من خطأ، فمن أنفسنا ومن الشيطان، ونسأل الله أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، والحمد لله رب العالمين.

❋ ❋ ❋

فهرس الموضوعات

❋ ❋ ❋